سيرين الحسيني شهيد

ذكريات من القدس

ترجمة : محمد برادة   تقديم : إدوارد سعيد

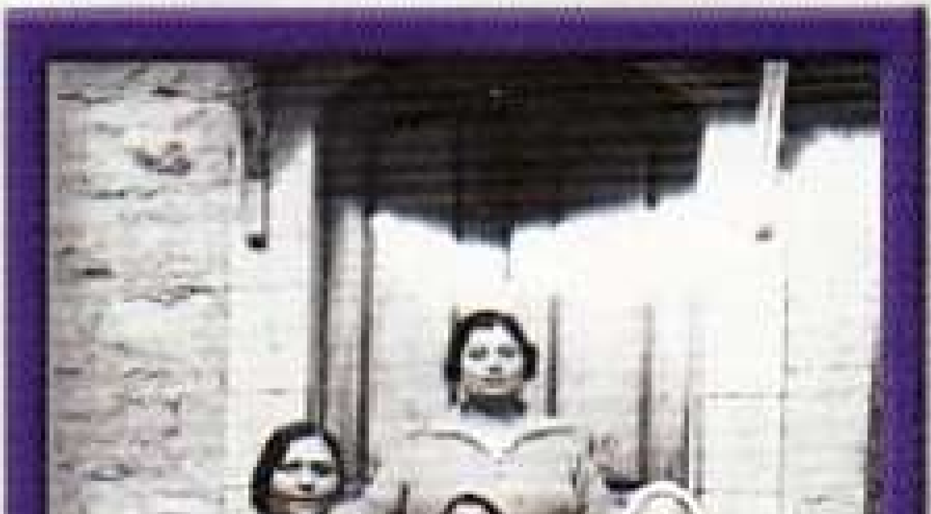

الشروق

المحتويات

– إشارة من المؤلفة 9

– إشارة من المحرّر 11

– تقديم لإدوارد سعيد 15

– السنوات الأولى في القُدس 21

– شقائق النعمان 38

– شجرة البلوط 46

– هالة 57

– سياج الصبّار 63

– جبل التجربة 77

– ڤيرا وتاتْيانا 90

– "السيد" سيرين الحسيني وثانوية الفرايندز 99

– لَعِبُ أطفال 108

– سامي الأنصاري 117

- بيسان 123

- التعرّف على عابد 131

- منفَى 135

- بيروت 142

- في أعقاب ذلك 148

- كوليج الفتيان الأمريكي 158

- الستّ زكية 167

- بغداد 183

- الستّ وجيهة 192

- **1948** 199

- تمزُّق العائلة 204

- الخال موسى 212

- العودة إلى أريحا : **1972** 222

- العودة إلى القدس 232

- بيت الشرق 240

- اجتماعات الأسرة 251

- موسى العلمي والاجتماع الأخير 258

- العمّ إبراهيم والخالة ألماني 263
- أمّ يوسف 275
- الإنعاش 283
- كانوا يريدون العودة إلى بيوتهم 287
- لقاء غريب 292
- أربع نساء 295

إشارةٌ من المؤلفة

كتبتُ هذه الصفحات عن طفولتي وعن فلسطين في الثلاثينات من القرن الماضي، من أجل بناتي والأجيال الآتية التي لعلها تجهل كل شيء عنّا وعن طريقة عيْشِنا. ويبدو لي مُهمّاً الحِفاظ على ذاكرة تلك الأيام المنْدَثرة؛ ذلك أن الأمل في مستقبل أفضل لا يمكنه أن يتغذّى إلاّ بمعرفةٍ حقيقيّة للماضي.

وأول شيء أحرص على قوله، هو أنه لا شيء كان يُميّزنا عن بقيَّة سكان هذه المعمورة، لكن مصيرنا لم يكن مثل مصيرهم.

وأظنّ أنه ما كان بِوُسْعي أن أَتوفَّر على الثّقة الضرورية لكتابة هذه المحكيات، لولا تَشجيع الأصدقاء والأقارب؛ و عددهم الكثير يحول دون ذِكْر أسمائهم هنا، إلاّ أنني أريد أن أغتنم الفرصة لأشكرهم جميعهم. وإن امتناني لَيَتَوجَّه بالأخص إلى إلياس صنبر، رئيس تحرير "مجلة الدراسات الفلسطينية"، الذي كان من بين الأوائل الذين قرأوا بعض هذه الحكايات، وبَادَرَ إلى ترجمة ثلاث منها إلى الفرنسية نشرها بالمجلة التي يشرف عليها. وأعبر عن امتناني أيضا لإدوارد (تيدي) هودكَان، أحد أصدقاء خالي موسى، والذي تفضَّل بِإمْدادي بالتفاصيل التي كنتُ أجهلها مِنْ حياة خالي موسى العلمي. وأَشكر أيضا إدوارد

سعيد الذي قَبلَ أن يقدم هذا الكتاب؛ وأخص بالإمتنان جين سعيد المقدسي التي أَمْضَتْ شهوراً طويلة في مراجعة هذه الصفحات و التأكّد من مُحتواها معي؛ وبفضل مساعدتها، استطعتُ أن أُجمِّع في هذا الكتاب هذه الذكريات عن فترةٍ زمنية بعيدة.

سيرين الحسيني شهيد

***

إشارةٌ من المحرّرة

حينما أطلعتني سيرين الحسيني شهيد على الذكريات التي كانت قد سجلتْها، بدتْ لي خجولة، مُتحفِّظة، لا تعرف تماما ما تفعل بها. لكنها كانت متأكدة من شيء: أن كتابتها قد استجابتْ لضرورةٍ قاهرة.

وأنا أقرأ هذه الصفحات لأول مرّة، أثار انتباهي قوّتها على الاستحضار البصريّ. وكانت سيرين قد اختارت الكتابة بالإنجليزية بدلاً من العربية. بالفعل، على رغم أن غرضَها الأول كان هو أَن تحكيَ ماضيها لبناتها وأحفادها، فإنها كانتْ تتمنّى كذلك أن تنقل ذكرياتها إلى جمهور قارئ أوسع. كانت تريد أن تُظهر أن الفلسطينيين كانوا، ذات يوم شعباً مثل جميع شعوب العالم.

وربما لأنها كانت مكتوبةً بلغةٍ هي لغة ثانية بالنسبة إليها، فإن هذه المشاهد ـ هكذا بَدَتْ لي ذكرياتُ سيرين، صوراً من ماضٍ انْقَضى إلاّ أَنه لم يُنْسَ ـ كانت تحيا بطريقةٍ بسيطة ومُباشرة على شاكلةً اللّوحات الساذجة.

إن سيرين لم تَسْعَ إلى كسب دعاية؛ فهي بعيدة أن تُعطي دروساً أو أَنْ تخوض جدالاً حول الماضي الفلسطيني؛ ولم تطمح إلى كتابة تاريخ اجتماعي أَو سياسي لفلسطين، كما لم تقصد كتابة سيرةٍ ذاتية تقليدية.

هي، بكل بساطةٍ توقَّفت خلال سفرها الشخصي عبر الماضي، عند بعض اللحظات التي تملأها، وهي تستعيدها، بالفرح أو الألم، وعند بعض ملامح الشخصيات التي أَثَّرتْ فيها بكيفية خاصة. ثم فيما بعد، طوَّرتْ هذه الموضوعات داخل الفضاء الصغير المبتَدَع لكل واحدة من هذه الذكريات الثَّمينة.

وعلى رغم أن كل واحدة منها أخذت شيئاً من حُلْم يتلاشَى، فإن هذه الزخارف المكتوبة كانت تكتسي، نتيجة لمظهرها البَصري، ملامح ملموسة وجدتُها آسرةً بقوَّة.

إنني منذ أمد طويل، مُقتنعة بأن ذكريات النساء العربيات تستحق أن تُجمع و تُسجَّل و تُنشر.

ويبدو لي أن المحكيّ الجامعي عن الماضي المكتوب من لَدُنِ المؤرخين والسوسيولوجيين، هو ناقص، وإذنْ مُشوَّه، أو على الأقل مفصول عن الواقع الممتلئ والمحسوس الذي يَدينُ بالكثير للحياة والإدراك النسائييْن. أصوات وروائح، صور، ملابس، مشاهد منزلية، حدائق، أغنيات ورقصات: كلها مظاهر غائبة، بصفة عامة، عن المحكيات الأكاديمية ومُضحَّىً بها لصالح سردٍ أكثر تجريداً للماضي.

وإذا كان وجود النساء قلَّما يُستحضَر في كتب التاريخ الرسمية، فإنه أكثر غياباً عندما يتعلَّق الأمر بالأطفال والبنات خاصة. وهذا هو مصدر حماسي لقراءة كتاب سيرين.

وبقَدْر ما كنّا معاً نُعطي شكلاً لهذه المحكيات، ونُمعن في تحقيق أسماء الناس و الأمكنة، و نُصحح كيفية كتابة أَلقاب أقاربها و أصدقائها

العديدين ، أَو نضبط تواريخ ذهاباتهم وإياباتهم ، وبِقدر ما كنّا نُحدّد تصميماً ونُعدِّل الصيَّغ المتتالية ، كان ماضي سيرين يزداد حيوية في نظري . إن ذكرياتي الشخصية عن القدس التي بدأت تنحسر ، قد استعادت وهجها ؛ فرأيتُ من جديد الأزقَّة المبَلَّطة و النوافذ المدبَّبة ، والباحات ذات الأعمدة ، والسقَّايات وأقواس البيوت القديمة ، والآثار التاريخية المجيدة ، وأشجار وحقول الضّواحي . . . استنشقتُ العطور ، وأدركتُ ضوضاء هذه المدينة التي لا نظير لها ، مسقط رأسي و مسقط رأس سيرين . إنَّ هذه الذكريات قد ابْتَعَثَتْ في دخيلتي إحساساً قوياً بالخسارة ، انْتَسجَ بألم داخل قماش هذه الصّور و كأنه طِباقٌ سرديٌّ .

إن فتاة من القدس تخلق من جديد خلال هذه الصفحات التالية بعض اللحظات من التاريخ الحديث لمدينتها ، مُضيفةً بذلك بُعداً جديداً إلى مَحْكيّ التاريخ الفلسطيْني .

جين سعيد مقدسي

***

تقديم إدوارد سعيد

" في بعض الأيام، يُثقل الماضي كثيراً على القلب. لكنني أُعَاوِدُ الاستغراق فيه وأَتذكّر".

تلك هي الكلمات الأخيرة، البسيطة والمؤَثرة بِعمق، في الكتاب الذي تَسْتَحضر فيه سيرين الحسيني ماضيَها الفلسطيني والذكريات المقتَطَفة ـ كما يقول الشاعر ـ في هَدْأَة إِقامتها الحالية بِبيروت.

إنها، وهي المولودة سنة **1920** في حضن أَكبر أُسْرةٍ للأَعيان الفلسطينيين بالقدس آنذاك، قد تمكَّنت بطبيعة الحال منْ ارتياد وسطٍ محظوظ ومُوسِر. وعلينا أن نوضح بأن هذا الامتياز لَم يُبعدها عن مشكلات شعبها الذي كان يعاني آنذاك في الوقت نفسه مِنْ دَمَارِ نظام الإنتداب البريطاني (الذي انتهى العامَ **1948** بتحطيم المجتمع الفلسطيني)، ومن التهديد الكاسح لِلتَّوَسُّعات الصهيونية.

إن سيرين تقول لنا منذ البداية بأن ذكرياتها تتناول، أساساً، الأَمكنةَ في القدس وما جَاوَرها، وفي أَريحا أومواقع فلسطينية أخرى، ثم في لبنان؛ لكنها في الآن نفسه ترسم صورة مُفصَّلة لِشَبَكةِ الأهل والأصدقاء الواسعة التي ترعرعتْ داخلها وتعلمت، وفيها تكوَّنَ وعيُها. وكما

سيكتشف ذلك القارئ بسرعة، فإن أشياء قليلة تَفلتُ من نَظَرها النافذ على رغم أنها لا تعتبر نفسها لا امرأة آداب ولا مناضلة. لقد كانت، وهي شابَّة، حساسةً ومليئةً بالبشاشة، تَمتّلكُ إقبالاً طبيعياً على الناس والأمكنة. ومِنْ خلال تعبيرها، عبر التفاصيل المؤلمة غالباً والحَّية دَوْماً، عن المشاعر التي أوْحوْهَا إليها، نَجدُها تُعيدُ رسم شبابها والتنقُّلات والمآسي الناجمة عن الموت وتبدُّلات الحياة المفروضة وعن المنفى، كما ترسم مسرَّاتِ الاستكشاف والعلاقات والحب التي كيَّفَتْ حياتها كفلسطينيةٍ وزوجة وأُمّ، خلال فترةٍ هامّة من القرن العشرين.

إن مَقَاطع محكيِّها السابقة لِسُقُوطِ فلسطين هي، مُنذئذ، مُثقلة بالمصائب. فمنذ الصفَحات الأولى، عند استحضارها عَرَضاً لِلاَّجئين الأَرمن المارِّين في أريحا، أَحسَّ والدُها جمالُ الحسيني بالمنفَى الذي ينتظره. ذلك أن ما يقرب من **800.000** فلسطيني سيعرفون هذا المصير سنة **1948**؛ لكن لأنه كان أحد القادة الوطنيين لِلْهَبَّةِ ضدّ البريطانيين ما بين **1936**و**1939** ، فإن جمال الحسيني سيُنفَى لِعَشْر سنوات قبل تحطيم فلسطين، هو ووُجوهٌ أخرى بارزة في الحركة الوطنية. وتحتلُّ أُسرة سيرين القمَّةَ في التَّراتُب الفلسطيني:

إذْ يمكن أن نستحضر الحاج أمين الحسيْني المفتي، وخَالَ سيرين موسى العلمي اللاّمع، المتخرِّج من كامبريدج والذي كانت أفكاره الحديثة في مجالي السياسة والزراعة جدّ متقدمة على عصره. ومع ذلك، فإن أحداً من هؤلاء الرجال لم يَنْجُ من العداء الذي أصاب معظم

اللاَّجئين. إلاّ أَن اعتقالهم وانفصالهم السابق لأوانه عن شعبهم لَيْسا غريبيْن عن عدم استعداد أُمَّةٍ (فلسطين)، ستجد نفسها مسحوقةٍ من لَدُنِ قوَّاتٍ صهيونية أفضل تنظيماً وتسليحاً ومصمِّمة على طردها. ومن خلال عيْني سيرين، نُشاهد أَولاً البريطانيين يُناوشون الفلسطينيين حدَّ الإنهاك قبل أنْ يُسلموهم إلى الهجانا وهم مُجرَّدُونَ من ما هوأساسيٌّ للدفاع عن النفس. وفيما بعد، أُرْتُّجلتْ الحياة من خلال حركات مُتقطّعة من فلسطين إلى لبنان والعراق وفي مناطق أخرى.

تَلْفتُ نَظرَنا أيضاً إرادةُ سيرين المُصمِّمة على الاستمرار في الحياة وقُدْرَتُها على الاستفادة من جميع الإمكانات التَّربوية التي قَدَّمتْها لها مدارس الفرندز (البروتستانت) في رام الله والجامعة الأمريكية ببيروت. وبالنسبة لفتاة عربية خلال ما بين الحربيْن العالميتيْن، لم يكن مثل هذا المستوى من التعليم مألوفاً؛ لكننا نستطيع أَن نرى فيه علامة مُنْبئة بالطَّاقة الخارقة التي دفعت الفلسطينيين، منذ ذاك، وخاصة النساء، إلى عدم الاكتفاء بأن يكونوا مُتفرجين كُسالَى أوسلبيين، بل دَفَعَتْهُم إلى الإسهام في الحملة المشتركة للتنمية والكفاح الجماعي. ومثل ما هوالشأن بالنسبة للكثير من مواطنيها، فإن التَّربية وتعلُّم الاستقلال الذَّاتي قد حَمَلاَ إلى سيرين استمراريةً كانتْ تعوقُها الجغرافيا أوالسياسة. وهذا هوما سيُصبح، بعد نصف قرن من ذلك التاريخ، إحدى خصائص الانتفاضة: تكوين جبهة موحدة من المدنيين، رجالاً ونساءً وأطفالاً، يتحدَّوْنَ بتَلاحُم، القوات الإسرائيلية عبر مجموع الأراضي المحتلَّة، وذلك بفضل تنّظيمهم وفكرهم الابتكاري وذكائهم

وإرادتهم المتفائلة. وإذا كنتُ أُسجّل هذه الملاحظة، فلأنني أريد أن أُبرز الشجاعة والمثابرة اللّتيْن أظهرتْهما سيرين طوال المِحَن، وعلى رغم تراكُم الأخبار السّيئة والموتَى والفِراق والخسائر، مُبيِّنةً كيف أَنَّ تاريخها الشخصي يعكس الخُطاطةَ العامة التي كانت منذ أمدٍ طويل وراء تَشْتِيتِ شعبها.

أَحرُص كذلك على توضيح أَنَّ المظهر الحكائي الذي يكاد يكون مُفكَّكاً، يُقدم لنا مَحْضَراً نفيساً، غير رسمي، وشخصياً عن حياة الناس العاديين الذين تحتَّم عليهم أن يُواجهوا منظمةً سياسية حديثة ومُصمِّمة على أن تَحذفَهُم من التاريخ. وعلى عكس إسرائيل، فإنّ فلسطين ما بعد **1948** (وحتى قبل ذلك، في القسط الأكبر) لم تكن تتوفَّر على أرشيف؛ لم يكن هناك اهتمام بإحصاء الممتلكات وتوثيق الأحداث وتَرْك وثائق رسمية لِلْخَلَف؛ وهوما سهّل أَكثر، مشروعَ اجتثاث الفلسطينيين. وحتّى اليوم، وعلى رغم ظهور تيَّار المؤرخين الإسرائيليين الجدُد، فإن المظهر العربيّ للصراع يُسجَّلُ انطلاقاً من المصادر الصهيونية أَوالبريطانية. وهذا لا يعود فقط إلى الوصول إلى الوثائق في المكتبات؛ بل إن نموذج الصراع نفسه الذي وَجَّه المجابهة بين الصهيونيين والفلسطينيين قد أدَّى، عن قصد، إلى الحيْلولة دون إعادة تكْوين ونَقْل التجربة المعيُوشة. كيف لا يُصيبنا الرعب ونحن نفكّر فيما كَابَدَتْهُ آلاف الضحايا المطرودين من منازلهم، المرغَمين أن يسيروا مسافات طويلة على الأقدام، مُعرَّضين للموت أَويُعاد إسكانهم بطريقةٍ فجَّة في مخيمات وأكواخ بائسة ودُورٍ مؤقتة في مختلف الأقطار

العربية المجاورة؟ كل هذا كان يُراد له، منذ البدء، أن يَختفي وأن يظل مستوراً، غير مرئيّ ولا مسموع. وعندما يجرد المؤرخون الوثائقَ يكون مُعْظَمهم، وهذا مفهوم، متحفظين إزاء تأويل أوإسماع صمتِ الفلسطينيين؛ أيضاً فإنهم يقتصرون بطريقة وَضْعِيَّةٍ (وحذِرةٍ) على ما يحكيه أويُدوّنه موظف بريطانيّ أوصهيوني.

إلاّ أن التاريخ، وبِخاصةٍ تاريخ الضحايا، يستمر في الوجود بطريقةٍ أخرى ولا يمَّحي بِسهولة. وهويستطيع أن يستعيد الحياة بِفضل نموذج من الشهادات الشخصية التي تُقدم لنا شهادةُ سيرين شهيد مثالاً بليغاً عنها. ويتمثل الاستحقاق الكبير لكتابها في أنه لا يتحدث فقط عن حياتها وعن أهلها، وإنما يستحضر الوسط كله الذي كانوا يعيشون داخله، أي ذلك النسيج المشترك الذي تَمزَّقَ بطريقة مأسوية سنة **1948**. إننا نشاهد رعاةً وطبّاخين وأساتذة وأعماماً وخالاتٍ وأبناء عمٍّ وفلاحين، وإخواناً وأخواتٍ، ورفاقَ مدرسة، وبُسْتانيِّين وأُناساً مُعمِّرين وأصدقاءَ وعشاقاً وأقارب، وأشياء عزيزة على النفس، وأمكنة ولحظات وفترات: المنازل، والمدارس، والقرى وفضاءات النّزهة والاجتماعات الاجتماعية التي استولت عليها إسرائيل وحوَّلتْها إلى ممتلكات "أجنبية" أوحطَّمتْها بكل بساطة. من خلال كتابة سيرين النثرية، تَنْبعث حياةٌ شخصية من الماضي، بِهدوء ولكن بِعنادٍ أيضاً لِتستوليَ على انتباهنا وتَحثُّنا على التفكير.

ونلمح كذلك من حولها ووراءها تاريخاً جماعياً طويلاً مُدْركاً بكيفية طبيعية وبدون تكلُّفٍ وكأنه ثمرةُ بُنُوَّةٍ وانْتسابٍ لا يستطيع أيّ عنف ولا

أي مؤسسة أن يَمْحُوَاهُ نِهائيا .

إن كتاب سيرين الحسيني شهيد ، هوذخيرة تاريخية وبشرية مُؤَلَّفة أَساساً على شَاكِلَةِ فُسيْفساء من شذرات مُمتعة في مُعظمها ، ومن مسرَّات عابِرة وشقاءات أكثر ديمومة ، وكلها موضوعة بكثير من الاحترام والمحبّة على أَمل أَن تُرَبِّيَ وكذلك بطبيعة الحال أَنْ تجذب القارئ الذي لولا مِثلُ هذه المحكيات ، لما عَلِم شيئاً عن ذلك العالم الذي ضاع اليومَ جانبُه الأساسي . إنها شهادة حميميّة ولا شك ، لكنها أيضاً أدبٌ أَليف ، إِنساني ، صادق ، كريم وفصيح . واستناداً على هذا النوع من المادّة الخام الحيّة سيتشيَّد مستقبل فلسطين ، لأنها مادّة خام ستدوم أمداً طويلاً وستخدم أَهدافاً أكبر من ما قصدتْ إليه سيرين شهيد المتواضعة دوما . إن هذا الكتاب يستحق أن يَجِدَ موضعاً في متحف الذاكرة جنْباً إلى جَنبِ ذكرياتٍ أخرى وذلك حتى لا يستطيع فُقدانُ الذاكرة ولا التقدم التاريخي المزعوم ، أَنْ يَطمِسَا هذه الشهادات .

***

السنوات الأولى في القدس

يحتلُّ والدي سُويْداء قلب ذكرياتي الأولى في القدس. كان يُمضي وقتاً طويلاً معي في البيت، إذ أن أمي مُنْشغلة دوماً مع الأطفال الرُّضَّع المتتالين. في الصباح، كنّا كثيراً ما نتجوّل معاً في الحديقة. وكان عليَّ أنْ أَجري لأِلْحق به، لأَن ساقيّ كانتا تَتْعبان لتسيرا بنفس سرعة ساقيْه المفرطتي الِطّول، أثناء ما كان يتمشَّى داخل تلك الحديقة التي أحبَّها على الدّوام. يتراءَى لي الآن العُشبُ بلونه الأخضر المضيء المزركش بندى الصباح، فيما هويذهب ويَؤُوبُ وأَنَا أعدُوإلى جانبه مُتشبثةً بيده.

مساءً، كان يقُصُّ عليّ حكايات ويُغنّي لِيُنيمَني. كنتُ أحب الاستماع إليه وهويستحضر الألعاب التي كان يلعبها مع إخوته وأَخواته في الِصّغَر. كان يقول لي أن أخته الكبرى فاطْمة كانت تُمسك بيدٍ من حديد "عصابةَ" إخوة ثمانية، بينما الكُلُّ يُدلّل أمينة، الأخت الأصغر.

في مجموعة صُوَرِ طفولتي، هناك ذكرى حيَّة بوجهٍ خاص، تأخذ اليوم دلالةً مُتفرِّدة. ذات يوم، في أَول الظهيرة، دخلت إلى غرفة والديَّ. كان عمري ثلاث أوأربع سنوات. وكان أبي جالساً على طرَف السرير مرتدياً قميصه وبَنطلونه وهوبصَددِ انْتعال حذائه. أسرعتُ لأُساعده في رَبْط سُيُوره مُستعرضةً بِافتخار مَهارتي. أدركتُ أنه على

القدس **1921** .
سيرين واقفة أمام البيت الذي ولدتْ به في حي المصرارا ، وهو البيت الذي يناهُ جدّها فيضي العلمي .

أُهبة الخروج فأخذتُ وأنا مُنكبَّة على حذائه، أترجَّاهُ ألاّ يخرج و أن يظل معي لِنلعب في البيت.

" لماذا تريد الذهاب، أقول له و أنا أتباكَى، لماذا، لماذا، لماذا ؟ "

بدأ يمزح و يضحك معي، لكنه لما رأى أنَ لَغَطي لم يكفّ، رفعني منْ على الأرض وَوضَعني على رُكبتيْه. " اسمعي، قال وهو ينظر مباشرة في عينيَّ، يجب أن أُنجز أَشياء هامَّة ". وسألني، عندئذ، إذا كنتُ أَتذكر بَعدُ ذلك اليوم، في أريحا، عندما شاهدنا عائلاتٍ لِلاَجئين أرمن. وفعلاً، فإن صورة ذلك المّد البشري الذي كان يمرّ من طريق القدس، وجميع الناس الذين كانوا يَجتازون شوارع أريحا حاملين أَمتعتَهم على ظهورهم و هم يَجُرُّون أطفالهم من ورائهم، كل ذلك بقيَ جِدَّ حاضرٍ في ذهني.

" هل تتذكرين أنّي شرحتُ لكِ أنهم كانوا يبحثون عن ملجإ؟ أَلَمْ نُحسّ معاً بِالأسى من أَجلهم لأنهم طُردوا من دِيارهم وبَلَدِهم؟

صمتَ لحظةً قبل أن يُتابع :

" إذا نحن الفلسطينيين لم نعمل بِكُلّ قُوانا، فسيكون علينا قريباً أَن نَجُوب العالم بحثاً عن ملجإ وَ. . . . "

توقَّف فجأة. كان وجهه مُتشنّجاً من الانفعالات، و لمحتُ دموعاً في عينيْه. ابتعدتُ عنه مُنزلقةً من فوق ركبتيْه وخرجتُ جاريةً من الغرفة. لم أكن أُطيق أن أرى أبي وهو يبكي.

بعد ذلك بكثير، و قد بلغ سنَّ الثالثة والتسعين، وهو على فراش الموت في مدينة الرياض، هاتَفتُه من بيروت. كنّا معاً منفيَيْن عن القدس، و لكن أيضاً أحدُنا بعيد عن الآخر: " يا سيرين، قال لي و قد تعرَّف عليّ، يا صديقتي، يا صديقتي". وبدا لي صوتُه شاباً في أُذني، ففكرتُ في تلك النزهات داخل حديقتنا بالقدس، والعشب الأخضر المرصَّع بِندى الصباح، وتذكرتُه وهو يمشي بخطواته الواسعة قوياً وسعيداً، بينما كنتُ أنا أتقافز إلى جَنبهِ محاولة اللَّحاق به.

في العام **1924**، و أنا في سنّ الرابعة، سجَّلوني بروْض الأطفال الخاص بِالبعثة الأمريكية، "الأمركن كولوني"، والكائن بباب الزهراء، الحي المقدسي حيث كان يعيش آل الحسْيني، والذي كان يسمّى أيضاً " الشيخ جراح".

كان أعضاء الأُسَر الكبيرة للبعثة الأمريكية: آل فيستَر، و آل سبافورد و آل لارسون يقيمون هناك منذ أَمدٍ بعيد فأصبحوا سكاناً حقيقيين للقدْس. كانوا قد اشتروا أَقدم بيتٍ في الحيّ والأكبر كذلك، من أحد أجدادي الحسيْنيين، رباح أَفندي و منذ ذاك أصبحوا، في آنٍ واحد، جيراناً وأصدقاء للعائلة.

كان والدُ أُمي، فيْض الله العلمي، عمدة القدس يعاشر كثيراً، هو أيضاً، الجاليةَ الأمريكية. و عندما توفّي بعد مرضٍ طويل، غدا بيْتنا في حالة فَوَرانٍ نتيجة الإنهماك في تحضير طقوس العزاء. وقد نُصِبَت خيمة ملوَّنة جميلة في حديقة الجُزْء العُلْوي من البيت لأننا كنا ننتظر عدداً كبيراً من المعزين يتعذّر على المنزل الكبير أن يَستَوعبهم. كنّا قد

بعد ذلك بكثير، و قد بلغ سنَّ الثالثة والتسعين، وهو على فراش الموت في مدينة الرياض، هاتَفتُه من بيروت. كنّا معاً منفيَيْن عن القدس، و لكن أيضاً أحدُنا بعيد عن الآخر: " يا سيرين، قال لي و قد تعرَّف عليّ، يا صديقتي، يا صديقتي ". وبدا لي صوتُه شاباً في أُذني، ففكرتُ في تلك النزهات داخل حديقتنا بالقدس، والعشب الأخضر المرصَّع بِندى الصباح، وتذكرتُه وهو يمشي بخطواته الواسعة قوياً وسعيداً، بينما كنتُ أنا أتقافز إلى جَنبهِ محاولة اللَّحاق به.

في العام **1924**، و أنا في سنّ الرابعة، سجَّلوني بروْض الأطفال الخاص بِالبعثة الأمريكية، "الأمركن كولوني"، والكائن بباب الزهراء، الحي المقدسي حيث كان يعيش آل الحسْيني، والذي كان يسمّى أيضاً " الشيخ جراح".

كان أعضاء الأُسَر الكبيرة للبعثة الأمريكية: آل فيستَر، و آل سبافورد و آل لارسون يقيمون هناك منذ أَمدٍ بعيد فأصبحوا سكاناً حقيقيين للقدْس. كانوا قد اشتروا أَقدم بيتٍ في الحيّ والأكبر كذلك، من أحد أجدادي الحسيْنيين، رباح أَفندي و منذ ذاك أصبحوا، في آنٍ واحد، جيراناً وأصدقاء للعائلة.

كان والدُ أُمي، فيْض الله العلمي، عمدة القدس يعاشر كثيراً، هو أيضاً، الجاليةَ الأمريكية. و عندما توفّي بعد مرضٍ طويل، غدا بيْتنا في حالة فَوَرانٍ نتيجة الإنهماك في تحضير طقوس العزاء. وقد نُصِبَت خيمة ملوَّنة جميلة في حديقة الجُزْء العُلْوي من البيت لأننا كنا ننتظر عدداً كبيراً من المعزين يتعذّر على المنزل الكبير أن يَستَوعبهم. كنّا قد

ڤيينا ، **1921** .
فَيضي العلمي وزوجته أمّ موسى ، وهما جدّ وجَدّة سيرين من جهة الأمّ .

استَعَرْنا تلك الخيمة من جارنا الدكتور توفيق كنعان و هو صديق قديم للعائلة؛ ويظهر أنه اشتراها من مصر لأنها كانت تحمل مُوتيفات مُميِّزة لذلك البلد، وتشتمل على أشكال هندسية جريئة تعلن عن الأخضر و الأحمر والأزرق الفاتح و الأسود.

وكان الكِبار جدَّ مُنشغلين بالإعداد لِحفْل العزاء، فلم يكن لهم وقت يتحدثون خلاله إلى الأطفال أو يُراقبونهم. مَتروكينَ لأمرنا، قرَّرنا أنا وعادل ابن عمّي أن نشارك في النشاط العام. وقد لاحظنا أن حواشي الخيمة كانت مُغطاة بطبقةٍ كثيفة من أعواد الصنوبر الرقيقة الجافّة فتطوَّعنا لتنظيفها. تولّى عادل، الذي كان يُقاربني في السنّ، لَمَّ الأَعواد وجعلها كومةً حول الخيمة، بينما كنت أنا أتسلل إلى الدار بحثاً عن علبة كبريت لإضرام النار. وفي أول الأمر شعرنا بالفخر ونحن نرى أَكوام العيدان الجافّة الصغيرة تشتعل على مهل. لكن فجأة، ونحن مَذْعوران، أخذت النار تمتدّ. و قبل أن نُدرك حقاً ما يحدث، احترقت الخيمة الجميلة.

مرعوباً، استغلّ عادل الاضطراب العام و قفز من السطح مُتجهاً إلى منزله ليختبئ داخله. و أمسك بي أَحَدُهُمْ و أَبْعدني عن الخطر بسرعةٍ إلى داخل البيت. مُدركةً لِغلطتي، كنتُ أَتوقَّع أَن أُعاقَب بقسوة، لكن لا شك أن الكِبار فكرّوا بأَنْ لا شيء يمكن أن يَفْتَدي الخيمةَ الضائعة، فلم يكلّفوا أَنفسهم حتّى عناءَ تَوْبيخي.

كان آلُ فيستر يعلمون مدى حزن أُمي على وفاة والدها و مدى انشغالها بتنظيم حفل العزاء، و لما بَلَغهم نَبأُ الحماقة التي ارتكبتُها، اقترحوا أن يأخذوني عندهم كتلميذةٍ داخلية في رَوْض أطفال البعثة،

لِفترةٍ من الزمن .

إني أتذكر جيداً ذلك اليوم الأول الذي ذهبتُ فيه إلى البعثة . كنتُ قد ارتديتُ ملابسي باكراً و مستعدة للخروج صُحْبَةَ أمي . وَصلْنا إلى مكان بديع لم أكن قد رأيتُه من قبل ، و قدّموني إلى سيّدة كانت أمي تتحدث إليها بلغة غريبة . لمّا كنت لا أفهم ما يدور بينهما ، وجّهتُ انتباهي إلى ما كان يُحيط بي . مَسَحْتُ الغرفة بِنظرة مُتَفحّصةً الصُّورَ الموضوعة على طاولة في الزاوية ، و أشياء من الزّجاج أيقظتْ فُضولي . كانت أمي و السيدة الأجنبية تُثَرثِران و تتبادلان الابتسام فيما كنتُ أتابع ، مسرورة ، اكتشافي .

في الأخير ، اقتربت الأمريكية ، التي عرفتُ بعد ذلك أن اسمها الأخت حنَّة ، مني و سألتني إذا كنت أرغب في النزول إلى الحديقة لمشاهدة الخنازير الصغيرة . مُبتهجةً باقتراحها ، أمسكتُ يدها و حركت رأسي بقوّةٍ لأُفهِمَها أنني موافقة . عندئذ أَخرجتني من الغرفة ، و لستُ أدري إذا كنت قد رأيت الخنازير ذلك اليوم ، إلاَّ أنني أتذكر جيداً اللحظة التي اكتشفتُ فيها الخدعة : لمَّا رجعنا إلى الغرفة كانت أُمي قد ذهبت !

اهتمّت الأُخت حنّة بي طوال إِقامتي في روض الأطفال . كانت مكلّفة بالسّهر عليَّ أثناء النهار ، وفي الليل كنت أُقاسمها غرفتَها التي أتذكّر أنها كانت تقع في ممرٍّ طويل عند منتصف الطرفين تقريباً .

واحدة من ذكرياتي الأكثر دقّةً عن فترة حديقة الأطفال بِالبعثة

أريحا ، **1924** .
سيرين في البيت العائلي .

الأمريكية تتَّصل بعادةٍ غريبة كانت تُلازِمُني و جعلتْ و الديّ يَستشيرانِ بشأنِها طبيباً تِلوَ الآخر : كنتُ آكلُ التّراب بشراهة . و قد شرحوا لي ، فيما بعد ، أن هذه العادة ناجمة عن نَقص في الكلسيُوم . وَجَدَ الأطباء المشكلة بسيطة و قالوا إن ذلك عابر ، و أعطوني وَصْفَة قِشرة بِيض مسحوقة أتناولها كل يوم . و كان ذلك بطبيعة الحال قبل وصول حبوب الكلسيوم إلى الصيدليات .

غير أن تشخيص الأطباء و توصياتهم لم تُطَمئِن تماماً والديّ ، فكنتُ أخضع طوال النهار لمراقبةٍ من أحد أفراد العائلة . أثناء القيلولة ، مثلاً ، كانوا يُودِعُونني غالباً عند جدَّتي زليخة الأنصاري العلمي التي كانت تعيش في الطابق الأول لِبَيْتنا فكانت تأخذني معها إلى غرفتها لأستريح ؛ وكان ذلك يُلائمني كثيراً لأنني لم أَلْبَثْ أن اكتشفتُ في تلك الغرفة عُكَّازة جدّي المرحوم والتي تعلقتُ بها تعلقاً شديداً . وجدَّتي التي تأثرتْ كثيراً بإخلاصي لذكرى زوجها ، لم تعرف قط أنني كنتُ قد اكتشفتُ قليلاً من التراب في طرف العصى المفضَّض . فبينما كانت تغفو بِهدوء ، كنتُ أنا أَلْعَقُ بِتلذُّذ التّراب العالق بالرأس المدبَّب ثم أضع العصى في مكانها المعتاد بعد أن أُرضيَ حاجتي .

لكن ، في البعثة الأمريكية ، كانت الأُخت حنة تراقبني بعد أن أَخْطروها بعادتي الغريبة . كنتُ واعية لنظرةِ الصَّقر التي كانت تُلاحقني بها ؛ إلاّ أنني سرعان ما كنتُ أجد وسيلة لمخَادعة يقظتها .

أَثناء استراحة الصباح ، كانت تَلْمِيذاتُ فصلي يَتنزَّهْنَ في الحديقة تحت أَشجار الإِجاص مُرتديات قُبعاتٍ من القش للإحتماء من الشمس

الحارقة المتسرّبة من خلال فَجَوات الأغصان. و قد أقنعتُ عدداً من صديقاتي بالتّباري حول مَنْ منّا تجمع أَكبر عدد مِنَ العِنَبيات الوردية لشجر الإجاص. و باقتراح منّي، استعملنا قُبعاتنا كأوعيَّة. وكان هناك دائماً قليل من التّراب عالقاً بسيقان العنبيات فَكُنَّا نُزيلُه تلقائياً. و لِفَترةٍ من الزمن، لم ينتبه أحد أنني كنت أَلتقط خلسةً ذلك التراب و أُكدِّسُه داخل قُبعتي لأَتذوَّقه فيما بعد و أنا بعيدة عن الأَنظار.

ذات يومٍ، و أنا في حنق كبير، سمعتُ الأخت حنة التي كانت تَحرسنا، تأمرني: " سيرين! انزعي قُبعتك! "قالت بصوت لا رجعة فيه.

ظللتُ مُتجمِّدة قبل أن أمْتثل مُرغمة لأَمرها. ببُطء نزعت قُبعتي فأخَذتْ عنبيات شَجَر الإجّاص المختلطة بزَادي الثمين من التراب تسقط من وجهي و عنقي، لِتَكسُوَني بالخجل قَدْرَ ما غطّتني بالوسخ.

قَادَتْني الأخت حنّة إلى الغرفة التي كنتُ اقتسمها معها؛ و هناك أَرغمتني على أن أَغسل فمِي بالصابون. و لأمدٍ جدِّ طويل، احتفظتُ بطَعْمه اللاسع فوق لساني. ثم عاقَبتني بالبقاء في الرُّكن

داخل الغرفة المعتمة جرّاء انْسِدال الستائر، كنتُ أُحسُّني مُذنبة، حزينة وخَجِلة؛ إلاَّ أنه يظهر أنني لم أعد قطّ إلى أكل التراب بعد ذلك.

هناك ذكرى أخرى، من تلك الفترة، تُلامس ذكرياتي. كان ذلك، غالباً، في عيد الميلاد؛ و كانت البناتُ العشرون اللاّئي يتردَّدْن على حديقة الأطفال مَدْعوات إلى حفلة صغيرة. قَادَتْنا الأخت حنّة إلى قاعة لم أكن أعرفُها بَعْدُ، إلاّ أنها أَعطتْني انطباعاً بِأُلفةٍ بَهيجةٍ، فقد كانت القاعة بِقِبَبِها العالية و نوافذها المتّسعة الأطراف، و قضبانها الحديدية

المطروقة، تُشبهُ غُرفَ مَنزلنا. كانت الظّهيرة تقترب من نهايتها، ونُعومة المساء خَلَفَتْ فعلاً أُوَارَ الشمس الملتهِبة... ووسط القاعة، وُضِع مِفرش على طاولة مُمتدَّة وخُصِّص مقعدُ لكل واحدة من البنات الصغيرات. انقطعت أَنفاسي أَمام روعة الديكور؛ و لم يكن بريقُ الفِضّة جديداً عَليّ، لكنني لم أكن قد رأيتُ من قبل مثل تلك الرقّة في الأشكال و الألوان. كنت مُعجبة و مَفتونة بالورود الحمراء و المناديل و الكؤوس الزجاجية الحمراء المصفوفة بِشكلٍ جميل.

دُعِينا للجلوس، فلاحظتُ بِقَلق بَادٍ أَنّ أَكَمَةً صغيرة حمراء مزركشة تضطرب وسط كل واحد من الصحون الزجاجية الجميلة. ما الذي عليَّ أن أَفعله؟ بالتأكيد أن ذلك يُؤْكَل، لكن، ما هو؟ وكيف يُمكنني أن أحمله إلى فمي؟ كنتُ مسحورة بذلك الجمال المضيء المُتَرَجْرِج داخل صحني في منتهى الشفافية و الصفاء، غير أنني كنتُ أَستشعر حذراً عميقاً. كان لديّ انطباع أنني، لو هاجمتُ بِملعقتي تلك الكُتلة ذات المظهر المنزلق، فإنها ستَطير و تسقط على الأرض. قلتُ في نفسي الأَفضل أن أنتظر و أُراقب ما تَفْعله الأُخريات. في تلك اللحظة ارتفع صوتُ الأخت حنّة: "لماذا لا تأكلين يا سيرين الجِلي؟".

ماذا كان بِوسعي أن أقول؟ أنه لم يسبق لي أن رأَيتُه؟ أَنني لم أكن أعرف ما هو ذاك الجِلي و لا كيف يُؤْكل؟ وأنني لم أكن بِالتأكيد مثل بقية البنات الجالسات إلى تلك المائدة؟

كان ذلك أمراً لا يُغْتَفر في نظري؛ فقلتُ: "لا أُحبُّه".

لم تُرغمني على أَن أُفرغ صحني ، فأسِفتُ لذلك ؛ ولأَمَدٍ طويل ، جَهِل فَمِي طَعْمَ الجلي و حُرِمتُ من لَذَاذَاتِه لِعدَّةِ سنوات .

لا أعرف كم من الوقت بقيتُ مُقيمة في البعثة . ربما ستة أَشهرٍ في جميع الأحوال ، بقيتُ ما يكفي لأنسى اللغة العربية و لا أعودُ أُجيب إلاَّ باللغة الأنجليزية على ما كان يُوجَّه إليَّ من أسئلة .

أتذكّر عودتي إلى منزلنا داخل عربة يَجرُّها حِصَانان ، رُفقةَ خالي موسى الذي كان جالساً إلى جَانْبي بينما حوافر الحصانيْن يَرِنُّ صداها عبر أزقَّة القُدس .

بعد تلك الإقامة في البعثة الأمريكية ، أرسلوني إلى روضة أَطفال إيطالية قريبة من دارنا . يتعلق الأمر بمجموعة من النساء الإيطاليات المتديِّنات هنّ أعضاء في الكنيسة الساليزية واسْتقررْن بالقدس منذ أمد طويل ، وهنّ اللائي أَسَّسْنَ هذه المدرسة . كنَّ قد اشترين البناية الأساسية من جَدّي العلمي الذي كان قد شيَّدها عندما غادر المدينة القديمة داخل أَسوار القدس في السنوات الأولى من القرن العشرين . وبعد أن باع ذلك المنزل ، بنى منزلاً آخر بالقرب منه . وكانت أمي قد تردَّدَت على تلك المدرسة قبلي . و كانت تتكلم الإيطالية والإنجليزية والفرنسية بطلاقة ، وأيضاً العربية بطبيعة الحال ، لم تَتَبَقَّ لي ذكريات كثيرة عن تلك المدرسة التي لم أَمكثْ فيها طويلاً فيما يبدو .

كان عمري ثماني سنوات عندما أرسلوني إلى مدرسة البنات الإسلامية التي فَتَحها المجلس الإسلامي الأعلى في فترة وجيزة .

القدس ، **1906** .

فيضي العلمي رئيس بلدِّية القدس ، مع انبته البكر نعمتي وولده موسى العلمي .

وكانت هذه المدرسة تُوجّه جهودها إلى التعليم و العلوم - أكثر ممَّا تهتمُّ باللغات والموسيقى و الأشغال اليدوية التي هي أُسس تربية الفتاة الصغيرة في عهد أمي - ولذلك اشتهرت بِجوْدة تعليمها. وكان الأساتذة من طوائف وطقوس دينية مختلفة: مسيحيون ودروز، ومسلمون. وكثير منهم وَفَدوا من لبنان. وقد احتفظتْ ذاكرتي باسميْ وداد إحسان محمصاني وزاهية مقْصد. وأحتفظ أيضاً بذكرى حيَّة عن مليا سكاكيني، إحدى صديقاتنا في القدس.

كانت المدرسة تقع داخل سور المدينة القديمة غير بعيد عن منزلنا. وخلال عشرين دقيقة- وهو الزمن الذي أستغرقُه في النزول من التَّل عند بيتنا في المصرارة إلى ظلال جدران القدس العتيقة- كنتُ أَصل إلى باب العمود وهو مَدْخل المدينة القديمة. وتحت عقْد قُبَّته المحمَّلة بالتاريخ، كان المارَّة يبدون و كأنهم يتنقلون بين عالميْن.

لعل الكبار المثقفين وهُم يجتازون تلك الأبواب الكبيرة، كان لديْهم انْطباع بأَنّهم يَرْتادون الماضي. بالنّسبة لي، كان طريقاً للدخول إلى عالم غامض مليئ بالحكايات الغريبة. وعلى الجانب الآخر من تلك الأبواب، كنت أجدُني وسط فضاء شاسع يقود إلى الدرجات التي تنزل إلى قلب المدينة القديمة. هناك، كانت بلاطات الشوارع ملساء، مُتقادمة مِن أَثَر خطوات جميع الذين وَطِئُوها على مرِّ القرون.

دائماً كانت هناك حشود في المدينة القديمة. شيوخ، رهبان، حاخامات يرتدون ملابس سوداء وعلى رؤوسهم قُبعات تتبايَنُ بِحسب تعاليم ديانة كل واحد من أفراد الحشد المنصرفين إلى مشاغلهم.

وكانت هناك فلاّحات من القُرى المجاورة جِئْن لِبَيْع منتوجاتهن في السوق وَيَحمِلنَ على رؤوسهنّ سِلَلاً مضفورةً، ممتلئة بالفواكه والخُضر، وهنَّ يَضَعْنَ يداً على الخِصر والأخرى فوق السلَّة، في توازُنٍ عجيب. وكانت تنّوراتهن الطويلة السوداء المزيّنة بتطريزات معقدة ذات مُوتيفات مُتميّزة، حمراء و خضراء ووردية، و شالاتهن الطويلة البيضاء المطرَّزة تَتَهادَى بلَطافةٍ عند كل خطوة، بينما رؤوسهنّ المثْقلة بحِمْلها تظلُّ مُستقيمة تماماً. طلَبةٌ في زَيّهم الأزرق، رجال يرتدون الكُوفية، نساء بالفُستان الإسلامي الأسود، و آخرون بالزيّ الأوروبي، موظفون و تجار، جميعهم يتدفّقون و يختلطون وسط حَشدٍ مُتناثِر. بَاعةُ المشروبات الباردة، العرقسوس و عصير العنب، يصدحون بكلامهم المعسول و يَصُكُّونَ صنّاجاتهم النحاسية ليلفتوا نظر الزبائن: كْليكْ-كْلاكْ-كْليكْ-كْلاكْ...

داخل الأزقّة المبلّطة للمدينة القديمة، كانت وسيلة النَّقل الوحيدة هي الحمير التي كنتُ أستمتع كثيراً بالّنظر إليها. أحياناً، كان النّهيق يختلط بِصليل نُحاس بائع المشروبات؛ فكنتُ أتوقّف للإستماع و أنا مفتونة.

بعد بضع دقائق من المشي، كنتُ أصل أخيراً إلى مدرستي الواقعة عند زقاق مُعتم و ضيِّق كنتُ ألمح في نهايته المسجد الأقصى المغمور بالشمس. وكانت البنايات المحيطة بالمسجد الأقصى، و منها مدرستي، جدّ عتيقة و معظمها يعود إلى عهد المماليك.

لما وصلتُ إلى المدرسة أوّل مرّة، وجدتُني أمام باب خشبية

ضَخْمة، مُرصَّعة بمسامير نحاسية. كانت دائماً مُغلقة وتحتَّم علي أن أدُقّ حتى أتمكن من الدخول، مستعملة قبْضة النحاس المعلّقة على الباب. و عندئذ تبدُو فَتحةٌ محدودة وسط الباب الصفَّاق السَّميك الموجود على المدخل الرئيسي و الذي لا يسمح بِمرور أكثر من شخص واحد في كل مرَّة.

أحسستُ بِضالتي و أنا أدرك أبعاد الباب الضخمة و ضيق الفتحة التي دخلتُ منها. لكن بمجرد ما اجتزتُ الباب، اكتشفتُ الساحة و قلب المدرسة الممتلئ بالبنات من كل الأعمار. وسرعان ما انقطَعَ ضجيجُهنَّ وثرثرتهن و ضحكاتهن عندما رنَّ الجرس. اصطفَّت جميع التلميذات منتظراتٍ تفتيش الأستاذة المكلَّفة التي كانتْ تُراقب اللّباس ونظافة كل واحدةٍ منَّا. كنّا نقف مُستقيمات وأَيْدينا ممدودة أمامنا مُنتظراتٍ مُوافقةَ المعلّمة على تحرُّكِنا؛ ثم نمسك بِالدَّرابزين الحديدي ونصعد درجاً من الحجارة الصلبة يَقُودُنا إلى قاعات الدرس.

خلال سنتي الثانية بهذه المدرسة، سُجِّلْتُ بِوَصفي تلميذة داخلية؛ وكانت البِناية التي تقطنها الدَّاخليات تقع خارج المدينة القديمة وفي نفس حي البعثة الأمريكية. كانت المدرسة الداخلية، وهي أَحَدُ المساكن الأَجْمَل في الضواحي، مِنْ أملاك عضو من عائلة الحسيْني اسمه سعيد أَفندي و هو الذي أجَّرها أثناء غيابه عن القدس.

مَرّةً أخرى، إذاً، وأنا أمشي في الصفّ مع زميلاتي اللائي كن يَرسُمْن خطّاً مُتعرِجاً، كنتُ أَقطع نفس المسافة يومياً مُتنقِّلةً بين

عالميْن. في طريقي إلى المدرسة، وعند العودة منها، كنتُ أمر في كل مكان أمام بيوت الأَعمام والخالات وأبناء العمّ.

كانت مدرسة القديس جورج التي كنّا نسمّيها المدرسة الأُسقفية، تَقعُ في الحيِّ نفسه؛ وكانت مؤسسةً ذات نفوذ، يَتَقاطَرُ عليها الشبّان والشَّابات من أركان البلاد الأربعة ليدرسوا بها. وكان ملعب كرة القدَم مصدر أفتخار و مسرَّة خاصة بالنسبة لمجموع التلاميذ. وفيما بعد، عندما تقدَّمتُ قليلاً في السنّ، كنتُ أُلقي بِنظراتٍ من جانب عيني إلى بعضهم، آملةً أن أَلفتَ انتباههم. وكانَ عدد لا بأس به من أَسماء أعمامي وأبائهم مُسَجَّلا ضِمْن لائحة الشّرف على جدار المؤسسة، باعتبارهم أبطالاً في كرة القدم وكذلك اسم والدي كان مسجلاً في تلك اللاَّئحة.

***

شقائق النّعمان

كثيراً ما أعود، عبر الحلم، إلى القدس. وهذه الرحلة الداخلية لا تحمل دائما بصمةَ الحزن واليأس؛ أحياناً، مجرد الفرح بأن أُوجد فيها من جديد، يملؤني بِدفءٍ عميق. أُغمض عينيّ وأحلم في دخيلتي. أختار رُفقائي والأمكنة التي أتمنى زيارتها والأشخاص الذين أَرغب في رؤيتهم، شيوخاً أو شباباً، وبعضهم قد َطوَاهُم الموت منذ سنوات والبعض الآخر هُمْ قيد الحياة.

غالباً ما أزور أقربائي الكِبار في السن، مِنْ جهة أمي وأبي، والذين كنتُ أحبّهم كثيراً، وهم أَحبُّونا ودلَّلُونا كثيراً، أخي وأخواتي وأنا. كُنتُ كُبْرى بنات العائلة؛ وبينما كان لآل الحسيْني، من جهة أبي، أبناء كثيرون، لم يكن لوالديْ أمي، آل العلمي، الذين كانوا يسكنون بالقرب من بيتنا سوى اثنيْن: أمي وأخيها موسى, وفي الواقع، كنا نحن الأحفاد الوحيدين لجدي وجدتي العلمَيّين.

مِثْلِ جميع الجدود في العالم، كان أجدادنا يتنافسون، تجاهنا، في الحب والكرم. كانوا الصخرة التي نختبئ وراءها للإفلات من قوانين البيت التي كنّا نَسعد كثيراً بمخالفتها. كان جدي من جهة أمي، فيضي العلمي، يهيمن على الصالون بِحُضوره. وكان يُمضي مُعظم أيامه في

أريحا، **1924** .
سيرين وأختها وِجْدان التي ستتوفى بعد ذلك بِقليل .

القراءة، وعيناه لا تُفارقان كتابه إلاَّ لتُلقي، من حين لآخر، نظرة استحسان سريعة علينا. ولم تكن جدتي زليخة بخيلة لا بِوقتها ولا بحُبّها. فعندما كنت أَرتكب أفعالاً قبيحة وتكون أمي تبحث عني لِمعاقبتي، كنت أختبئ وراء تنّورات جدّتي الطويلة؛ وهي لم تفضحني أبداً. عندما كنت صغيرة كنتُ ألعب طوال النهار مع أولاد عمّي الثلاثة الذين كانوا يسكنون بالقُرب منا؛ وحينما كانوا يَتعجرفُون ويستعرضون عضلاتهم، كنتُ أردّ عليهم مُتباهيةً بشكل آخر من السلطة: ذاك الذي كان يمنحني إياه كَوْني المفضَّلة لدى جدتي.

ولأنني كنت غير راضية عن أَن أكون أُولَى حفيداتها، فقد كنتُ أُنْجز دائماً عنْ طيب خاطر الأعمال الشّاقّة التي كانت تكلّفني بها. وكانت مهمتي الخاصة لديْها، هي أن أذهب للبحث عن هذا الشيء أو ذاك في إحدى الغرف. وعندما كانت مشاكسات أو اندفاعات أبناء عمّي تغدو غير محتملة، كنت أختبئ كالعادة وراء تنورات جدّتي. كنتُ ألجا إلى هذا الامتياز، بالأخص عندما تكون العاصفة على وشْك الهبوب إذ يحاولون الانتقام من تصرفاتي السّيّئة الأخيرة.

لقد تبيَّن لي أن أسعد ذكرياتي هي صُوَر أَمكنة أكثر ما هي صُوَر كائناتٍ بشرية. وبعد كل شيئ فإن الناس يموتون حاملين معهم قِسطاً من ذواتنا. أما الأمكنة، فهي تعيش إلى الأبد. أُغمض عيني فأنتقل إلى أريحا في الشتاء، وإلى شَرَفات في الصيف، وإلى القدس في الربيع. بالنسبة لي، دائماً هناك ربيع في القدس بِسبب ذلك الصباح القديم حيث أَبصرتُ، من نافذة غرفتي، ثلاثاً من شقائق النعمان.

كنا، آنئذٍ، أُختيْن، فتاتيْن من أُسرة سعيدة، وكنّا نتوفَّر على كل ما يمكن لطفلٍ أن يتمنّاه. كانت وجدان تصغرني بسنتيْن؛ وعند كل مساء، ونحن في الفراش، كان أبي يحكي لنا قصصاً، لا يزال صداها الممتلئ غنائية وشعراً يرنُّ في ذاكرتي. وكانت أُمّنا بالغة الجمال بعَينيَها الخضراويْن وجبْهتها العريضة. كم كنتُ أتمنّى أن أُشبهها. كنتُ أكره شعري الأسود بطُرَّته المنْسدلة على الجبين، وكنت مُقتنعة أنني لو قَصَصتُها أَقْصر ما يمكن بتماسٍّ شديد مع جلْد الرأس، لكنت بمِثْل جمالها. وآل بي الأمر إلى تنفيذ ذلك، فغدوت أشبه ماعزا في انتظار أن ينبت شعَري من جديد!

كان بيتنا في المَصْرارة يقع على قمَّة طريق الحي الذي يصل بين الحيّ الروسي ووسط المدينة القديمة. وكانت أجراس الكنيسة الأورثوذوكسية تختلط بأذان الصلاة المنبعث من صوامع المساجد المجاورة. وكنت أحبُّ أيضا الإنصات إلى ضجيج خطوات المتجوّلين النّازلين بِلا مبالاة الشارع الخارجي بعيداً عن السيَّاج الحديدي.

مِثل كل بيوت القدس، كان بيتنا مبنياً من الحجر المقصوب. وهناك درجتان تقودان إلى الحديقة. ويُخيَّل إليّ في أحلامي، أنني أعود إلى تلك الحديقة أكثر من عودتي إلى أي مكان آخر في القُدس. في الربيع، كانت بساطاً حقيقياً من الخُضرة، وأشجار الصنوبر تتمايل على السطح الأعلى ناشرة فَوَحاناً عطِراً داخل البيت بأكمله. وإلى الأسفل قليلاً، كانت تنتصب شجرة إجّاص ذات أوراق خُضر مُسنَّنة، مُثقلة بعناقيد وردية من فاكهتها. وكنا نلعب سعيدتيْن، أنا ووجدان، على مرمى عينٍ يقظة لأحدٍ من وَالديْنا الجالسيْن في الفراندا الأعلى قليلاً.

أتذكر المرض الطويل الذي تَقَاسَمْناه، وجدان وأنا، مثلما كنا نتقاسم كل شيئ في حياتنا. ولم أفهم، إلاّ بعد فترة طويلة، أن المرض هو الحِصبة.

وقد احتفظتُ بصور جدّ دقيقة عن تلك الفترة. أرى غرفة واسعة حيث ضوء الشمس ينهمر مُتدفقاً من نوافذ عالية عند قوس قُوطية. وأرى أختي وهي في الثانية من عمرها، مُسجاة فوق ملاءاتٍ ومخدات بيضاء على سرير من قُضبان معدنية بيضاء رُفع ضِلْعَاه على الأرض حتى لا يقع.

وعندما تَماثلْتُ للشّفاء وسُمح لي بالوقوف، توجهتُ مباشرة نحو سريرها الصغير القائم بِالقرب من سريري، وأَخذتُ أتطلع إليها من فوق القُضبان. كانت تنام وعيناها مُنفرجتان لكن شفتيها كانتا متشقّقتين ونَفَسها سُخْن.

أَحسستُ، لأول مرة في حياتنا، أنها كانت بعيدة عنّي. وفيما كنتُ أوجّه عينيَّ نحوها مندهشةً من هذا الشعور بالمسافة بيننا، أَمْسك أحدٌ بِيَدي وأَبْعدني عنها بِرِفْق نحو النافذة الواقعة في الطرف الأَقصى للغرفة. وأنا أجتاز الخطوات التي كانت تفصل سريري عن النافذة، أَحسستُني رازحة تحت وطأة كآبة وحزن تَسلَّلا إلى جهلي الطفولي بالأشياء. كان المناخ ثقيلاً وصمتٌ مرعب كأَنّما يُخيم على الغرفة ويغمرنا أنا وأختي.

ظللتُ قريبة من النافذة على حافتها الواسعة التي طالما لَعبنا فيها أنا ووجدان لُعبة الأب والأم. كنت أنظر إلى الحديقة اليانعة الخضراء في

الأسفل وهي تلمع تحت أشعة الشمس المذّهبة ، فَلمحتُ ثلاث شقائق للنُّعمان تَتسامق فوق العشب وتَحتجِز الأشعة داخل بَتلاتها النّاعمة . ملأني هذا المنظر بالسعادة ولَستُ أدري اليوم إذا كنت قد أدركت آنذاك ما سيقع لأختي وجدان .

بعد ذلك بأيام ، كنت قد شفيتُ كفايةً حتى يسمحوا لي باللّعب في الحديقة وكانت أمي موجودة فيها وتحرسني كالعادة . لكن الفرحة التي كنت أُحسها بالعودة إلى حديقتي لم تدم طويلاً ؛ فقد رأيتُ ، وأنا أرفع بصري نحو أمي ، دموعاً على خدّها ، ثم سمعتُ الخادمة التي كانت تسير بالقرب منها تقول لها : " لِيُباركْها الله فهي الآن ملاكٌ في الجنّة مع ربِّها " .

تكوَّن لدي انطباع بأن كلام الخادمة له علاقة بدموع أمي وبمناخ الكآبة التي كانت مُخَيِّمة على البيت ، إلاّ أنني لم أَفْهَمه تماماً . وشعرتُ جيداً أنني لا استطيع أن أطلب تَدْقيقاتٍ من أمي : هل كان بِوسعي أن أَقتحم ألمها ؟ تجنّبتُ النظر إليها وتظاهرتُ بأنني لا أبصر الحزن المنبعث من وجهها . فيما بعد ، عندما كنت وحيدة في غرفتي مع الخادمة ، سألتُها : ـ أين وجدان؟ ما الذي حدث لها؟

ـ لقد ماتتْ ، أجابتْني .

ـ ما معنى ذلك؟

ـ يتحتَّم علينا أن نموت جميعاً ذات يوم ، شرحتْ لي . البعض سيذهب إلى الجنّة ، والبعض إلى جهنَّم . ولا شك أن أُختك سيكون مآلها الجنّة لأنها ماتت صغيرة ، قبل أن تَرتكب أَدْنَى خطيئة . إنها محظوظة ؛ وهي الآن في الجنّة مع الملائكة . "

أريحا 1925 .
سيرين واقفة إلى جنْب والدها جمال الحسيني الذي يحمل على ركبتيْه ابنه حسن .

ذلك المساء، شددتُ نفسي أكثر من المعتاد إلى أُمي عندما جاءت لتُقبِّلني في فراشي. كنتُ أرغب في أن أكلّمها، غير أنني لم أكن أَحتمل رؤية دموعها. تشبَّثتُ بالصمت متظاهرةً بأنني كنتُ أجهل ما حدث، لكن قلبي كان مثقلاً بالحزن والتساؤلات. وقد تعكَّر نومي جرّاء ذلك، لأن أسئلة معقدة كانت تُعذّبني: من الذي قرر أن تموت أختي وأن تذهب إلى الجنّة وتُصبح ملاكاً؟ ومنْ قرر أنَّ عليّ الاستمرار في الحياة لأرتكب خطايا تمنعني من الذهاب إلى الجنّة مع الملائكة؟

منذ ذلك اليوم، كلما استَغربتُ وطرحت على نفسي أسئلة يَستعصي حلُّها، تهبُّ لِنجدتي شقائق النعمان الثلاث التي لمحتُها من نافذتي.

***

البلوطه

كانت شجرة البلوط مُنتصبة في شرَفات.

وكان جدّي فيْضي العلمي، قبل أن يصبح عمدة للقدس، موظفاً مع الحكومة أيامَ كانت فلسطين جزءًا من الإمبراطورية العثمانية. وكان من بين مهمّاته، تفتيش الريف. في تلك الفترة، كنّا نجهل كل شيء عن راحة وسائل النّقل الحديثة ولم تكن السيارات ذات المحرّكات قد وُجدتْ عندنا. كنا نجوب ببطء تلال وسهول فلسطين على ظَهْر الحصان أو البغلة أو الحمار. وكان جدّي يعشق الريف ويستمتع بأبسط مُنعرج من طُرقاته. وكان أيضاً يحب الناس ويكسب صداقاتهم بسُهولة.

ذات يوم صيفيّ، كان مُمتطياً صهوة جواده مع مساعديه، مُتسلّقاً بصعوبة هضبةً بين بيت صفافة وشرفات قريباً من القدس. كان الوقت زوالاً وعلى رغم هبوب نسيم منعش من الوادي، فإن أشعة الشمس كانت حامية. بحثوا عن مكان يستريحون فيه؛ وعندئذٍ لمحوا "البلُّوطة" على الهضبة تلوح من بعيد. توجّهوا نحو الشجرة تَغْمُرهم الفرحة بأنهم سيستريحون بضع لحظات تحت ظلّ أوراقها البارد. رآهم سكّان شرفات يقتربون فهبُّوا للقائهم. كانوا يريدون أن يعرفوا مَن هُم هؤلاء

شرفات ، **1922** .
البيت الريفي : سيرين تلعب تحت البلوطه .

السادة، وأن يقترحوا عليهم مساعدتهم - حسب التقاليد - إنْ كانوا بِحاجةٍ إليها.

هذا المشهد العادي سيكون مُنعطفاً في حياة جدّي وعائلته. ذلك أنه أُغْرم بهذه البلّوطة غراماً دَامَ كلّ حياته ووَرَّثَه إلى الأجيال التَّالية من أُسرته. وقد أخبره مُخْتصُّون، فيما بعد، بأن عُمْرَ تلك الشجرة يفوق ألفاً وخمسمائة سنة.

كان مالك تلك البلوطة واحداً من سكان القرية الذين جاؤوا للسلام على جدّي ومرافقيه. وبينما كانت الجماعتان تَحتسيان القهوة معاً تحت ظِلّ الشجرة، قدّم جدّي عرضاً لمالك الشجرة عمَّا إذا كان يقبل أن يبيعه شجرة البلوط وظلَّها؟

لم يكن الرجل ينتظر أفضل من ذلك، وهكذا أَصبح فيْضي أفندي كما كنا ندعو جدّي، منذ ذاك وإلى الأبد، صديقاً للقرية. وقد اقترح عليه السكّان أن يشتري أيضاً قطعة أرض واسعة يُشيد عليها بيتاً، فاتَّبع نصيحتهم وسرعان ما أَصبحتْ شرفات إقامة صيفية مريحة لمجموع عائلتنا.

عندما أَطلْلتُ على العالم، كانت شرفات قد غَدَتْ مكاناً للقاءات عائلية كثيرة. وقد تَرَعْرعتُ تحت ظلّ البلّوطة، وفي التاسعة أو العاشرة من عمري، كنتُ قد "غَزَوْتُها" وتسلَّقْتُ إلى أعلى أَغصانها.

لما كنتُ كبرى بنات العائلة، فقد كنتُ أُحسني غالباً، وحيدة. وكانت شرفات صيفاً، بمثابة جنّة لي. ولأننا كنّا الأسرة الوحيدة التي تَفِدُ من المدينة عليها، فإن بنات وصبيان القرية كانوا ينتظرون وصولي

شرفات 1922 .
سيرين في البيت الريفي .

بفارغ الصبر. كنتُ أزورهم وأدعوهم إلى بيتنا، وكنا نُمضي ساعات طوالاً في اللعب بالحديقة. كنا نجري كَكِلاب وراء أبي عندما كان يخرج إلى الصيد في التِّلال المجاورة. وكنا نجلس بالقرب من خالي موسى العلمي مساء، عندما يستقبل أهل القرية داخل خَيْمة منصوبة في الحديقة خارج البيت. وكثيراً ما كان حكواتي القرية يأتي ومعه ربابْه ليعزف عليه فيما هو يقصُّ حكايات قديمة.

كان هناك الكثير مما يستحق الإكتشاف وكانت هناك أسباب كثيرة للمسرَّة. وفي كل صباح، عندما أستيقظ، أُبادر إلى النافذة لرؤية بيوت الناحية الثانية من الشارع، فكنت أحس بارتعاشة من السعادة وأنا أفكر في اليوم الجميل الذي ينتظرني.

باكراً، كل صباح كان عابد ابن عيد البستاني ينتظرني أسفل البيت، فكنا ننطلق جرياً لنقطف التّين الناضج تحت الضوء الناعم وهواء الصباح العليل. وبعد ذلك كانت أمي تُنادينا لتقدم لنا فطوراً حقيقياً يتكون من خبز ريفي مسقيّ بِزيت الزيتون ومرصع بِالزَّعتر، مع بيضةٍ تُدعم نُموَّنا.

عندئذ يبدأ يوم من المغامرات، فكنت أنا وعابد، نتسلّق كل الأشجار، ونتفرّج على أمه وهي تُنضج الخبز على أحجار " الطابون " الحامية. . . وذات يوم أخذني لأرى الدجاجة السمينة لأمه التي نظرت إلينا شزراً عند دخولنا إلى هُرْي الحصيد. وكنتُ أرفض تصديقه عندما يقول لي بأن تلك الدجاجة تحضن بيضاً ستتكسر قشرته بعد قليل لتخرج منه كتاكيت؛ فكان هو عندئذ يدفع الدجاجة رغم احتجاجها لِيُريني أنه

شرفات، **1922**.
سيرين في حجْر والدها جمال الحسيني بِبَيْتهم الريفي.

على حق. وقد سقطت إحدى البيضات وتكسرت ناشرة حولها شكلاً مِنْ حياة هو طيْف كتكوتٍ؛ وهي صورة لن أنساها أبداً.

بعد فترة، التحقْنا بأصحابنا في القرية لنشاركهم ألعاباً وتسلياتٍ أخرى. لقد كنت أحبُّ أَن أُضْفي على نفسي أَهميّةً بتَسلُّق البلوطة إلى قِمَّتها. وأنا واقفة عند أعلى وأَثخن غصن، كنت أنادي صديقتي مريم بأعلى صوت:

ـ هيه، يا مِرْيم، هيه!

ـ أونيش، آتية، تُجيبني بلهجتها القروية.

كنت أحبُّ أن أناديها ب "مِرْيم" بدلاً من "مَرْيم"، كما كنا ندعو خالتي في القدس. لقد كنت فخورة بالانتماء إلى القرية والتحدّث بِلهجتها.

كانت مِريم هي البنت البِكْر لعلي مشعل، مختار القرية. وكنّا جدَّ مرتبطين بأسرته التي تسكن أمام بيتنا في الجانب الآخر من الشارع. وكانت مِريم تكبُرني بِبضع سنوات وكنت، بطبيعة الحال، شديدة الإعجاب بها. كانت هي صديقتي المفضلة، لكن إذا لم تستطع المجيء لِلَّعب معي لِسببٍ أو لآخر، فإنني كنتُ أَرْتَدّ إلى أخواتها وأبناء عمّها. كنا نقضي الصُّبْحية في التسلية تحت شجرة البلوط، قلْب حياتنا. ومع ذلك، كان علينا أن نحترم بعض القواعد؛ فقد علَّمونا ألاَّ نُتْلف قط أَغصانها وأَلاّ ننزع أبداً ورقة أو بلوطة، وأن علينا أن نتصرَّف تصرفاً لائقاً تحت قُبَّتها الظليلة. كانت هي شجرة البلوط الشهيرة التي يفوق عمرها ألف سنة، والتي كان الخبراء يتنافسون في التَّنظير بِشأنها.

أما نحن الأولاد والبنات الصغار، فقد كانت لدينا طريقة أخرى لِقياس عمرها: نتشابك بِالأَيدي ونكوِّن دائرة حول جذعها الضخم، ونَعُدُّ كم واحداً منّا حتى نستطيع الإحاطة بها، عشرة، ستة، أربعة... وبِقدر ما كنّا نكبر، كان عدد الأشخاص يتناقص على مرّ السنين.

كانت نهارات الصيف الطويلة تمرّ بسرعة؛ وصِرْنا بنات كاعبات وتعلمنا طرائق الغنج والدلال. وكانت عائلاتَانا تزدادان تقارباً، وتتبادلان العادات والأعراف، وهكذا تّعلمنا الطبخ الريفي للقرية، واكتشفوا هم عادات المدينة واغْتنتْ حياة كلّ من عائلتينا.

أحسستُ بمنتهَى السعادة عندما طلبت مني جدّتي أن أَستدعي عائلة مشعل لتناول قهوة الصباح معنا. تسلَّقت، فخورةً، قمَّةَ البلوطة وناديتُ:

- هيه، يا مِريم، هيه!

- أونيش، جايِّينْ، أَجابَتني!

كان صَوْتانا يرنّان عبر القرية كلها وخارج الواد، والمارَّة المتعودون على صيحاتنا يَبتسمون مُحبِّذين تلك الصداقة بين المدينة والقرية.

كانت جدّتي، في الصباح، تفضّل استقبال مَدْعُوِّيها تحت شجر الصنوبر بالقرب من البيت، حيث يتسنى لها مراقبة ما يحدث في الداخل. وقبل ذلك بِسنوات، كان الخال موسى قد ساعد أباه على زرع غابة الصنوبر الصغيرة هذه، تَحسُّباً - لا قدَّر الله - إذا ما تلاشت شجرة البلوط بِسبب الشيخوخة، فإن أشجار الصنوبر ستكون هي العزاء.

شرفات ، **1923** ، في البيت الريفي . سيرين مع جدّها فيضي العلمي وجدّتها أمّ موسى في بيت القش الذي عمّروه قبل بناء منزل الحجر .

قبل مجيء مدعوّينا، طوّفتُ في كل الأرجاء مع جدّتي لأساعدها على تحضير موضع لاستقبالهم. وعلى طبقةٍ من أعواد الصنوبر اليابسة فَرَشْنا سجاداً سميكاً من الصوف المقلَّم، المنسوج بِاليد، وطَرَحْنا فوقَهُ مِخدّاتٍ؛ ثم جلسنا لانتظارهم تحت ظل الأشجار.

وصلت النساء بِفساتينهن الملوّنة، ورَأْسياتهن البيضاء الطافية، ووراءهن بناتُهن يمشين في وقار. تبادَلن التحايا والإطراءات فَلِلنّساء دائماً أشياء كثيرة يَتَبادَلْنها. وجلست البنات الصغيرات مُستحييات، ناسيات عَفْرتتهُن في حضْرة النساء الأكبر منهن، متخذات سمت الآنسات الحقيقيات.

مرّت السنون على هذه الوتيرة. ذات يوم، علمتُ أن مِرْيم خُطِبتْ، فأصبحتُ منذ ذاك، عندما التقيها، مُتهيِّبة ومُستثارة. ذلك أن البنات، في القُرى، كُنَّ يتزوَّجن في سنٍّ أبكر من سن البنات في المدينة. لعلها كانت في الخامسة عشرة، وكانت شقراء، مفرطة الجمال مع ابتسامة تُضيء وجهها.

كانت تمدّ يدها لتُمسك صُرَّة أدوات الخياطة التي لا تفارقها، ثم تشرع في الخياطة. كنتُ أعرف أنها تُهيئ جهاز عُرْسها. وما أزال أبصر خيوط الحرير المنثورة على السجاد إلى جانبها، عاكسة أشعة الشمس.

كانت يدها ترتفع وتنخفض وَفق إيقاع معين بينما هي تحرك الإبرة. وكان ضوء الشمس الناعم المتسلّل عبر أشجار الصنوبر، يلاعب خيوطها راسماً التماعاتٍ وردية، خضراء وحمراء.

بعد سنوات عديدة، تشظّت حيَوَاتُنا واحتُلَّت أراضينا وبُيوتنا وتشرّد شعبنا على امتداد العالم. ونتيجة لِخُطة تقسيم فلسطين التي أَقرَّتها الأمم المتحدة، فإن شرفات بقيتْ عربية، فقرَّر سكانها ألاّ يغادروا أراضيهم.

مرّت عقود، وأصبحت أعيش في بيروت مع زوجي؛ وذات مساء سمعنا في الإذاعة: "هُوجمَتْ شرفات وهي قرية صغيرة غرْبَ القدس. وقد تهدَّم منزل علي مشعل، المختار، نتيجة انفجار؛ ومات علي مشعل وجميع أفراد عائلته".

فيما بعد، وصلتنا تفاصيل أخرى: لقد ظلت مِريم وأختها الصغيرة يوماً كاملاً تحت الأنقاض قبل وصول الإغاثة التي حملتْهُما إلى المستشفى لكنهما غادرتا الحياة بعد قليل.

أفكر في مِريم، وأحيانا قلبي يناديها: "هيه، مِريم هيه!"

❃❃❃

هالة

تَعَـرَّفتُ على هالة خلال أَحـد الأَصيـاف الطويلة، السعيـدة، في شرَفات. جاءت لتُقيم عندنا سنة **1926**. كان أَبوها أَحد أعيان سوريا، نَفَاهُ الفرنسيون فاستقرَّ مع عائلته في جنيف. وعلمتُ فيما بعد، أن أَبوَيْها قد افترَقا، وتزوّج والدُها مِن خادمته الأَجنبية. وتزوَّجت أختُها سعدية خالي موسى العلمي الذي قرَّر أن تلتحق هالة بالمدرسة الثانوية القريبة من سُكْناهم.

والمرَّة الأولى التي سمعتُ الحديثَ عنها، كانت في القُدس بعد الغداء. كنت في سريري لِتَمْضية القيلولة التي كانت تُفْرَض علينا بعد الظهر؛ وكان بودّنا أن نلعب خارج البيت، فكُنّا ننتظر بفارغ الصبر لحظةَ تحريرنا. وسمعتُ، وأنا في عُزْلتي بالغرفة، صوتاً يَرنُّ عند المدخل: "أين سيرين؟".

قَفزَ قلبي داخل صدري. أحد كان يريد رؤيتي وله صوت جميل في منتهى الوُدّ والثّقة بالنفس. وفي الآن نفسه، هو صوت جدّ فَتِيّ وماكر!

قبل أن تُواتيني الشجاعة فأخالف القواعد العائلية وأَقْفز من سريري، سمعتُ أبي يشرح بأَنني كُنتُ أستريح في غرفتي، وبأننا غداً سنلتقي

كارلو ديڤاري ، **1937** .
موسى العلمي وزوجته سعديه في منتجع كارلو ديڤاري .

جميعاً منذ الساعة الثانية عشرة، في شرفات بمناسبة عطلة الصيف الطويلة.

في أواسط سنة **1920**، لم نكن نستعمل السيارة إلى أَبعد من بيت صفَافَة؛ وما تبقّي من طلعةٍ نحو شرفات، يتمُّ على ظُهور الحمير والبِغال، وكنا نَتفيَّأُ ظِلَّ شجرة كبيرة في انتظار أن تأتي الحمير لتأخذنا.

ذلك اليوم، لم تصل الحمير وحدها: هالة بنَفْسها نزلتْ من التّلَّة مُرافقةً لها. وقد عرفتُها مباشرة من صوتها الذي كان قد جَذَبَني بالأمس.

وعندما رأيتُها، في ذلك اليوم الأول، خلَّفَتْ في نفسي وَقْعَ رؤيا كانت ترقص تحت الشمس. كنتُ في الخامسة أو السادسة من عمري، وكانت هي في العاشرة. وكانت في منتهى الأناقة بفُستانِها الأزرق المنحدر إلى ما فوق ركبتيْها، وجوربها الأبيض وحذائها الجلدي ووِزْرَتها من الدانْتيلا وكان شَعرَها الداكن الممشوط جيّداً يتمايل مثل خصلات حرير عند هبوب نسيم الصباح.

كنت مُتهيِّبةً بشكلٍ فظيع، إلاَّ أنها اندفعت نحوي لِتَضُمّني بين ذراعيْها وجعلت مني، فوراً، أسيرةً لها طوال الصيف وأَصياف أخرى تالية. وأَمْسينا أَكثر منْ قريبتيْن وصديقتيْن: كوّنّا فريقاً يلعب مع فريق آخر، نحن أطفال وبنات القرية.

أصبحتُ مبعوثةَ هالة، حاملةً الأنباءَ لِبقيّة الأسرة وإلى أصدقائنا بالقرية. وذات صباح، أعدّتْ حلقة من السِّيرك ستُقدّمها أمام قُضبان الحديد عند مدخل الدّار تحت شجرة صَنَوبَر كبيرة؛ فَكَلَّفتني بأن أستدعي جميع أطفال القرية.

لم يكن سَبَقَ لأَحدٍ منا أن شاهد السِّيرك، على عكس هالة التي عاشت في أوروبا وتَباهتْ بذلك أمامي. وعندما جاء أصدقاؤنا، في الساعة المحددَّة، إلى الحاجز الحديديّ، وجدُوني واقفةً كما أَمرتني هالة، مُنهمكةً بِالضَّرب على عُلبةٍ من الحديد الأَبيض بعصاً، إعلاناً عنْ الفُرجة. وقد طلبتْ هالة مِن أطفال آخرين أن يصطفّوا ثم أَعطتْهم نفس الطّبول المرتَجَلة. وكانت تلك الضوضاء مُوجَّهة لتكون خلفية صوتية تُرافق عَرْضَها الذي كنا جميعاً ننتظره بِتلَهُّف.

عندما تمَّ تحضير كل شيء وأخذَ كل واحد منا الموضعَ الذي عيَّنَتْه له هالة، عانقتْ قاعدةَ جِذع الصَّنَوبرة وشرعتْ في صعود مسرحيّ، مُبعدةً ذراعها إلى أقصى حدّ قبل أن تُقَرِّبَهُ من الشجرة عَبْرَ تصميم كوريغرافي مُعقَّد يُسجِّل لها انتصارها. كانت الطبول تُدوِّي فيما هالة تتسلَّق الأَغصان العليا تقريباً. لكن الجمهور لم يكن، على مايبدو، مُنفعلاً؛ فتعلَّقتْ هالة بِغُصنٍ أَمسكتْه بِيَد، وتركتْ جسمها يتأَرجح لحظةً من الزمن. غير أن ذلك لم يُثِر تَصْفيقاً. فأخذتْ تُحرّك ساقيْها على نغمات الطبول. إلاّ أن التصفيق لم يأتِ. كان أطفال القرية رافعينَ عيونهم، مأْخوذين، مُنتظرين شيئاً آخر. وفي النهاية، توقَّف ضجيج حديد "الطبول" ونزلتْ هالة من فوق الشجرة، ورَمَتْني بنظرةٍ غاضبة وهي تقول " أصدقاؤكِ أغبياء."

لم أَجسر أن أقول لها بأَننا ـ أطفال القرية وأنا معهم ـ كنّا نُؤدي كل يوم مثل حلقة السيرك التي قدَّمَتْها.

انقْضى الصيف. فتحت المدرسة أبوابها وكل واحد تابَع طريقه. لكن، ونحن نكبُر، بدأتُ أعرف هالة بطريقة أفضل وأدركتُ، تَدريجياً، تَعقيدَ وأصالة طَبْعها. كنا نلتقي في البيت خلال العُطل الصغيرة، وفي كل لقاء كنتُ أكتشف وجهاً آخر من شخصيتها.

ذات يوم، كنتُ في الثامنة تقريباً وهي في الثانية عشرة، قادتْني هالة إلى غرفةٍ اكتشفَتْها في الطابق الأعلى تحت سقف بيتنا في القدس. كانت الغرفة هُرْياً مكتظّاً بالكتب التي قرأها خالي موسى عندما كان طفلاً ومراهقاً. وقد أخذت أنا أيضاً أقرأها، فتعرَّفت على أرسين لوبين وشخصيات مُتخيَّلة أخرى. وتعوَّدنا على الصعود إلى ذلك الهُرْي الذي كانت هالة تستعمله كَوَرشةٍ لها. كنت أَنهمك في القراءة، بينما هي جالسة إلى الطاولة ترسم وتصبغ. أحياناً، إذا أحسنتُ التَّصرف، أي إذا احترمتُ القواعد التي أَمْلَتْها عليّ، كانت تسمح لي بأَنْ أَلعب برسوماتها. وأكبر امتياز كانت تَمنَحه لي، هو أن تتركَني أُلوِّن بالأحمر سُقوفَ المنازل التي رَسَمتْها. واتَّخذَ الفرق بين عُمريْنا أهمية أكبر. وكنت جدّ مسرورة لأَنها لم تَرفُضني، فكنتُ مستعدّة لإرضاء أبسط نَزَواتِها؛ كنتُ أصمتُ إذا أمرتني بذلك، وأقرأ وأصبغ إذا سمحت لي. وكنت، ذات يوم، جالسة بالقُرب منها، مُنشغلة في صبغ سقوفها، فقالت لي: "هل تعلمين بأنني أستطيع تماماً أن أنتحر!"

لم أكن، إلى ذلك الحين، قد سمعتُ تلك الكلمة، لكن الطريقة التي لَفَظَتْها بها، جعلتني أُحس أنَّ لها دلالة مَنْحوسة. نظرتُ إلى وجهها المضطرب وتظاهرتُ بأنني لم أفهم. عندئذ، تحدثت عن الموت قائلة:

" هل تعلمين كيف أنظر إلى مَدْعُوّي جدتكِ في صَالُونها الأنيق؟ مثل وجوه تَنظر إليّ من تَوَابيتها الخشبية. سنموت جميعاً، هل تعلمين؟ أنتِ وأنا أيضاً".

اعتَصَرَني إحساس مُنَفّر، يختلف كثيراً عن الحزن الناعم الذي عانيتُه عنْد موت وِجْدان. أرسلوا كل واحدة منا إلى مدرسة داخلية، ولم نَعُد نَرى بعضنا كثيراً. لكن السنوات التي مرَّت لم تتغلَّبْ على صداقتنا. وعندما أحرزت هالة على دبلوم دراستها الثانوية، سافرت إلى الولايات المتحدة لمتابعة دراستها في جامعة فاسار الأمريكية. بعد ذلك، عادت إلى والدها الذي أصبح، بعد الاستقلال، حاكماً في اللاّذقية.

بعد سنين، تزوجتْ هالة ابنَ عمها، وأصبح لها أسرة عذبة وبيت رائع؛ لكنني لم أكن أقرأ السعادة في عينيْها. كنت غالباً ما أتساءل: ماذا تريد أكثر مِن موهبتها وجمالها وتربيتها والوسط الذي تعيش فيه؟ ألا يكفيها كل ذلك؟ هل كانت تتطلع إلى حبٍّ لم يُقدِّمْه لها البيتُ المنشقّ الذي تربّتْ فيه؟ هل حزنها السَّوداوي مَلمح وراثيّ؟ أم أنه مجرد نَزْوة من الطبيعة؟

مرت سنوات وسنوات، وعلمتُ أنها ماتتْ في الكويت. وكان زوجها قد اشتغل هناك إلى أن وافتْه المنية، فظلتْ هي وحيدة، تسافر من حين إلى آخر. وبعد عدَّة أيام منْ عودتها من أحد تلك الأسفار، عثروا عليها ميتة، وحيدة داخل منزل فارغ. لم تكن قد فتحت حقائب السفر بَعْد.

***

سياجُ الصبَّار

كنتُ أصغُر ابنةَ عمّي هند بِبضع سنوات، وكنَّا على ارتباطٍ وثيق. وقد أُرسلت هي وإخوتُها إلى القدس عند جدَّتهم لأنها كانت تسكن بالقُرب من المدرسة التي يتردَّدون عليها. وكانت أُمهم، التي كنَّا نسميها العمَّة أُم برهان، هي أختُ أبي الكبرى وتُمضي معظمَ السنة في قرية إدنبّة القريبة من يافا، وعلى بُعد عشرين كيلو متراً من رام الله.

كثيراً ما كانت العمَّة أُم برهان تحضر لزيارة أَبنائها في القدس. وفي كل مرَّة، كانت عائلتي تذهب إليها لتحيَّتها والسؤال عن أحوالها. وفيما كان الكبار يثرثرون، كنَّا نحن نلعب بِمَرح قافزين على الحبْل أو مُتسلّقين أشجار الحديقة.

كنتُ أستشعر تجاه العمَّة أم برهان المحبَّة والإعجاب والاحترام، لكنني لم أَكن أُحسُّني مرتاحة في حضورها. كان لديها شيء آتٍ من بعيد لم أُدركه إلاَّ بعد سنوات، عندما حكتْ لي جدَّتي قصَّتها.

كانت بدايةُ حياتها سعيدة، تكاد تكون مثالية. فقد تزوَّجتْ طاهر الحسيني ابن نائب من القدس في البرلمانِ العثماني. وكان زوجها ينتمي إلى الفرع الأكثر ثروة في أُسرة الحسيني، فعاشَا في رفاهٍ بأُسطُنبول التي كانت تُعتَبر آنئذ بِمثابة باريس الشرق. وعلى مرِّ السنين، رُزِقَا بِأبناء كُثُرْ، خمسة صبيان وبنت، هي هند صديقتي.

إدنيه ، **1920** .

الست أم برهان ، زوجة طاهر الحسيني ووالدة الست هند الحسيني ، مؤسسة دار الطفل بالقدس ، الواقفه على يمين والدتها مع أخوانها الخمسة حيث لجؤا بعد وفاة والدهم .

خلال الحرب العالمية الأولى، عُيِّن زوج عمَّتي أم برهان، حاكماً في طرابلس التي تقع اليوم شمالَ لبنان. وقبل أَن يلتحق بِمنْصبه، بَعثَ عائلته إلى القدس مُتوقعاً أن يَسْتَقدمها بعد أن يكون قد استقرَّ في وظيفته. إلا أنه، بعد قليل من وصوله إلى طرابلس، انتشر وباءُ التّيفوس، حاصداً آلاف الأشخاص؛ وكان عمّي من بين الضحايا. مات وحيداً بعيداً عن بيته، ولم تعرف عائلته قط أَين دُفِن. لم تَنْهَرْ عمَّتي تحت وطأَة المأساة ومسؤولية تربية أَبنائها المنُوطة بها وحدَها منذ ذاك. آثرت أن تَتَوارَى في صمت، عن عطف وحماية أسرتها لِتَنْسحب، مع أبنائها، إلى مِلْكِيَّة زوجها الرَّاحل التي تَقَعُ في أقصى ريفِ إدنبّة. ولا أدري ما الذي جَعل زوجَها يأمل أن يجد في تلك الأرض، ذات يوم، بترولاً يتيح له إنجاز مشروع ناجح بعد الحرب! وهاهي عمتي تجد نفسها وحيدة مع أولادها على أرضٍ قاحلة.

ذات يوم، وأنا في العاشرة من عمري، سمعتُ عند مدخل البيت، صوت هند وهي تطلب من أُمي أن تأْذَن لها باستدعائي لقضاء العطلة معها في إدنبة. وشَمَلَتْني فرح عارم وأنا اسمع موافقة أمي. وكانت هند وإخوتها قد حدَّثوني بِحنانٍ عن بيتهم في قرية إدنبة التي كنتُ مُتلهّفةً على اكتشافها.

جاء اليوم الكبير فَرَحَلْنا في السيارة العائلية مع سعد سائقنا في أَوقاتٍ محدَّدة، والمهيدي القَيِّم على شؤون المنزل. كانا رجليْن يقطنان تلك الناحية ويُكلَّفانَ بأعمال مختلفة تحتاج إليها عائلتي: صيانةُ الحديقة، بيْع محصول بُستان الخُضَرِ والفواكه، النَّقْل الخ...

القدس، **1939**.
هند الحسيني، مؤسسة دار الطفل بالقدس في شبابها.

كنتُ مُتَهَيِّجة من نفاد صبري خلال السفر؛ وكنت أَلْتَهِمُ بِعينيّ المناظر المتغيِّرة وأنا أُنصتُ إلى الحكايات التي تسردها عليّ ابنةُ عمي. ظلَّتْ هند تُثرثر طوال الرحلة، سعيدة بلقاء أمها ومعها صديقةٌ هي في الآن نفسه، قَريبتُها.

وقالت لي بأنها مُتأكّدة من أَننا سَنتسلّى كثيراً أنا وهي. وكانت أمها قد حملتْ البيانو إلى القرية، وهي ستؤدّي مقطوعاتٍ وتُعلّمنا أُغنيات. وهذا الأفق الذي كانت هند تفكر فيه، أَشعل حماسها وجعلها تُغنّي بعض الألحان التي علَّمتها أُمُّها من قبل. وقد حكتْ لي أيضاً أن أُمها كانت مشتركةً في أنواع كثيرة من المجلات، مثل "المرأة الجديدة" و"رفيق الأطفال"، وهما مجلتان كانتْ جوليا دِمَشْقية تُصدِرهما في بيروت.

من بين إخوتها الخمسة، وجَدنا المهدي أَصغرهم، وَحْدَه في البيت. أما الآخرون فقد كانوا في الجامعة أو في العمل. كان المهدي يدرس الطب في الجامعة الأمريكية ببيروت وكان حينئذٍ في عطلة.

قالت لي هند وكأَنْ ليس في الأمر ما يستدعي الانتباه: "إنَّه يُمضي نَهاراته في تشريح الضفادع". وأمام سحنتي المفزوعة، كَنستْ مَخاوِفي بعبارة واحدة: "ما عليكِ إلاّ أن تَلتفتي وتنظري إلى مكان آخر".

حدّثتني عن القرية وأَوضحتْ لي أننا سنذهب، بعد الظهر، لِلتَّنَزُّه في الحقول ومشاهدة تِلال القمح المذَّهب الذي يُدْرَسُ تحت الشمس، وأننا سنصبح مُمَرّضتَيْن مساعدتَيْن لأمها التي كانت تَنوب عن الطبيب غير المتوفّر لدى سكان القرية. وأخبرتني كذلك، أننا سنُساعد في تَنْقية

مزرعة الورد الموجودة وراء البيت، وأَننا بالأخَص سنستطيع عند نهاية بَعْد الظّهر، يا لَلَّرْوعة!، أن نَقْطفَ فَواكهَ سياج الصُّبار.

كانت السيارة تخترق الحقول بسرعة. وعندما لم أَكن أنظر إلى هند، كنت وأنا مأسورةُ لكلامها، أُحملق بِعينيّ في الفضاء اللاّمتناهي الممتدّ نحو الأُفق.

كان ما بعد الظُّهر يقترب من نهايته، والشمس تتلوَّن تَدريجياً بلون ورديّ أكثر دُكْنةً وسط سماء تَزدَهي باللّون الرمادي. كنت أَلْتذُّ بِسَكِينَةِ الريف وهدوئه.

فجأةً، تنبّهتُ إلى تَبدُّل إيقاع محرِّك السيارة، فأخذتُ أُراقب سعد والمهيدي الجالسيْن أَماماً. كانا أيضاً يَتصنَّتان بانتباه، وكأَنمَّا عُلِّقتْ آذانُهما بِالمحرك الذي أخذ يُحدث ضوضاءً مثل حيوان مريض يحاول استرجاع أَنفاسه. وفي الأخير، شهقتْ السيارة مرتيْن أو ثلاثاً بِيأس، ثم توقَّفت. كانت عيون مُرافقيَّ ممتلئة بالقلق والفزع بادٍ على وجوههم. كنَّا في قلب الصحراء وما مِن أَثر لحياةٍ بشرية ولا لِقَرية أو حركة سيْر. جالستيْن على المقعد الخلفي، ظللنا أنا وهند، هادئتين بينما كان السائق يرفع الغطاء المعدني لفحص مُحرِّك السيارة. حرّكه ببُطء، لاطَفَهُ، تحدَّث إليه، وأخيراً أَغلق الغطاء المعدني بِخُشونة مُؤكداً يأسه.

عندئذ أعلن لنا بأَن السيارة لن تتحرك في تلك الليلة.

كانت الشمس قد غربتْ، وصمتُ الغَسق يلفُّنا. أَخذنا نَجُوبُ الأَنحاء بِنَظرة خائفة، حابِسين أنفاسنا، مُدركين للفراغ المحيط بنا.

فجأة، عند أقصى نقطة من الأفق، لمحنَا شبح رجل ينْبثِق وكان يتَّجه صَوْب وِجْهَةٍ غامضة. قفز المهِيدي واقفاً وناداه عدَّة مرّات، مُلوِّحاً بذراعيْه علَّهُ يُثير انتباهه. كان الصدى يُرجِّع صوتَه عبر أرجاء السَّهل القاصية، بينما العتمة تَبتلع خطوط الضَّوء الأخيرة. وقد سمع أخيراً صوت المهيدي، توقَّف الرجل وغيَّر اتجاهَهُ صَوْبنا.

كنا ننتظر لاهثين بدون أن نُحدث جَلَبَةً؛ وفيما هو يقترب تَبيَّنَّا أنه كان بدوياً طويل القامة، له مشية مُدهشة، يرتدي "عباءة" سوداء كانت تطفو حوله. التحق بنا أخيراً، وتولّى المهيدي وسعد شَرْحَ وَضعنا. ولم يتركهما البدوي يُنهيان كلامهما، فَافْترَّ وجهه عن ابتسامة عريضة وهو يقول لنا: "أنتم ضيوفنا، إنكم ستُشرفون خيْمتي بِحضوركم هذه اللّيلة".

وجواباً على اعتراضاتنا المهذَّبة، شرح لنا البدويّ بأنه لا توجد وسيلة للعثور على مساعدة في تلك الساعة. ما مِن سيارة ستمر بعد، لكن منذ صباح الغد سيساعدنا، بطبيعة الحال، على إيجاد وسيلة لاستئناف رحلتنا. كنت مُنْهَكَةً من كل تلك المغامرات، فتعلَّقتُ بِيَدِ ابنة عمّي وسِرْنا في أثر مُضيفنا نحو خيمته. وعلى رغم أن بقية تفاصيل هذه الرحلة ما تزال حاضرةً تماماً في ذاكرتي، فإنني لم أُفلح، رغم محاولتي الجادّة، في أن أَستحضر المنظر الطبيعي الذي اجتَزْناه ولا ما حدثَ أثناء تلك المسيرة. لا شك أَنني كنت جدّ مُتعبة فلم أتمكَّن من تسجيل ما كان يحيط بي، وكنتُ مُركِّزة على عيائي وقلقي فلم أَنْتبه إلى العالم الخارجي.

القدس ، **1939** .

هند الحسيني تلقي كلمة في وداع الوفد المسافر إلى مؤتمر سان جيمز على متن القطار الذي حمهلم إلى لندن في محطة القدس وبجوارها الأستاذ جميل وهبه .

مُتقدِّما علينا، وَصَلَ ذلك البدويّ الطويل، الكريم قَبلنا بِبضع دقائق حتَّى يُخبر ذَويهِ بأَن لديْهم ضيوفاً تلك الليلة. كانوا ينتمونَ إلى قبيلة الحْويطات التي يَجُوبُ أبناؤها السَّهلَ خلال الصيف. وعندما وصلنا إلى الخيمة، استقبْلتنا أكبر النساء سناً وهي تمدّ يديها نحونا. كانت تتحدَّث العربية بلهجةٍ بدوية. كانت فارعة القوام، مهيبةً في فستانها الطويل الذي يطفو كُمَّاه بأَناقة ليُلامسا المعصميْن قبل أن يتقوَّسا وينزلِقا في غُنجٍ نحو الأسفل.

مسحتُ بنظرة داخل الخيمة ملتقطة بِصمت جميع ما تحتويه من أشياء. عند يسار الباب، كانت هناك مجموعة من الأَفرشة والمخدات؛ وفيما بعد ستُنزلها مُضيفتنا واحدة تِلوَ الأخرى واضعة إياها على الأرض لِقضاء ليلتنا. وكانت الأرض مغطَّاة بِسجّادات من الصوف الأحمر والأسود والأبيض، نَسجَته النساء بِأيديهنّ مثلما نَسجن الخيمة نفسها. في الجانب الآخر، نحو الفضاء المفتوح، كانت نار مُتَّقِدة وفوقها طنْجرة كبيرة من النحاس تغلي وُضعتْ على ثلاثة أَحجار مدوَّرة. وكان إبريق القهوة النحاسي، الذي طالما سمعتُ بأنه رمز أساسي لضيافة البدْو الرُّحَّل، يلمع بِبريق أَخَّاذ. ولم يكن داخل الخيمة مضاءً سوى بالنار، وبِمصباح غاز صغير موضوع على الأرض، وضوء القمر المُتدفِّق عبر طَيَّةِ الخيمة المرفوعة.

كنتُ أتأمل ذلك العالم السَّاحر من خَلَلِ ضَباب تَعَبي وأنا أستمع ساهية إلى تلك الأصوات الوَدُودة تتناقش حول الإجراءات التي يجب اتخاذها في الغد. كانت رائحة الحساء المتصاعدة من الطنجرة، مُشهِّيةً

إلاّ أن النوم انتصر، وسرعان ما تمدّدت على لحافي لألتحق بعالم الأحلام.

استيقظتُ عند انْبلاج الضوء، غير مرتاحة كثيراً في ذلك المحيط الغريب عنّي. كانوا يُحضّرون السيارة وأَسرعنا في استئناف الطريق. بعد ساعة أو اثنتيْن، وصلنا إلى بيت عمَّتي. ولم تكن ابتسامتها الرَّائقة تكشف شيئاً من القلق الذي، لا شك، قد نَهشها طوال الليل.

أَمضيتُ، خلال ذلك الصيف، شهراً كاملاً بِرُفقة عمتي وأبناء عمّي، مستفيدة تماماً من أبسط دقيقة في كل يوم. كنّا قد طُفنا شوارع القرية ورَاقبْنا دَرْسَ القمح تحت شمس ما بعد الظهر المذهَّبة؛ وتسلَّقْنا كَوْمَاتِ التِبْن الرّخوة، بينما كان القرويون يستعدون للعودة إلى بيوتهم. رَكِبنا على ظهور الحمير التي كانت تعرف الطريق إلى اصْطَبْلها، وقطَفنا فواكه سياج الصبار الرَّيَّانة، حلوة المذاق، وأَكلناها في المطبخ. قرأنا مجلَّتي الستّ جوليا دمشقية، وغنَّينا مع عمَّتي التي كانت ترافق غناءنا على البيانو.

وفي جميع المساءات كنّا ننام مبكّراً مستعجلين الاستيقاظ لنبدأ يوماً مثيراً آخر.

عاشت عمَّتي إلى أكثر من تسعين سنة. وفي سنواتها الأخيرة، فَقدتْ كلَّ تمييز للواقع وابتعدتْ، شيئاً فشيئاً عن إدراك العالم. وفي آخر أيامها، لم تعُد تُميِّز من جميع أَقاربها ومعارفها، سوى ابنتها هند.

القدس . هند الحسيني جالسة على الأرض (الأولى على اليسار) وبقربها فاطمة الكببجي وورائها جالسات على الكراسي من اليمين يسرى عبده، أليس عقل، أمينه على نقيب الحسيني معلماتها وورائهم واقفات من اليمين سعاد فؤاد موسى كاظم الحسيني ومديرة المدرسة المأمونية سابين شلفون ويسرى أبو غزاله .

لقد انفصلتْ تماماً عن كل شيء لدرجة أنها لم تَعُد قادرة على متابعة أحداث فلسطين السياسية ولم تفهم قط ما جرى فيها .

وعندما احتلَّ الإسرائيليون الناحيةَ المحيطة بإدنبَّة ، فقدتْ عمتي مَنزِلها وأراضيها وعادت لتسكن في بيت والدها بالقدس . وكانت هند قد حوّلت ذلك السَّكَن إلى مَيْتَم يضجُّ بالحياة ، وسكنتْ فيه مع أمها .

ذات يوم من سنة **1967** ، بعد أن احتلَّ الإسرائيليون القدس ، كانت العمَّة أم برهان تطوف بِبطء حول الحديقة ، عندما اقترب منها جنديان مسلَّحان . ودون أَن تترك لهما المجال لِيَنْبِسا بِبنت شفة ، سارعتْ إلى معاتبتهما على اقتحامهما لِبَيتها من دون دعوة . ولما قال لها أحدهما بأنهما كانا من الجيش الإسرائيلي وأنهما جاءا لإِجْلائها وأخذها إلى مكان سبق أن أَخذا إليه فلسطينيين آخرين ، انفجرتْ ضاحكة وهي تصيح :

" أيها الشاب ، لا تسخر مِنّي ! "

عندما تُوفيتْ ، حوالي سنة**1980** ، كان بيتها في إدنبّة قد أصبح كيبوتساً إسرائيلياً ، مزدهراً ، يعيش فيه يهود أوروبا الذين لم يكونوا يعرفون ، غالباً ، ما كان عليه ذلك الكيبوتس ، قبل مجيئهم . والشهادة الوحيدة على العالم الذي وُجِد قبلهم ، كانت هي بقايا سياج الصَّبار المحيطة بالقرية والذي كانت فواكهه تَضْمُر تحت أشعة الشمس .

القدس .
هند الحسيني الثانية من اليمين مع والدتها أم برهان وأخوانها الخمس وزوجة أحدهم .

قرى فلسطينية كثيرة كانت هكذا، مُحاطة بِسياج الصَّبار المغروس منذ أَمدٍ طويل، لحمايتها من الدُّخلاء. لكنها لم تستطع أن تحمي إِدنبّة ولا أَيٍ قرية أخرى، مِن دُخَلاء عصرنا.

أَتساءل عمَّا إذا كان سياج الصّبار المحيط بِإدنبّة سيُزهر ذات يوم؟

***

جبل التجربِة

كنّا نقضي عُطَل الشتاء في أَريحا . وكان والدي يحبّ النّزهات الطويلة على الأقدام ، فكنتُ أَجُوبُ معه الشوارع والأزقّة الصغيرة الغريبة في المدينة ، مُخترقيْن بَساتينَ البرتقال و الموز المخضرَّة لِنَلْحق بالطّرق المغبرَّة خارج المدينة . ومهما يكن اتّجاهنا ، فإن خطواتنا كانت تقودنا دائماً ، فيما يُخيَّل إليّ ، إلى موقع تاريخي أو إلى منظر بانورامي أَخَّاذ . كنا نعيش على طرَف المدينة ، وكان لدي انطباع ، آنئذٍ ، بأن عالمنا لم يكن مصنوعاً سوى من الحدائق والسعادة .

كنتُ أعشق حقول أريحا عندما تتفجَّر بالألوان عقب الأمطار الأولى . وكانت أزاهيري المفضلة هي شقائق النعمان بلونها الأحمر المضيئ ، لكنني كنتُ أحب أيضاً أزهار اللؤلؤ البيضاء و الجُرَيْس و البنفسج المتوحّش . وكانت أَسْيِجة الميموزا الصفراء الشّائكة ، المحيطة بالحدائق تسحرني مثلما كانت تسحرني الأطيار المحلية أو المهاجرة في تحليقاتها المبرقَشة الضَّاجَّة في معظم الأحيان .

عند الأفق ، كانت الجبال تُغيّر تَلْويناتها تحت أَشعة الشمس ، مُنتقلة من وَرديّ الفجر الناعم إلى أَصفر ما بعد الظُّهر المذَّهب . وكان البحر الميّت يمتدُّ بعيداً داخل صمته اللاّزوردي .

كانت إحدى نزهاتي المفضلة تلك التي نقوم بها في جبل التجربة. كنتُ غالباً ما أتوجه إليه مع مجموعة أبناء العمّ والأصدقاء، لكن يحدث أَن أقوم بتلك النزهة وحيدة مع والدي المشَّاء الصامد. كان يلذُّ له أن يعثر على طرق مختصرة، ولم يكن ذلك دائماً بدون خطر. كان هدفنا المؤكَّد هو الوصول إلى القمَّة والبقاء على أعلى نُقطة في الجبل مُعلنيْن انتصارنا. إلاَّ أنه لم يكن من النادر أن نَقْفل راجعين و نحن قريبان من الهدف. وغالباً ما كنّا نتوقّف وسط العقبة عند منتصف الطريق إلى قمَّة الجبل.

في الساعة الأولى مِنْ ذات زوال، قال لي والدي: " اليوم سنصعد إلى الأعلى ". قفزتُ واقفةً وتبعتُه بحماس. سائراً بخطوات متواترة، اخترق حديقتنا ليلتحق بالحقل الممتدّ إلى الأبعد ثم توجَّه نحو الجبل.

بعد قليل، وجدنا أنفسنا أمام طريق مُتعرّج قريب من سلسلة التّلال المحيطة بجبل التجربة. وبِقدر ما كانت العقبة تزداد عسراً، بقدر ما كان الممرّ يضيق. وفي لحظةَ معينة، لاحظتُ أن الوالد قد أبطأ السَّير. أدرتُ عينيَّ نحوه متسائلة عمّا حلَّ به، فلمحتُ ابتسامة غريبة تتراقص على وجهه. طلب مني أن ألتفت إلى اليسار وأنا أنظر إلى الأسفل. أطعتُ أمره وإذا بالمشهد الذي اكتشفتُه يضغط على حلقي بينما كانت رُكبتاي تَصْطَكَّان. هوَّة ضخمة منفتحة بين حاجزين صخريْن ومَسِيل عميق ينفتح على الواد على امتداد مئات الأمتار نحو الأسفل. مجرد خطوة عاثرة كانت ستجعل الهلاك محققًا. أفظع من ذلك، أنه ما مِن روح بشرية كانت تعيش في تلك الأنحاء، لا مارَّة و لا رُعاة، ولا حتّى تخييم لِلبدْو يلوح من بعيد.

خفض والدي عيناه ثم سألني : " ماذا ستفعلين لو أنني زلقتُ وسقطت هنا ؟ "

- " سأقفز وراءك ، بطبيعة الحال ، لأنقذك ، أجبت . "

كان عمري عشر سنوات ولم يكن باستطاعتي أن أتخيَّل حلاً أفضل .

ابتسم لي بِحنان ، لكنه قال لِي بصوت صارم ، بأَن ما قلتُه كان أَبْلَدَ فكرة تُقال . ثم أخذ يشرح لي بِأناة أن ردّ فعلي ذاك من َشأنه أن يجعلنا نموت معاً ؛ وأنه لو سقط في تلك الهوَّة ، ولو أن مثل تلك المأساة وقعت ، فإن عليّ أن أعود إلى المدينة لأبحث عن الإسعاف .

ثم إنه أعرض عن تلك الفرضية المضحكة تماماً في نظره ، و تابعنا رحلتنا ببطء وبِتحوُّط . وعلى رغم تبصُّرنا فإن الوعي بالخطر المفزع الذي كان يحوم حولنا دفعنا إلى التفكير ، فأخذنا نتقدّم صامتيْن مُركزين انتباهنا على كل خطوة ، مُتَثبّتين من موقع أقدامنا .

وصلنا أخيراً إلى الحديقة حيث كان رُهبان الّدير الأورثودوكسي يزرعون خُضرهم . وكانت تلك الحديقة مسقية بِمجرىً مائيّ ، وهو شيء نادر في تلك الناحية . وكان لبعض أبناء عمِّ والدي بساتين بالقرب من هناك ، وقد أقاموا روابط وديّة مع الرهبان . وكنا نحن أيضا نُستقبل دائماً بِترْحاب .

كان الطريق الخشِن ، المتعرّج المؤدّي من بستان الخضر إلى الدّير نفسه ، يُشكّل الجزء الأكثر إنهاكاً في الصعود . وعلى رغم المنعطفات الكثيرة ، كان لدينا انطباع بأننا نسير عمودياً مباشرة في اتجاه السماء .

ولم أجد قوة لمتابعة الطريق إلاّ بِترديدي مع نفسي بأن ذلك كان هو الجزء الأخير وبأننا قارَبنا الهدف.

أخيراً بلغنا باب الدير، وأحسستُ، وأنا أرتاد البناية إثرَ والدي، إحساساً غريباً يغمرني. أدركتُ أنني أوجد في المكان نفسه الذي كنت ألمحه من نافذة غرفتي في أريحا، كل مساء، وكان يبدو لي ضوءٌ خافتٌ عند قمّة الجبل البالغة العُلوّ كأنها تلامس السماء، فيما كان يُخيَّل إلي. كم من مرة وقفتُ عند النافذة، وعيناي حالمتان، مُثبّتتان على ذلك الضوء وأنا أتساءل عما كان يوجد في داخل تلك البناية التي كنت أُميّز بِالكادِ حواشيها المضاءة بالقمر، من بعيد.

كان هناك رجال بوجوه مرحبة يرتدون كساءً أسود ويتحركون في ذلك الفضاء غير المألوف، بين سماء وأرض. تعرَّف أحدهم على أبي فجاء للسلام علينا. وكان عليّ أن أبذل جهداً لأتذكر بأن المكان الذي كنا نوجد فيه قد حُفِر داخل مغارة ملتصقة بالصخرة التي مَلَّسها الزمان فأَضحتْ تكوّن جدران الممرّ المُفضي إلى الدير. كانت هناك إيقونات معلقة على حواجز حجرية في ذلك الممر الذي يُفضي إلى مُصلَّى واسع حيث تُعرض اللَّوازم المادية للتّقوى والتصوّف. كان المعبد والشموع والبخور، وكسوة هؤلاء الرهبان الرُّوس الأورثودوكسيين مألوفة لدي منذ أمد طويل، مثلهم مثل رموز الكنائس الفلسطينية الأخرى.

أتذكّر الانفعال الذي كان يَنْتابُني أمام نافذة كبيرة ذات قُضبان من حديد. ناظرةً من خلالها، كنت أكتشف منظر جبل " التجرِبة " كما كنت أتخيّله.

كنت أُبصر أريحا بِبيوتها المتضامَّة وأرضها المرصّعة بِبيارات البرتقال والموز، والنخيل والأشجار المزهرة، تُحيطها قِمم بعيدة والبحر الميّت يلمع مثل سجّادة من فضة تتمطّى تحت الشمس بين المدينة و الجبال عند الأفق.

قال لي الراهب، وقد لاحظ بدون شك انْدهاشي:

" انتظريني لأقودكِ إلى أَمكنة إِغواء المسيح نفسها "

وبينما كان يسبقنا، أخذت أجراس الكنيسة تدقّ وهي نفس الأجراس التي كنت أسمعها من بعيد. فكَّرت: ها أنا ذي قريبة من الأجراس التي يخترق صداها حقول وديان أريحا، وهاأنا ذي داخل الغرفة نفسها التي يشعُّ منها الضوء مثل نجمة وسط الليل جدَّ بعيد وجدّ قريب من السماء.

وصلنا أخيراً إلى القمَّة. كانت الأرض مبلَّطة وجوانب المعبد تحمل علامةَ شُغْل الإنسان. لم أعترف للراهب بأنني شعرت بالخيبة لأنني لم أُحس هنا بالشعور الصّوفي الذي غمرني داخل الكهف في الأسفل.

لم أعد إلى رؤية جبل التجربة، قُرُنطل كما نسمّيه بالعربية، إلاّ بعد مرور نصف قرن. وكان الجيش الإسرائيلي قد غدا يحتل ذلك المكان الاستراتيجي المشرف على مجموع المنطقة. تأملتُه من أسفل، مِنْ عند حقول أريحا حيث ما يزال يوجد بيتُنا.

***

حكاية آخر "شطحة"

الصور التالية أخذت في شطحة بالقرب من النبي موسى، في ربيع 1935، آخر أيام السعاده، قبل هجرتهم من فلسطين.

جمال الحسيني يحمل سلة الأكل ، في طريقه إلى الشطحه .

في الطريق إلى الشطحه .

أمّ سيرين وجدّتها تجْتازان مياه النهر ، حاملتيْن سلة الأكل .

تبدو سيرين هي الثالثة من على يمين الصورة. وحَوْل الحصيرة، جلس أبوها جمال وأمها نعمتي وجدّتها أمّ موسى وزوجة خالها السعدية، وصديقتها عبلة وأخوها حسن وأخواتها ملك وهالة وجمانة والولد المتبنى موسى واقفاً.

سيرين في مقدَّم الصورة على اليمين، وحولها أبوها وأمها وجدّتها وأخوها وأخواتها.

جمال الحسيني محاطاً بزوجته وأولاده الخمسة والسعدية زوجة موسى العلمي وموسى الولد المتبنى وابن خالها الشهيد سامي الأنصاري الذي استشهد في أول عملية فدائية ضد الجيش البريطاني في القدس.

بَعْد وَجْبَة الغداء، استراحة وسط حقل الأزهار.

ضريح النبيّ موسى في الخلف، ولحظات الأخيرة قبل الهجره والمنفى .

فيرا وَ تاتْيانا

كان الحيّ الروسي في القدس، الذي كان يُسمّى المسكوبيه، مركزاً للنشاط والحياة العائلية، مختلفاً تماماً عما هو عليه اليوم: مكان للاعتقال والاستجوابات.

وكان بيتنا في المَصْرارا يقع عند سفح التَّل، غير بعيد من هناك؛ وخلال سنوات **1920**و **1930**، كثيراً ما كنّا نصعد، نحن الأطفال، إلى حدّ الكنيسة الروسية الغريبة الشكل، أو نذهب لنستمع إلى جَوْقة الجيش البريطاني وهي تعزف في حدائق ذلك الحيّ.

في تلك الفترة، كانت الكنيسة محاطة بمنازل للإيواء حيث كانت تسكن نساء روسيات. كُنَّ راهبات مبتدئات يَنْتَمين إلى الطَّائفة الأرتدكسيه. بعضُهنَّ كان لهن الإذْن بالاشتغال كخادمات في القدس. وهذه هي حالة فيرا التي التحقتْ بعائلتي لعدَّة سنوات. وكانت كثيراً ما تدعونا إلى بيتها الصغير في عين كارم، القرية القريبة من القدس حيث كانت تعرض علينا كلَّ كُنوزها: بيضُ عيد الفصح مُشمَّع ومُزوَّق، تطريزات وصور. كانت جدّ مُعتزَّة بِكنيستها في عين كارم.

أما صديقتها تاتيانا، وهي عضو في نفس الطائفة الدينية فقد كانت تشتغل عند أَقاربنا من عائلة حسيْن سليم. كان هذا الأخير قد تُوفي

القدس ، 1922 .
فيرا المسكوبيه التي عملت في منزل آل الحسيني حاملة وجدان .

شاباً، تاركاً لأَرملته أربعة أولادٍ عليها أن تُربيهم، وبيتاً كبيراً عليها أَن تَرعاه. فكانت تاتيانا نعمة لَدُنيّةً بالنسبة لها، وأصبحت تَدريجياً جدّ قريبة من الأسرة.

وقد كان حسين سليم، مثل والده من قبل، عضواً محترماً في العشيرة ومحبوباً من الجميع. وعلى سبيل المزاح، ولكن أيضاً بدافع الاحترام، كنَّى أحدهم ابنه الكبير سيدي سليم بِلَقَب "الجَدّ سليم"؛ وقد لصقتْ به الكُنْية و أصبح الجميع يُنادونه بها.

كان سيدي سليم و إخوانه علي، عمر، وهاشم يلعبون في ساحة بيتهم الكبيرة مع أبناء عمهم المنحدرين من أربعة فروع عائلية مختلفة. وقد أصبح اثنان من أبناء اثنتيْن من تلك العائلات، يتيميْن بطريقة مأسوية وفي سن مُبَّكِرة. إلاّ أن سيدي سليم الذي كان له حسٌّ فكاهي فطري لم يكن يتردّد في الاستفادة من وضعه ووضع إخوانه؛ فكان عندما يلعبون كرة القدم بالقرب من البيت، بعد خروجهم من المدرسة، يختار لفريقه الأولاد الذين فقدوا آبائهم.

أما الذين لم يكونوا يَتامى، فإنه كان يضعهم في مرتبة أَقل ولم يكن يعتبرهم جديرين بالانخراط في فريقه.

كانت تاتيانا متعلقة بهؤلاء الأولاد، وكانت هي التي تهتمُّ بهم لأن أمهم كانت جد منشغلة ما بين رعاية البيت و ضرورة العمل لتتمكَّن من سدّ النفقات.

في المساء كان الأولاد يتحلّقون حول أمهم ليحكوا لها مغامراتهم وما جرى خلال النهار. وكانت تاتيانا كثيراً ما تأخذهم لزيارة أقاربهم،

وأحياناً تصحبهم لزيارة كنيستها في المسكوبية. كانوا يحبون التراتيل وأَجواء القداسة والاحترام المرافقة لها.

ذات يوم، حكى الأولاد لأمهم زيارتهم لكنيسة تاتيانا وهم مُستَثارون بطريقة خاصة:

" كان ذلك أفضل من المعتاد. كان هناك خَلقٌ كثير وقد قَبَّلْنا جميعاً باحترام، العنزة. "

- " قبَّلتُم العنزة. "؟

عندما تساءلتْ عما يقصده أولادها بكلامهم، نادتْ على تاتيانا التي احمرّ وجهها وأخذت تلمس بعصبية وِزْرَتَها. كانت تفضّل أن تتغاضَى عن السؤال إلاّ أنّها أعطت الشرح المطلوب:

" لقد أقمنا حَفْل جناز لأحد الرهبان. وبينما كان مُمَّدداً داخل تابوتُه، قبَّلْناه جميعاً على لحيَتِه".

كبُر الأولاد وأصبحوا شباناً أقوياء، غير أن علاقتهم بتاتيانا ظلَّت كما هي. وقد التحق سيدي سليم وواحد من إخوانه بالجامعة الأمريكية في بيروت، بينما رحل علي إلى استانبول لدراسة الهندسة في كوليج روبرت الأمريكي، ثم عاد ومعه خطيبته التي قابلها في الجامعة. لقد رجع الأخوة الأربعة إلى القدس ليبدؤوا حياة سنّ الرشد.

في سنة **1936**، عندما قامت الثورة، التحق سيدي سليم وإخوته بصفوف المقاومة مثل الكثيرين من الشبان الفلسطينيين. وفي كل مرة كانوا يرون فيها أمهم وتاتيانا، كانوا يُطمْئِنَانِهما:

القدس ، **1920** .
سيرين في سن الواحده .

" ما مِن داعٍ للقلق" .

لكن بعد تَفاقُم الاضطرابات في فلسطين ، اصطحب سيدي سليم أمه وأخاه الأصغر هاشم إلى بيروت حيث أصبحوا جيرانَنا ضِمن عشيرة الفلسطينيين المنفيين الذين كنّا جزءاً منهم . أما سليم فقد عاد إلى فلسطين ليلتحق بحركة المقاومة .

وجاءتنا الأنباءُ ذات يوم ، بأن عليّاً لقيَ حتفه خلال غارة جويّة بريطانية على الجبال . وكان لا بدّ لأحدٍ من أن يعلن النبأَ الحزين إلى أمه ، إلاَّ أنه ما مِنْ أحد وَاتَتْهُ الشجاعة للقيام بذلك .

وقد جاء عدَّة مساعدين لعلي من أجل تلك المهمّة ولكنهم عادوا من حيث أتوا لعجزهم عن أن يُحزنوا تلك المرأة التي هي نَهْبٌ للقلق . وانتهى بها الأمر أَن فهمت بدون أن يُخاطبها أحد في الموضوع . ذلك أن صمت علي الطويل و زيارات أصدقائه العديدة الذين كانوا يرحلون فجأة مع أنهم جاؤوا ، فيما يبدو ، ليُفضوا لها بشيء ، جعلها تُدرك فَحوى ما عجزوا عن إبلاغه إليها . ولم تكن هي الأم الوحيدة التي يتحتّم عليها أن تتحمّل المحنة الفظيعة لِفُقدان ابن .

علمنا ، فيما بعد ، أن عمر ، أَخا علي ، قد اعتُقل . وخلال بضعة أشهر من سجنه ، مرض ومات .

بعد مرور سنوات ، عقب الحرب العالمية الثانية و انتهاء منفانا الأول في بيروت وبغداد ، رجعنا إلى القدس . كنت مخطوبة ، وكنّا أنا وأمي ، جدَّ منشغلتيْن بالإِعداد لزواجي . ذات زوال ، وأنا في الحديقة ، وصلت تاتيانا لزيارتنا . كانت قد مرّت سنوات لم أَرَها خلالها ، فوجدتُها طاعنةً

في الشيخوخة ، وحركتُها ثقُلَتْ وكانت تمشي ببطء . تبادلنا القُبل سعيدتيْن بلقائنا بعد افتراق طويل . جلسنا وأخذنا نُثرثر فترةً مديدة ، مستعرضتيْن الأصدقاء والأحباب الذين فَقَدْناهم . وكانت تاتيانا تبكي كلما استحضرت علي الذي ربَّته واستقبلتْ خطيبته ، وأحسَّت بالقلق عندما ذهب لإتمام دراسته في إستانبول :

" لقد مات علي ؛ ولا شك أنه بالقرب من خالقه ، بالقرب من الله حيث ترقد روحه بسلام " .

كانت تردّد هذه العبارة عدة مرات ، مُضاعفة دموعها في كل مرّة . كنت أحاول أن أواسيها ما وَسِعَني ذلك ، إلاَّ أنني أدركت شيئاً فشيئاً أن هذه المأساة ليست هي سبب حزنها الوحيد . سألتها :

" ماذا هناك ، يا تاتيانا ؟ ماذا جرى ؟

- علي روح طيبة ، ردَّدت باستمرار . إنه روح طيّبة ، اهتمَّ بي مثلما كان يرعى أمه عندما بدأتُ أشيخ . وعندما كان يجيئ لزيارتي خلال أسابيع طويلة ، كنت أجد النقود التي كان يُخفيها من أجلي وراء كتاب أو تحت غطاء الخِوان ، لِيفاجئني ويساعدني أثناء غيابه . كان قلبه أقرب إليَّ من أسرتي الخاصة . كيف يمكن أَن يكون مآله الجحيم ؟ كيف ؟

- ولماذا سيذهب إلى الجحيم ؟ سألت تاتيانا بِعذوبة .

قالت والكلمات تخرج بصعوبة من شفتيْها : " تعرفين ، لأنه ليس مسيحياً " .

القدس، **1895**.
محمد صالح الحسيني، جدّ سيرين ووالد جمال الحسيني.

تنفستُ بعمق. كيف يمكنني أن أشد من عزم هذه المرأة المقتنعة اقتناعاً قوياً بِحقيقة معتقدات دينها، أو بما كانت تفهمه منه؟ كم من مرة سمعتُ فيها مثل هذا الكلام من أَفواه مؤمنين من نَفْس ديني؟

أخذتُها بين ذراعيّ و قلت لها بأنني متأكدّة تماماً أن جميع الناس الطيبين سيذهبون إلى الجنّة، وأن الجنّة والنار ربما هما رَمْزانِ لما نُعانيه خلال حياتنا، وعلى ضوء أفعالنا، وأَن دينينا سيتمُّ فهمهما بطريقة أفضل ذات يوم.

مُتعزِّيةً بما قلتُه لها، ابتسمتْ أخيراً وبادَلَتْني عناقاً بعناق. وعند انصرافها، أخبرتني بأنها ما تزال تصلّي من أجل علي في كنيستها كل يوم. لكنها ستذهب إلى القسيس لتطلب منه أن يفسر لها جميع هذه الأشياء التي تجدُها معقّدة.

***

"السيِّدُ سيرين الحسيني"

وثانوية "الفرندز"

أَيقظتْ نشاطات عائلتي خلال الثلاثينات وَعْيي السياسي أَبْكَرَ ولا شك من يقظته عند معظم البنات اللائي لهن نفس سنِّي. ولن أَنسى أبداً الصدمة التي أحسستُها حين اعتقل البريطانيون والدي لأول مرَّة.

كان المعهد الإسلامي الحديث، التجريبي، الذي تردّدتُ عليه، قد أَقفل أبوابه العام **1930**، فأخذ والِداي يبحثان لي عن مؤسسة تعليمية أخرى. ولمَّا كان عليهما أن يُمضيا أَشْهُرَ الشتاء في أريحا، فإنهما بحثا عن مدرسة داخلية. كان عمري آنئذٍ عشر سنوات ونصف، فَقدَّرا بأن أخي حسن وأختي مَلَك كانا هما أيضاً في سنّ الالتحاق بالداخلية.

ولا شك أن أبويّ قد عانيا عند اختيار مؤسسة من بين الاختيارات الكثيرة للمدارس المحلية أو الأجنبية، ومن بينها البعثات البريطانية والألمانية والإيطالية والفرنسية والأمريكية، المتوافرة في القدس.

بعد تفكير مُتأَنٍ، اختارا ثانوية الفرايندز الأمريكية في رام الله.

كان قراراً صائباً لم يندم عليه أحد منّا. كانت البنايات والحديقة رائعتين وبالأخص الانفتاح الذّهني لِلبُروتستانتيين كوِيكرس الذين أَثْرَوا

لبنان ، **1935** .
سيرين واقفة في أول الصف ابتداءً من اليسار ، مع صديقاتها . وقد بدتْ على يسار الصف الثاني أمام سيرين ابنة عمها فاطمة التي توفيت بعد ذلك بقليل .

عقولنا كثيراً، فصِرنا مُمْتَنّينَ لهم إلى الأبد. بمغادرتي مدرسةً إسلامية و التحاقي بمؤسسة الكوْيكرس، لم أُسجل أَي فرق في العقلية والروح بين الطائفتين.

لكن على مستويات أخرى، كان التغيير في منتهى الجذرية. في المدرسة القديمة، كان الأساتذة و أعضاء الفرقة المؤَطِرّة يعرفون عائلتي معرفة شخصية.

وفي رام الله، بدلاً من أن أتلقى الدّلال، كان عليَّ أن أَهتمَّ بأختي ملك التي تصغُرني بسبع سنوات و لم يسبق لها أن كانت في مدرسة داخلية. وهذا الإحساس بالمسؤولية أَلْجَمَ الكثير من تلقائية سنوات طفولتي.

كنتُ أمارِس دوري بِجديَّة كبيرة لدرجة أنني، وفي أَول يوم للمدرسة، وأنا أُمسك بِيَدِ مَلك لأجتاز أرضاً مجهولة هي مُنتزه اللّيسِيهْ، أحسستُ بأنني أُمٌّ ولستُ تلميذة "جديدة" مثل أختي. كنت أشعر فوقنا بنظرات التلاميذ الآخرين الفضولية وهي تراقبنا خلسةً. فجأة، تنبّهتُ إلى أن فُسْتانَيْنا الجديديْن المتوهجيْن هما أطول من فساتين معظم البنات الأخريات.

عندما كانت الخيّاطة تُنجز ملابسنا المدرسية، ذكّرتها أمي باستمرار أَننا نكبُر كثيراً كل عام؛ فشعرتُ فجأة أنني جدٌّ تعيسة.

داخل الفصل، كانت البنات يُثرثرنَ و يضحكن فيما بينهن من دون أن يُعِرْنَني أدنى انتباه. وما من أحد قدّمني للأخريات في ذلك اليوم

الأول، وكان الجميع منشغلاً بالتعرُّف على الأمكنة. أخيراً، وقد استبدَّ بي اليأس، تخيّلتُ حيلة لأَمـلأَ الفـجـوةَ التي كـانت تفـصلني عن الأُخريات.

كان هناك أربعون سريراً مصطفاً داخل عَنْبر النوم، وخزانات تؤشّر على علامة فارقة بين كل عشرة أو خمسة عشر سريراً. وكان عنبر نوم التلميذات الكبيرات قريباً من عنبرنا، على الجانب الآخر من الممرّ.

في الصباح، استيقظتُ باكراً وأنا حزينة لابتعادي عن منزلنا العائلي، إلاَّ أنني كنت مُتَشوِّقةً لما كان ينتظرني ومتلهّفة على عَقدِ صداقات. راوَدَتني حيلة بطريقة طبيعية. فقد كان يحدث لأختي الصغرى هالة التي يحول سنّها دون الذهاب إلى المدرسة، أن تتلفَّظ بكلمات أثناء نومها. فقلت في نفسي

" لمـاذا لا أَتظاهر بالكلام و أنا نائمة؟". واستجابةً لحاجتي في أَن أُؤَثِّر في التلميذات الأخريات، أَخذتُ أتكلم بكثافة درامية عالية. ولما شعرت بأن الأخريات يُحِطْنَ بي، وقد انْطَلَتْ عليهن الحيلة، تظاهرتُ بأنني استيقظ من نوم عميق. وفي حرصهنَّ على أن أُكرّر ما قلتُه نائمةً، أخـذْنَ يتنافَسنَ لإثارة انتـباهي. إنني لم أندم قط على لَعِبِ تلك الكوميديا التي ساعدتني على أن أَكتسب صديقاتٍ بسهولة.

بعد أن، اجتزتُ ذلك الحاجز الأول، بدأتُ أستسيغ حياتي الجديدة. كـان لدينا أساتذة أَصلُهم من لبنان و الولايات المتحدة وهولندا، فضلاً عن أولئك الذين جاؤوا من فلسطين. وكـان ذلك

لبنان، **1935** .

سيرين في نزهة على الكوتشيه مع صديقاتها ، وبنت عمها فاطمه .

المناخ الكوسموبوليتي يفتح أعيننا بتلقائية على العالم المحيط بنا، دونَ أدنى إحساس بالتّعصب أو الشعور بصدمة ثقافية. كنّا ندرس الأنجليزية والعربية والرياضيات والتاريخ والجغرافيا ومواد أخرى، إلاّ أن المادة التي كنت أفضّلها هي الأدب العربي و الأنجليزي.

بعد الظُّهر، عَقِب الدروس، كنا نُجَرْجِر أقدامنا بالقرب من المطابخ منتظراتٍ الحصول على سندويش "لَبْنة" أو مجرد بَسكويتْ. ثم ننتظم داخل صفوف للقيام بِنُزهتنا اليومية مصحوبات بأحد أساتذتنا.

كانت رام الله رائقة المناخ في كل الفصول: الكَرْم يكسو منحدرات التِّلال و الوديان الصغيرة تكتظُّ بأزهار الحقول. كنّا سعيدات بالرجوع إلى مُنْتزه المدرسة للتَّسكُّع تحت أشجار الصنوبر الباسقة التي تبدو رؤوسها الإِبَريَّة كأنما تهمس بالسعادة وهي تتلقَّى مُداعبة النسيم. في بعض الأيام، إذا حَالَفَنا الحظ، كنَّا نُصادف تلاميذ مدرسة الأولاد الخارجين هم أيضاً للنّزهة؛ فكنا نجعل رؤوسنا مستقيمة متظاهرات بأننا لم نَلْحظْهم؛ من دون أن يمنعنا ذلك من أن نَرشَقَهم بنظرات خاطفة لنتأكد من أنهم كانوا ينظرون إلينا. وفيما بعد، داخل حميمية عنبر النّوم، كنا نتقاسم بِانْفعال ملاحظاتنا.

نَدينُ لمبادرة الآنسة ايفا بدر، أستاذة العربية، بنشاط آخر من نشاطاتنا المفضّلة. لقد اقترحت علينا ذات يوم، أن نكتب مسرحية ونُمثِّلها؛ فاخْتَرنا موضوع صورة أمريكا عند نساء رام الله اللائي يبقين في البلاد حين ينزح أَزواجهنّ أو آبائهنَّ إلى الولايات المتحدة. وكان

هذا الموضوع مؤثراً و غريباً في آن، فلقيت المسرحية نجاحاً ملحوظاً. مرّت سنوات عديدة بعدها التقيت بالآنسة بدر في بيروت، وكِلانا مُتزوجتان، فاستحضرنا بِانفعال، ذلك التعاون المسرحي الطريف.

إلاَّ أن سعادة طفولتي الصافية من الغيوم، ستَتلبّد سماؤها بِخشونة نتيجة الحقائق القاسية للوضع الفلسطيني. وأنا هنا أتحدث عن الثلاثينات وهي الفترة التي كانت فلسطين خلالها في منتهى الغليان. وحتّى داخل محيطنا المدرسي المَحْمِيّ، لم نكن نجهل كل ما يتصل بالمظاهرات والإضرابات، وأخذت السياسة تثير انتباهنا.

في سنة **1935**، غدا والدي على رأس الحزب الفلسطيني العربي؛ وكان في الآن نفسه مسؤولاً عن صحيفة سياسية هي "اللّواء". كان يفتخر بي عندما كنت أقرأ عناوين الجريدة في البيت. وقد طلبتُ منه أن يرسل إلي الصحيفة إلى المدرسة. ولعلّ المسؤول عن الإرسال في مكتب الجريدة كان عاجزاً عن تصوُّر وجود فتاة تلميذة مهتمَّة بمتابعة أخبار الساعة، فَوَضَع الاشتراك في اسمي ولكن بِصيغة المذكَّر. وفي المدرسة أصبح الجميع يُنادونَني باسم "السيد سيرين الحسيْني"، وهو ما ساعد في زيادة شعبية صحيفة "اللواء" التي كانت تُوّزع بعد الظهر، فكنا، بعد الانتهاء من الدروس، نَتَجَارى لنبحث عنها عند السياج الحديدي الخارجي. كنا نَقرؤها مُوزَّعاتٍ على مجموعات صغيرة و نُوصِّلها إلى جميع القارئات الشَّغوفات.

ذات يوم، بعد الظهر، خرجتُ من الفصل بعد الأخريات و أخذت أبحث عن صديقاتي. وعندما لقيتهنَّ، أشاحوا بنظرتهنّ، فسألتهن عن الجريدة. بعد هُنَيْهة صمت، قالت لي إحداهنّ بأنها لم تَصل.

الجامعة الأمريكية، **1939**.

سيرين أولهم من اليسار جالسة، وورائها بنت عمها فاطمة الحسيني وواقفاً ورائها شار مالك أستاذهم بالجامعة وفي أقصى اليمين ابن عم سيرين حيدر الحسيني ابن الست زكيه.

استغربتُ، غير أن استغرابي لم يدم طويلاً لأنني رأيت أن واحدة منهنّ تُخَبِّئها خلف ظهرها. وعندما أسرعتُ لأَخذها ابتعدت عني وهي تجري.

تابعتُها فيما كانت الصديقات الأُخريات يُحِطْنَنَا. لم يكن لديّ الوقت لِفَهم ما كان يجري. هل يتعلق الأمر بلعبة؟ أخيراً أمسكتُ بالصديقة الهارِبة وانتزعتُ من يديْها الجريدة وأسرعت لأَخْتبئ في المرحاض وأنا أقفل الباب خلفي.

انتظرتْني صديقاتي طويلاً، وأخيراً خرجتُ مُرتَعِشةً من الانفعال والدموع تغمر وجهي. كان أبي قد اعتُقل! في ذهننا، كانت كلمة "اعتقال" مُرادِفة لِلْعار والإجرام. لم يكن يحدث سوى للمجرمين.

أبي معتقل؟ في السجن؟ كان لا بد من عدّة أيام لنكتشف أن ذلك المصير لم يكن قاصراً على المجرمين، وأن البريطانيين كانوا يقمعون المقاومة العربية في فلسطين. وقد أَيقظ هذا الحادث وَعْيَنا السياسي. كانت جريدتي هي صِلَتُنا بالعالم الخارجي وبالأحداث الواقعة خارج حَرَم المدرسة. كانت طفولتنا تمَّحي بهدوء تحت تأثير ذلك النُّضج الجديد.

***

لَعِبُ أَطفال

كانت النهارات مشرقة، والليالي دافئة والحياة ناعمة عندما كنّا أطفالاً في بيتنا في القدس.

كان سكَنُنا هو كلُّ عالمنا. بطبيعة الحال كنا نخرج لنذهب إلى المدرسة إلاَّ أننّا كنّا جدَّ سعداء بالعودة إلى البيت. وكانت الحديقة المحيطة به تَنُوءُ تحت أَزهارها، فكنَّا نختار أسماء للأزهار الأكبر حجماً و التي نجدُها أكثر تميّزاً. هكذا كانت لنا أزهار تحمل أسماء: ملِك، ملكة، أميرة، بل وحتى ساعة جدارية بِسبب الشّبه الغائم بين هذه الزَّهرة ورقَّاص الساعة الموجودة في البيت. كانت هناك ثلاث درجات يَقْدنَ من الحديقة إلى الفيراندا حيث كنا نستلقي بِارتخاءٍ على كَراسٍ طويلة محفوفة بِعِطْر أدغال الياسمين المتسلِّقة فوق الجدران.

ويظل أخي حسن وأخواتي الثلاث ملك وهالة وجمانة مُتواشجين بذكرياتي عن الحديقة. كنت الكُبرى و حين بدأت أغادر الطفولة لأَرتاد المراهقة كلّفوني بالسَّهر على إخوتي أثناء عودتنا من المدرسة الداخلية. لنْ أنسى أبدا ذلك الصيف الخاص حيث بدا لنا أن الحياة تأخذ منعطفاً جديداً وحيث لم تَعُدْ حديقتنا هي مَكانُ طفولتنا السحريّ.

القدس ، **1929** .

سيرين الابنة البكر تحمل أختها هالة . على يمينها أختها ملك وأمامهن أخوهم حسن ابن العائلة الوحيد .

بعد أن اكتشفتُ السياسة في اللّيسيه، صار لديّ اهتمام شديد بالأوضاع السائدة في بلادنا وأصبحت أتابعُ الأخبار عن قُرب. كانت المظاهرات والإضرابات تَتَالى، وكنتُ أسمع عن الاعتقالات و الاجتماعات السياسية وأحداث العنف. أحياناً، كنت أقرأ في الجريدة أسماءَ أعضاء عائلتنا و اسمَ أبي بكثرة. كان البريطانيون قد أطلقوا سراحه، ويوم نُشِر اسمه في الجريدة، امتلأت غُرف بيتنا، بعد الظهر وفي المساء، بِالزائرين الذين جاؤوا ليعبروا له عن مساندتهم.

كنّا على وشك الدخول في ستة أشهر من إضرابات **1936**. وكانت فلسطين العربية تحت الوصاية البريطانية، تُعاني من ضغط هجرةٍ يهودية ذات كثافة مرتفعة. أمام الإحساس بأن وجودها نفسه أصبح مُهددًا، نظمت أهم المنظمات العربية إضراباً عامّاً احتجاجاً، ليس فقط على الوجود اليهودي، الذي أصبح متعاظماً كل يوم، وإنما أيضاً ضد تصريح بلفور وضد السيطرة البريطانية على فلسطين. استجابتْ كل البلاد لهذا النّداء وتبِع ذلك مظاهرات واصطدامات بالبوليس، وخُطب نارية داخل المساجد والكنائس. كانت جميع بيوت فلسطين يَقْضِمُها التخوُّف و القلق.

شاركت أمي، وهي عضو في الحركة النسائية، في مظاهرات النساء العديدة التي كانت تمرُّ في الشوارع المؤدية إلى إقامة الكومسير البريطاني الأعلى، وذلك احتجاجاً على الهجرة اليهودية.

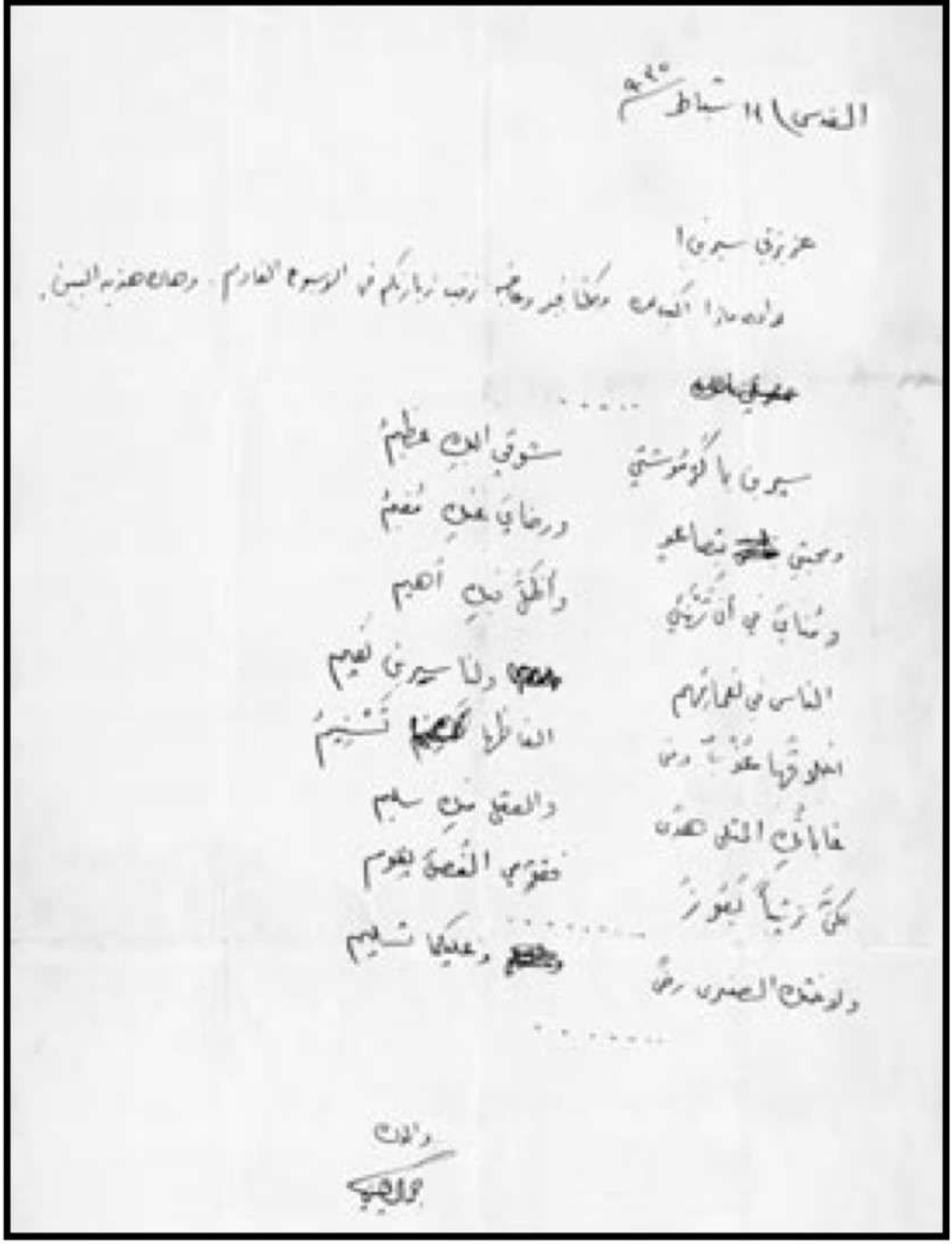

عزيزتي سيرين!

سيرين يا كوكوشتي

شوقي إليك عظيم

القدس ، **1935** .

رسالة جمال الحسيني إلى ابنته سيرين بخط يده يهنئها بالنتائج الممتازة في إمتحاناتها في مدرسة الفرندز .

وخلال تلك الغيابات المتكرِّرة، كان علي أن أضطَّلع بجميع أعباء أمي المنزلية، جارَّةً ورائي إخوتي الصغار - لا بِسبب أن أحداً قد طلب مني ذلك، فالجميع كانوا منشغلين بالمظاهرات. وعندما رجعت أمي بعد يوم طويل من الاجتماعات والمظاهرات، طَمأَنْتُها: كل شيء كان على ما يُرام في البيت.

لَطَالَما حاولتُ أن أَلعب دور الراشدين، لكنني كنتُ مضطربة وقَلِقة. هل صحيح أن والدي سيكون عما قريب، هو المعتقَل الجديد؟ هل صحيح أن أبناء عمي الذين كنت معجبةً بهم، هم في خطر؟ هل من الممكن أن يهتزَّ عالمنا الصغير إلى تلك الدرجة؟

كل يوم، بعد الغدَاء، كانت حياة البيت تتوقَّف: ذلك أنَّ أبي كان يستريح.

وكان قلبي يقفز باتجاهه عندما أراه ممدّداً على الظهر، محاولاً أن يسترخي.

لقد أسرَّ لي بأَنه مدرّب على اليوغا وعلى الاسترخاء. ونظراً لصحته الهشَّة، كان غالباً ما يستشير الكتب المتصلة بهذه المسائل ثم يعمد إلى تطبيق قراءاته.

وأنا متأكدة من أن هذه العادة قد ساعدته، لأن يُعمِّر إلى سن التسعين!

بينما كان والدي يَقْضي قيلولته، كنت أراقب عن قرب، أخي وأخواتي وأنا على استعداد لمعاقبة أول مَن سيُحدث أدنى ضوضاء. وغالباً ما كنتُ، وأنا متابعة لهم ببصري، أجلس في الفيراندا لأقرأ

القدس ، 1934 .

سيرين مع أخيها حسن وأخواتها الثلاث ، ملك ، هاله وجمانه .

الكتب التي كنتُ أستعيرها من جمعية النساء العربيات التي كنت مشتركة فيها .

ذات ظهيرة ، بينما كنت أطالع في كتاب ، خرجت أختي هالة من المنزل وهي تصفق بيديها لتعلن لي نَبأً مُنغَّماً . وتبعتها جمانة ، الأصغر ، بِعينيها الذكيتين الوسيعتيْن وهي تحاول فَهْمَ معنى تلك الضوضاء . قفزت واقفة مستعدّة لِتأنيب أختيّ ؛ لكن كلمات هالة أوقفت اندفاعتي :

" لقد مات ! مات ! مات ! " كانت تُرتِّل كلامها .

ـ مَن هو؟ سألتُها وقد انقطع نفَسي .

ـ أبي ، أبي ، أبي " .

سارعتُ إلى غرفة والدي فَرَأيتُه في وِضْعَةِ اليوغا . بالنسبة لهالة التي لم تتجاوز أربع سنوات ، كان موتُ والدنا يتلخص في إنهاء قيلولتنا الإجبارية !

في تلك الفترة ، كان عمر ملك ستّ أو سبع سنوات ؛ وكان ذلك يسمح لها بأن تُتابع أخبار الخُطب و المظاهرات التي تجري في الشوارع ، وكان يروق لها أن تنقل كل تلك النشاطات إلى داخل البيت . كان مدخل بيتنا واسعاً وطويلاً ويشتمل على أريكتيْن موضوعتيْن على الجداريْن المتقابليْن ؛ وفوقهما عُلقِّت صور الشخصيات السياسية العربية المشهورة ، إلى جنْب صوَر العائلة . كان ذلك ديكوراً مثالياً بالنسبة لملك . كانت تجمع أخواتي الصغيرات والخادمات وتظل تقفز بين الأَريكتيْن وهي تُلقي خطباً نارية ، رافعة ذراعها نحو الصور

الفوتوغرافية، زاعمةً أن تلك الشخصيات البارزة موجودة في القاعة معها و تشارك في المظاهرة!

كانت خُطبها تُقَاطع حتماً بقهقهات الضحك وبصياح جمهورها، لأنها كثيراً ما كانت، وهي مُستَثارة، تتلعثم و ينتهي عرضها بِتَلَجْلُجٍ غير مفهوم ومصحوب بإشارات خارجة عن المألوف.

كان عُمْر حسن، وهو الولد الوحيد بين شقيقاته البنات، تسع أو عشر سنوات. وكان هو المفضَّل عند رجال الأمن المستقرين في الحديقة. وبالفعل كانت الأوضاع في البلاد تُحتّم على والدي أن يُحيط نفسه بِحُرّاس خاصين؛ فكانوا، عندما تسمح لهم التزاماتهم، يلعبون عن طواعية مع حسن الذي كان يعتبر بطبيعة الحال أَن مكانه هو مع الرجال خارج البيت، وليس معنا نحن النساء في الداخل.

بينما كانت ملَك تُلقي خُطَبها العصماء من فوق الأَريكتيْن، كان حسن يَخْطُر مرتديا لباس المعركة المتمثِّل في خُوذة وبندقية يتقلَّدها. وكانت الخوذة من صُنع الحراس الذين استعملوا القَصَعَات التي تُقدَّم فيها الوجبات إليهم. أما بالنسبة للبندقية، فقد التقطوا قطعة خشب من الحديقة وسفُّودا من المطبخ وأضافوا إليهما سلكاً مطاطاً لِيَرُصُّوا الكُلَّ على كِتف حسن. كانوا مستعدين لكل شيء في سبيل إرضاء الولد الوحيد في العائلة.

غير أن حسن لم يكن يكتفي بتلك الألعاب الصغيرة. فقد أسهم، مع أولاد الجيران، في شَلِّ حركة السيارات في الشوارع. ذلك أن السيارات

الوحيدة التي ظلّت تسير، كانت هي سيارات الجنود البريطانيين التي تجوب المدينة.

وقد شارك الأولاد في الثورة من خلال بَثِّهم في الأَزقة مسامير صغيرة كانوا يُخبئونها داخل جيوبهم، ثاقبين بذلك جميع دواليب السيارات التي كانت تمرّ.

ذات صباح، و أنا أنظر من نافذة بيتنا، رأيتُ جارتنا الستّ إيلين تجري في الشارع مذعورةً كما يبدو بوضوح. كانت امرأة شابّة جميلة صارت تجمعنا بها صداقة هي وزوجها ووالدتها.

جريتُ إلى أَقصى الحديقة لأَطّلع على ما يجري؛ فلمحتُ في الشارع، عند الأسفل جنديين بريطانيين عريضَيْ المناكب، يَجُران طفلاً صغيراً ماسكيْن إِياه بإِحكام. كان هو حسن. كان يمشي مرفوع الرأس إلاّ أنه كان يُدير عينيْه خِلسةً نحو البيت ليتأكد من أن أحداً قد رآه.

وقبل أن أتمكّن من التلفُّظ بشيء، هجمت الستّ إِيلين عليهما واحتضنتْ حسن بين ذراعيْها صائحة:

" إنه ابني، ابني، ابني!".

أطلق الجنديان سراح حسن، سعيدَيْن ولا شك بإِرجاعه إلى أمه المفترضة وتجنُّب عِبْءِ قيادته إلى مركز الشرطة.

***

ساميَ الأنصاري

كان صيفُ **1936** فترةً، بِوجهٍ خاص، قابضةً لنفسي: كنتُ أُحسُّني مُقْصاةً، مُستبعدة عن الأحداث التي كانت تجري من حولي. كنتُ جدّ صغيرة عن المشاركة في نشاطات الراشدين السياسية، وجدّ كبيرة عن أن أُعجَب بِهزليات أخواتي. ولم يكن بِوُسعي الخروج مع حسن والأولاد الآخرين لتفجير دواليب سيارات مُكسِّري الإضراب. وعندما لم أكن أراقب أخواتي الصغيرات أو لا أساعد في الأشغال المنزلية، كنت أمضي وقتي في القراءة وسَرَدِ الصوف. وقد أحسستُ بِالفَخْرِ يومَ طلبتْ مني أمي أن أساعد المنظّمة النسائية التي كانت تجمع النقود عن طريق تَدبيس أزهار الربيع البيضاء على ثنيَّة سترات المارَّة. لكنني لم تكن لدي فرص كثيرة للمشاركة في مثل تلك العمليات.

في تلك الفترة، وقعت حادثة أثارت انفعالاتي بِعمق. لقد كان سامي الأنصاري ابن خالي وجاري في نفس الآن؛ وشقيق صديقي العزيز عادل، ابن خالي المعروف لديكم لأنه هو مَن كان معي عندما حرقنا الخيمة. كنّا نلعب دائماً في حديقة بيتنا بالقدس خلال النهارات السعيدة الخالية من الهموم قبل سنة **1936** و إعلان الإضراب. . . .

كان بالإمكان، انطلاقاً من نوافذ أحد جوانب بيتنا في المُصْرارة، أن نُبصر في الأسفل ووراء سور المدينة، المسجد الأقصى. وعلى الجوانب الثلاثة الأخرى، كانت تمتد أرضُ الجاليات الفرنسية والإيطالية والروسية. ومن غير المستبعَد، أنَّه في بداية القرن الماضي، حين أَراد جدّي العلمي مغادرة المدينة القديمة التي توسعتْ واكتظّت بالسكان أكثر من اللاّزم في نظره، قد بحث عن مكان تكون فيه عائلته في أمان، وأنه عثر على هذا الحيّ حيث يَتجاور العديد من الطقوس والجِنْسيات.

ولا شك أن زوج أخته الشيخ إبراهيم الأنصاري، قد كانت له نفس الفكرة. وبالفعل، فإن الرجليْن قد شيَّدا لعائلتيْهما مساكن تمتدُّ من المصرارة نحو الحي الروسي عند قمَّة التلّ. وهكذا تحقَّقتْ فرحتي الكبرى بِسَكَنِ أبنائه سامي، وعادل وكمال إلى جَنْب بيتنا. وكانوا قد فقدوا أمهم قبل ذلك بسنوات، فَرَبَّاهُم أبوهم وأختهم الكبرى فاطمة. على هذا النحو، صار الحي بِأكمله ساحة لِلَعِبنا، فكنا نتنقل، حسب هوانا، من حديقة لأخرى.

كان عُمْر عادل من عمري ولذلك كان صديقي الأفضل. وكنَّا مُعجبيْن بسامي الذي كان يكبرنا ببضع سنين؛ وكنا نعامل كمال الأصغر بِتَعَالٍ ولا نكفُّ عن إصدار أوامرنا إليه. بعد موت جدّي ونشوب حريق الخيمة الشهير، أرسلونا، أنا وأبناء عمّي إلى مدارس مختلفة؛ فلم نَعُد نلتقي سوى في العُطَل. سعداءَ بلقائنا، كنا نتبادل بشغفٍ التجارب التي قمنا بها، والتعليقات الهزلية حول ما كن يقع داخل كلٍّ من عائلتينا.

شرافات ، **1920** .
الشيخ إبراهيم الأنصاري خال سيرين مع والدة جدتها السيدة أسماء غنيم الأنصاري .

على هذه الشاكلة، كانت طفولتنا تمضي ثريَّةً بِالمسرَّات. إلاَّ أن هذا العالم الرائق سرعان ما تَهَاوَى.

خلال صيف **1936**، أصبحتْ أُذناي متعودتيْن على اسم الشرطي الأنجليزي سيكريت من كثرة ما كان يتردَّد في أرجاء الشارع. وقد اشتهر سيكريت نتيجة للخشونة التي كان يعامل بها الأسرى السياسيين العرب. كان يَذْرَعُ المدينةَ على متن سيارته المصفَّحة، غير متردّد في أن يضرب المتظاهرين بِخَيزُرانته ضرباً عنيفاً إلى درجة أنه كان، أحياناً، يكسّر أذرعة بعض المتظاهرين. لكن ما كان يريد كسره، قبل كل شيء هو كرامة شعبنا و كبرياؤه.

في الأثناء، كان أبناء خالي الشيخ الأنصاري قد كبروا؛ وبالأخص سامي الذي غدَا شاباً فاتناً. كان يبدو جدَّ متحفِّظ معي، مُديراً عينيْه الزرقاويْن في كل مرّة كانت نظرته تتقاطع مع نظرتي. وكان أبوه وأخته الكبرى جدّ فخوريْن به، فكان يشغل، على ما يبدو، مكانة خاصة، داخل أسرته. كنتُ كثيراً ما أسمع جدّتي، وهي عمَّته، تُكلمه من شُرفة لشُرفة لتُحذّره من المخاطر المترصِّدة للناس. وكانت تنصحه بالأخص، أن يكون مُحترساً وهو في طريقه إلى المدرسة. وكان جوابه لا يتغير أبداً: ما هو إلا طالب حريص على النجاح في اللغة الأنجليزية ليلتحق بالجامعة التي هي حجر الأساس في تكوينه. كثيراً ما صادفتُ هذا الحوار بينهما، ما جعلني أَقتنع بأن الانشغال بِالدروس هو ما جعلنا لا نرى كثيراً سامي، على مرِّ الأيام.

استمرتْ أَوضاع فلسطين في التدهور. وأخيراً تكوَّن وفد يمثّل مجموع الأحزاب، يتوجّه إلى لندن للاجتماع بالحكومة البريطانية بحثاً عن حل للأزمة. وكان أبي عضواً في ذلك الوفد. عشيّةَ سفره، جاء آل الأنصاري لتوديعه، وكان سامي معهم، وهو ما يعني ولا شك زيارته الأولى باعتباره راشداً.

بمجرد ما جلس الضيوف والمضيفون، انطلق سامي قائلاً:

" يا عمِّي جمال، لقد شَبِعنا من سياستك. اذهب إلى لندن وحاولْ أن تتفاوض. أما نحن، فسنحاول أن نفعل شيئا هنا على أرض فلسطين".

مُشوَّشَ الخاطر، اصفرَّ وجهُ أَبي ثم سأله وقد علتْ شفتيْه ابتسامة مُغْتَصَبَة:

"ومَنْ هم هؤلاء ال" نحن" ؟"

بنفس الاصفرار الذي علا وجه أبي، أجاب سامي بطريقة متمرّدة:

" شباب هذه البلاد!".

انفضَّ الاجتماع العائلي بسرعة وسط الارتباك العام. وكان والدا سامي مُفاجأيْن و محرجيْن، وقد لاحظا انفعال أُمي الواضح فقدَّما له، وهما يستأْذنان في الانصراف، كل تمنياتهما بنجاح أبي في مهمته.

سافر الوفد، في الغد، إلى لندن. وقد ظل هذا السفر الحزين مسّجلاً إلى الأبد في ذّاكرة والدي. كان يتابع أَخبار فلسطين في الصحافة المصرية وهو فوق جسر الباخرة التي أقلعت

مــن ميناء الإسكندرية حيث كانت قد رَسَتْ بضع ساعات لاستقبال ركّابٍ جدد.

بدأت الجمعة التي أَعقبتْ سفر أبي من القدس، تحت ظلال مشؤومة. فَعند اقتراب صلاة الظهر، تَعَاظَم وجود رجال الشرطة البريطانية في الشوارع؛ وغَدَا المناخ مُثقلاً بالغضب. وكانت ملامح الرجال والنساء الذين يجتازون قضبان المسجد الأقصى، تنمُّ عن قلقهم وحزنهم.

في ذلك اليوم كان الشرطيّ سيكريست حاضراً في كل مكان، يراقب الشوارع المؤدية إلى المسجد. وفجأة، عند منعطف أحد الأزقة، وثَب شاب على سيارة سيكريست وأطلق النار عن قُرب؛ وقد ردَّ حُراسه المرافقون مباشرة.

نَجا سيكريست، واستُشْهد سامي.

***

بيسان

لم تكن جميع ذكرياتي عن تلك الفترة بِمِثْلِ هذه المأْسوية؛ فَبعضُها إلى اليوم، وبعد مرور كل تلك السنوات، ما يزال يحمل البسمةَ إلى قلبي.

ذات يوم، قُبَيْل المغرب في القدس، طلب مني والدي أَن أذهب عند خالي موسى لأسأله إذا كانت لديه الرّغبة في قضاء السهرة معنا هو وعائلته. كان أبي قد عاد لِتوِّه من بيسان وهي مدينة كنتُ قد رأيتُها على الخارطة المعلَّقة بفصلنا الدراسي؛ إلاّ أنني لم أكن قد زرتُها بعد. وكان أبي وخالي موسى يملكان بها ضيْعة مشتركة. وقد علمتُ فيما بعد، أنه كان لهما شريك في تلك الضيعة هو شبلي الجمَل المقْدِسي هو الآخر، صديق وحليف سياسي.

كنّا نعيش في الطبقة السُّفْلية لمنزل مُكوَّن من طابق، فكانت جدّتي وخالي موسى وزوجته يسكنون فوقنا في الطابق العلوي. وكان السلَّم الواصل بين المستوييْن هو بمثابة طريق للاتّصال، وكنتُ بصفتي البنت الأكبر أتولَّى عن جدارة الوساطة وإبلاغ الرسائل. كنت أَنتظر سنتي

العاشرة بنفاد صبرٍ كبير، سعيدةً بأن أَكبُر وأن ألتحق عما قريب بفئة الكبار. وكنت أحبّ الصعود إلى الطَّابق الفوقي حيث لا تتأخر جدَّتي عن تَدْليلي. كنت ألعب مع خالي موسى وأُعْجَبُ بأناقة زوجته الفاتنة. لم يكن لهما أولاد، فكنت دائماً أُلاقي التّرحاب. وكان دور المبعوثة هذا يعطيني الامتياز الاستثنائي بأن أعرف أَخبار ما يجري في المنزليْن.

كانت الاجتماعات العائلية الأكثر أهمية تُعقَد عادة في منزل خالي موسى تجنُّباً لصراخ وألعاب الأطفال المزعجة للكبار. وفضلاً عن ذلك، فإن جدّتي أشرفت على تكوين طبّاخ ممتاز غدا واحداً من العائلة و قادراً دائماً على تقديم أطباق لذيذة؛ وكان اسمه هو أبو العزّ.

ذلك المساء، إذن، عند تناول القهوة، اقترح والدي على الخال موسى أن يُطوِّرا ضيْعتهما في بيسان. وأخذ يحدّثه عن أشجار الفواكه المكتظَّة بالشمس وعن ظلال أشجار السَّرو الفارعة. ومن خلال الاستماع إليه كانت بيسان تبدو جنَّة حقيقية. كان يشرح بأن مردودية المشروع مضمونة وأن فَواكِهَهَا ستغمر السوق لأن نعومة فصول شِتاءاتنا ستُعطينا امتيازاً كبيراً قياساً إلى أوروبا حيث تكون تلك الفصول قارسة البَرد. وأضاف بأن إنتاجنا سيكون وفيراً لدرجة أن سِلَلَ شَحْنِ الفواكه إلى الخارج ستنقصنا. وتابع كلامه: على أن الطلبات ستكون كثيرة وهو ما يستدعي ولا شك التفكير في امتلاك باخرة لِنَقْل بضاعتنا، بل وربما باخرتيْن، إحداهما تغادر ميناء يافا محمَّلة بالفواكه في اتّجاه

الأسواق الأوروبية، بينما الأخرى تكون عائدة، فارغة: "شِي رايح شي جايْ" !

لكن القصور التي شيَّدها أبي في إسبانيا سرعان ما هدمها برشاقة وسرعة خالي موسى الذي انفجر ضاحكاً عند سماع الاقتراح. كان الرجلان يتفاهمان بطريقة عجيبة. كانا يتّفقان على أشياء كثيرة ويتقاسمان نفس المثُل العليا، إلاّ أنه لا يمكن أن يتخيَّل المرءُ مزاجيْن أكثر تعارضاً من مزاجيْهما. كان أبي متفائلاً وحالماً لا يَرْعَوِي، بينما كان صهره موسى مُتشائماً لا ينثني عَن تشاؤمه. وخلال مناقشاتهما المتواترة، كان حسُّ الدعابة الذي يجمعهما يجعل من اختلافهما مسرَّةً لِمَنْ يستمع إليهما.

بعد تلك المناقشة التي انتهت بموافقة الخال موسى على مشاريع والدي، لم نحتفظ أنا وأخواتي وأخي، في ذاكراتنا بِسِوى الأشجار. كنّا نتابع، في خيالنا، مُنحنيات نموّها سنتيمتراً بعد سنتيمتر. وكنّا سعداء أيضاً بِثروتنا الوشيكة.

ذات يوم، دَعُونَا إلى زيارة الضَّيعة التي تركتْ لدينا انطباعاً لا ينسى. ووجَدْنا أن الوصف الفردوسي الذي قدَّمه أبي هو مطابق تماماً للواقع. وبمجرد وصولنا، سَارَعْنا إلى التَّشبُّع بالصُّوَر الغزيرة والعطور المُسْكِرة لذلك الفضاء، مُستحسنين أشجار السَّرْو المهيبة وأشجار البرتقال واللّيمون الهندي المحمَّلة بِفواكه تُعلن جميع تلاوين الأَصفر

والبُرتقالي ، والنهر المُلتَمع الذي كان يَنْساب على مَقْرُبةٍ من هناك . واكْتَملتْ سعادتنا ونحن نكتشف وجود حصانٍ تَعَاقَبْنا على صهوته لزيارة الضيعة .

جاء العامُ 1936 .

ولما كان أبي والعمّ موسى منشغليْن مباشرة بالثورة مثلهما مثل شبلي الجمل ، فإن الرّاهن السياسي أخذ أهمية كبيرة إلى درجة أن بيسان امّحت من الأذهان في بيتنا ، فلم نَعُد نفكر فيها .

ومن أَسَفٍ أن الضيعة فرضت نفسها على ذاكرتنا لأن محصولها بدأ ينضج إبَّانَ أَوْج الإضراب . وإذا كان الكبار قد انْشغل بَالُهم بهذا التّصادُف المؤسف ، فإنهم لم يكونوا مستعدين للإفصاح عن القلق الذي يُولِّده لَديهم ذلك الإشكال الثانوي المتَّصل بالحياة الخاصة .

مع ذلك ، ذات يوم ، عرفت الأزمة الوطنية توقُّفاً مؤقتاً ، فسمعتُ أبي يخاطب خالي :

" تعرف يا موسى أن الفواكه يمكن أن تبقى فوق الأشجار أياماً أخرى . وخلال الأسبوع المقبل عندما ينتهي الإضراب ، ستكون الغَلَّة في تمام نُضجها جاهزة لأن تُرسَل . أَلا تظن معي ذلك؟ " سأله أبي محاولاً أن يطمئن . أجابه خالي موسى بابتسامة مُتشكِّكة .

مرَّ أسبوع والإضراب مستمر، وبقيت الفواكه فوق الأشجار. ومرَّ أسبوع ثانٍ وثالث ورابع، والإضراب لا يتوقف. أخذت البرتقالات تتساقط واحدة بعد الأخرى مثقلة بِعصيرها، ومثلها حبَّات الليمون الهندي. وتَلافِياً لخسارة مجموع المحصول، تمَّ الاتفاق مع عمّال ليحفروا خنادق تُخزَّن فيها الغِلال المتساقطة، على أمل أن تحول طراوةُ التراب دون تعفُّنها.

متفائلاً دائماً، انتهز والدي فترة هدوء جديدة ليتخيَّل حلاً لمشكلة بيسان التي أصبحت ملحة أكثر فأكثر. قال لخالي موسى:

"ما دام الإضراب مستمراً، والوضع في مأزق، لماذا لا نزرع خُضراً بين الأشجار؟ على الأقل نستطيع بيع الخضر في السوق المحلية فنغطي قسطاً من النفقات التي صرفناها على أشجار الفواكه!"

في تلك اللحظة كان الشركاء الثلاثة الذين يتحملون جميعهم مسؤوليات عمومية جسيمة، قد استنفدوا قُوَاهُم؛ وعندئذ قَبِل شريكا والدي اقتِرَاحَهُ وهما يُقران بأن الرهان مُجازفة، لكن لم يكن هناك حلّ آخر.

وإذن فقد زُرِع الباذنجان عند أَقدام أشجار الفواكه النّبيلة؛ ونضج الباذنجان والإضراب مستمراً ما يزال. عندئذ، اشتعلت مخيِّلة أبي الخصبة العنيدة في تفاؤلها، لتجِد مشروعاً آخر. صاح ذات صباح:

" المخلَّل! الباذنجان نصنع منه مخلّلاً جيداً ولن نقلق بسبب نُضجها. فالمخلّل سينتظر بِلُطفٍ داخل الخَلّ إلى أن نجد الوقت للاهتمام به!"

وعندئذ سُئِلَ عن كيفية تحضير المخلّل في الضيعة، وعمَّن سيتولّى ذلك، أجاب بلهجة منتصرة لا تخلو من ارتباك: " أبو العزّ! "؛ ثم اعتذر لجدتي عن المضايقات التي سيُسبِّبها مشروعه، مضيفاً:

"لكن هل لديكم حلّ آخر؟ ".

التحق، إذن، أبو العز بِبيسان وسكن مع زوجته في البيت العائلي الصغير.

مرَّ زمنٌ، ونضج الباذنجان والإضراب مستمر دائماً. تمَّ شراء مئات العُلب من حديد أبيض، ووُضِعت داخلها بِعناية الباذنجانات المعلَّبة. وبمجرد الانتهاء من هذا العمل، ظهرت مشكلة أخرى: أين تُخزَّن العُلب؟

مرة أخرى وجد الوالد حلاً. سأل خالي موسى:

" لماذا لا نضعها في قَبْو بيتنا، هنا بالقدس؟ إنه مكان جدّ مناسب

- لكن القبو مملوء بِكتب والدي، اعترض صهره.

- ليس ذلك مشكلاً، أجاب أبي بِوثوق. سنصُفُّ الكتب في زاوية وسيبقى هناك مكان كَافٍ للباذنجان؛ فالقَبْو جد واسع! "

وافق الخال موسى مُرغماً ونقل كتب والده إلى ركنٍ داخل القبو. ويتعلق الأمر، في الجزء الأكبر، بِنُسخ من دليل للقرآن كان جدّ والدتي فيْضي العلمي قد أنجزه قبل نصف قرن من ذلك التاريخ.

وعنوان الدليل "فَتْح الرحمن" وقد لقي استقبالاً حسناً في العالم العربي وأصبح مرجعاً مطلوباً. في عُجالة، إذن، نُقِلت المعلَّبات إلى القدس ووُضعت في القبو، وأخذت المخلَّلات تَخْتَمر إلى جنْب دليل القرآن الجليل الذي أَلفه جدّي.

استمر الإضراب الذي سيغدو، بعد ذلك، أحد الأحداث الأساسية في تاريخ فلسطين الحديثة. وكان المخلّل يتخمّر داخل قَبْونا.

كان خالي جالساً في مكتبه، ذات يوم بعد الظهر، مفكراً في الوضع المنفجر السائد في البلاد؛ وكانت الأطراف المتصارعة متهيِّجة والتوتر يتفاقم يومياً بقدر ما تستفحل الأزمة. ولم يكن هناك حلٌّ يبدو في الأفق. وقَادَتْه تأملاته إلى النزول إلى القبو ليرى ما إذا كنّا سنستطيع اللجوء إليه احتمالاً. وكان القبو، مثل مجموع أجزاء البيت، مشيداً من الحجر المقصوب. وكان من المؤكّد أننا سنجد فيه الأمان؛ إلاَّ أن الخال موسى أراد أن يتأكّد من ذلك.

نزل الدرج ببطء وأدار المفتاح الكبير الحديدي في الباب الضخمة ودخل القبو. تقدَّم بخطوة ومن أعلى الدرجيْن اللذيْن يفصلانه عن الأرض، خفض بصره. خلال لحظة، أَغْرَقَهُ المشهد في اللاّفَهْم

المطلق ، لكنه سرعان ما تسمَّر في مكانه مُرتَعِباً : كانت الباذنجانات وكتب والده تتخبَّط داخل العصير المخلَّل وكأنها أطفال هائجون داخل حوْض سباحة ! ذلك أن المعلَّبات قد انفجرت واضعة حدّاً نهائياً لجميع أحلامنا المتصلة بِبيسان .

في العام **1948** ، استولى الإسرائيليون على الناحية ودَكُّوا بيسان . وفي تلك السنة كنا نحن في المنفى بعيداً عن فلسطين . ومُدَاراةً لِحزننا ، كنا نحكي لِبَعْضنا حكاية الباخرتيْن اللّتين كان والدي المتفائل يفكر في تشييدهما لِنقل محصول الفواكه من بيسان . كان يكفينا ، أحياناً ، لمعاودة الابتسام ، أن نتلفَّظ العبارة السحرية : " شِي رايح ، شي جايْ . شي رايح شي جايْ" .

***

التعرّف على عابد

أول مرة سمعتُ فيها قصة عائشة " أمّ عابد" ، كانت خلال ثورة **1936** . كانت عائشة مُنحدرة من قرية صغيرة بالقرب من البيرة ، غير بعيد عن القدس . وعندما توفي زوجها ، نجحت في أن تُدبِّر حاجاتها وحاجات ابنها الوحيد عابد : كانت تحرث أرضها وتَحمل خُضرها إلى سوق المدينة القديمة حيث تبيعها بسعر جيّد . ولما كانت القدس غير بعيدة كثيراً ، فإنها كانت تتوجّه إليها باكراً في الصباح لتتمكّن من العودة عند أول ما بعد الظهر وتهتّم بمنزلها وابنها .

استطاعت أن تبعثه إلى المدرسة عدَّة سنوات إلى أن بلغ سنّاً تسمح له بالعمل في قطْع الأشجار ، مثل معظم رجال المنطقة ، قاطعاً وناحتاً الصخرة الخشِنة لمقاولات البناء في المدينة .

هكذا كان مستقبل عابد مضموناً ، ولم تعد عائشة مهمومة بمعاشه ومؤونته . إلاَّ أنها تعرَّضت ذات يوم لِتوُّعك غريب جعل الناس يتحدثون فيما بعد ، عن هاجس داخلي فظيع . فهي ، بسبب وضعيتها ، لم تكن تُتابع أحداث السياسة الراهنة . وأمام مشهد الحشود المتظاهرة في شوارع القدس ، كانت تظن أول الأمر ، بواحدة من تلك الحفلات السنوية التي يجتمع بمناسبتها الناس ، ليغنّوا ويرقصوا وينتقَّلوا في

طواف من مكان مقدس إلى آخر. ولم تكن المعابد والمزارات قليلة في القدس، وقلّما كان يمرّ يوم بدون أن تكون هناك مناسبة دينية مُبجَّلة تستدعي الاحتفال، ليس فقط الحفلات الإسلامية التي كانت عائشة تعرفها، بل وأيضاً المناسبات اليهودية و المسيحية.

لكنها سرعان ما تنبَّهت إلى أن تلك الحشود كان ينقصها الفرح والحماس الديني؛ إذ كان يصدر عنها هَمْهَماتٌ مليئة بالغضب والتهديد.

في القرية، كان الرجال يجتمعون دائماً عند "المختار" بعد العشاء. الآن، بدلا من الإنصات إلى الحكواتي أو المغني المصاحب للرَّباب، كانوا يتناقشون برصانةٍ وبصوت منخفض. وكان عابد ينضمّ أحياناً إليهم. وكانت، في البدء، تسأله عن وِجْهته، ثم توقفت عن استفساره لأن أجوبته كانت مسرفة في الغموض.

ولم يكن ذلك يقلقها، فهو بعد كل شيء، رجل الآن ومن حقه أن يعيش حياته وأن تكون له أَسراره.

وقد حدث، مرةً أو مرتيْن، أن صادفتْ محادثات عن اليهود والعرب والجيش، إلاَّ أنها لم تُعِر اهتماماً كبيراً لذلك؛ فاليهود كانوا جيرانهم حتّى وإنْ لم يكونوا يسكنون نفس القرية.

ذات مساء، لاحظتْ أن مختار القرية يستقبل مدعوِّين على العشاء، لكنها لم تفهم دلالة غطاء الانفعال الصامت الذي كان يخيّم على القرية. وعندما انصرف الزائرون الغامضون، رأت أن المختار كان يزوِّدهم بفواكه حملوها معهم. وانتبهت، عندئذ، إلى أن ابنها كان يوجد من بينهم.

في صباح الغد، سمعت حديثاً عن اصطدامات بين العرب واليهود. مظاهرات؟ مناوشات ومُجابهات؟

وهؤلاء الزوّار اللّيليون الذين رافَقَهم ابنها؟ أدركت فجأة أنَّ حرباً تَنْشُب وأن ابنها هو مِن بين المقاتلين.

" يا الله! أتضرّع إليك أن تحميه!"

سيحميه وكل الآخرين معه. أليس لكل هؤلاء الشبَّان أُمهات؟ إن الله سيستجيب لدعواتهن.

وبينما كانت المظاهرات والاشتباكات مستمرة في القدس، والكفاح المسلّح يحصد الأرواح أكثر فأكثر، عمدت الحكومة البريطانية إلى فَرْض القانون العرفي، العسكري مستجيبة للاحتياطات الخشِنة لِانْتدابها. وكل منزل يُعثَر فيه على أسلحة، ولو سِكّين من بِضع سَنْتمترات، سَيُدَّك وتُعاقب القرية بأَكملِها.

كان لَهَبُ الثورة يشتعل بسرعة عبر المدن والأرياف. وكانت السلطة البريطانية تضاعف من طغيانها كل يوم. وقد فُجِّرتْ منازل عديدة ومُحيتْ من الخريطة قرى كثيرة.

في أحد الأيام، حدثت مواجهة بين الجيش البريطاني ومقاتلين فلسطينيين غير بعيد عن قرية عائشة. أخبرها جيرانها بأن البريطانيين تكبَّدوا خسائر وبأن فلسطينياً قد قُتل. وكما جرت العادة، حمل الجنود الأنجليزيون جثّة القتيل إلى القرية الأقرب ليتمّ التعرُّف عليها. وهذا ما كان يتيح لهم معرفة المنزل الذي عليهم أن يهدموه والقريةَ التي سيُنكّلون بها.

وصلوا إلى قريتها وأرغموا جميع السكان على الخروج من المنازل وأن يمروا، واحداً واحداً، أمام جثة الشّاب لِيتفحَّصوا وجهه ويتعرفوا عليه. وقفت عائشة في الصفّ مع الآخرين. كانت تنظر حولها وقلبها يفيض شفقة على تلك التي ستكتشف ابنها ميِّتاً مسجىً على الأرض. وبينما كان الرجال يمرون أمامها، كان بعضهم يلتفتون نحوها. ألقت نظرة من حولها وهي مشفقة على الأم والشاب والقرية.

أخيراً، جاء دورها. خفضتْ بصرها وتعرفَّت على جثة ولدها عابد، مُسجىً، ميِّتا، أمامها. ارتجافاتُ جسدها نبَّهت الجنود. تَرنَّحْت، تمايلت ثم تركت نفسها تتهاوَى إلى جنْب ولدها.

" كَلْبة ! صاح الجنود. إذن، هو ابنك !

- ابني ؟ تَمْتَمْت. من قال إنه ابني؟ إنه ابن كل الأمَّهات. إنني أبكي على شبابه الضائع، وأبكي من أجل أمّه! من أجل كل الأمهات! لهذا السبب أنا أَبكي ! "

فَلتتْ من بين أيديهم، وأنقذت قريتها من الهدم. عادت إلى بيتها دافنةً حزنها في أعماقها بدون شكاةٍ، بينما كان الجنود البريطانيون يحملون جثة ولدها ليدفنوه وحيداً، بعيداً عنها.

طافتْ قصةُ عائشة أرجاء فلسطين. وعند سماع هذه القصة، يحرّك الناس رؤوسهم صامتين من شدّة الإعجاب بشجاعتها ورباطة جأْشها.

***

منفى

في يوم من خريف **1936**، كنتُ جالسة وحيدة في فراندا منزلنا بالقدس. وكان الزمن يبدو متوقّفاً على رغم التوتّر السائد في المدينة والمواجهات العنيفة أكثر فأكثر مع حكومة الانتداب. كان أبي في أريحا للاهتمام ببساتين الموز وأيضاً ليزرع الشك عند البريطانيين حول مكان إقامته. وكانت أمي القَلِقَة باستمرار، داخل البيت. أما إخوتي فقدّ ذهبوا عند الجيران، بينما كنت أنا أقرأ روايةً، مستمتعةً بالصمت الجميل لتلك اللحظات.

كان الغَسَق يقترب عندما سمعتُ، من الجانب الآخر للجدار، خطواتٍ مستعجلة تقترب خِلسةً من مدخل المنزل. رجل طويل القامة، متدثّر بمِشْمَل، تسلّق الدرجات الثلاثة وطلبَ مقابلةَ أبي جمال الحسيْني. أجَبْتُه بأنه غير موجود. ألّحَّ، فردَدْتُ عليه بنفس الجواب. كنتُ ما أزال صغيرة، إلاَّ أنني كنتُ أعرف أنه يتوجَّب عليَّ حماية أبي، وكنت فخورةً بِصلابتي.

عندئذ أَلقى الرجل عليَّ نظرةً قاسية وقال بصوت واضح وحاسم: " اسمعيني جيداً. قولي له، إذا استطعتِ، ألاَّ ينام الليلةَ في بيته! ".

ورحل الغريب بنفس السرعة التي جاء بها، فأسرعت لأُخبر أمي.

عند هبوط الليل، وصل أبي. كان يبدو متعباً، ومسروراً بعودته أخيراً. نَقَلْنا إليه رسالة الرجل الغريب، لكنه لم يُرِدْ أن يأخذها في الاعتبار. كان قد مضى على ذهابه إلى أريحا ثلاثة أيام، وكان يرغب في أن يستريح وأن يستمتع قليلاً بِرَغْدِ العيش. لم يَعُد يطيق التخفّي فرفض مغادرة البيت مهما يكن السبب. كانت أُمي في أقصى حالات الغضب وأخذا يتخاصمان.

فقط عندما بدأَتْ تسرد عليه المِحَنَ التي عرَّضَها لها بسبب مسؤولياته السياسية، رأفَ بِحالها وقَبِل أن يغادر البيت. خرج من الباب الخلفي، قافزاً فوق حظيرة القصب التي كانت تفصل حديقتنا عن حديقة الجيران. ارتاحت، عندئذ، أمي قليلاً، خاصة وأَنها قد علمت بعودة أخيها موسى العلمي في نفس اليوم من سفرٍ إلى الخارج.

عند فَجْر الغد، طُرِقَ الباب. خرجتُ من غرفتي جارية، فرأيتُ أمي تفتح لمجموعة من الجنود البريطانيين. كان رواق الدّار أَدنى قليلاً من مستوى العتبَة، فكان الجنود يحجبون أمي بقاماتهم ويخفون السماء الصباحية أيضاً. رفعتْ نحوهم بصرها، هادئة رابطة الجأش. أبداً لم تكن عيناها الزرقاوتين الجميلتان بمِثْل ذلك البريق.

قال لها الضابط الأعلى رتبةً بأَدب إنهم تلقّوا الأمر باعتقال السيد جمال الحسيني. أَكدت لهم أمي أنه لم يكن في البيت. استفسر الضابط عن المكان الذي يوجد به فأجابته بأنها لا تعرف. وعندما أَلحَّ، كرَّرت بأنها تجهل أين يوجد، مُضيفة بِتَحدٍّ أنها، حتى لو كانت تعرف لما أَخْبَرَتْهُم.

جنيف ، سويسرا .
جمال الحسيني وزوجته وحماته أمّ موسى ، مع آل الجابري
وأرسلان في المنفى بجنيف قبيل زواج سعديه وموسى العلمي .

في تلك اللحظة ظهر الخال موسى أمام الباب المواجه الذي كان يقود إلى باحة الدار. كان قد نزل الدرج المؤدي إلى شُقَّته عندما سمع الاهتياج ورأى الجيش يحاصر البيت.

طلب الضابط الإِذن لتفتيش المنزل، فَقَادَتْه أمي من غرفة إلى أخرى، بينما كان الجنود الآخرون يتبعونهما. كان الخال موسى يراقب المشهد، صامتاً. لم يرد، بالأخص، أن يتكلَّف بالتفاوض مع الجيش فيُنقص بذلك من قيمة الوضع الاعتباري لأُخته. كان فخوراً بها وهي تطوف بِبَيْتها مع الجنود، صامتة وقورة ومُتعالية.

كنتُ أتبع الجماعة الصغيرة في ريبةٍ، داخلةً إلى كل غرفة بمجرد خروجهم منها. وكان أخي موجوداً في الغرفة التي يقتسمها معي، فرفع رأسه، عندما رآهم بِتحدٍّ وهو جالس على سريره. لأكون صريحة، أقول بأن كل ذلك الاهتياج قد سرَّني كثيراً، لكنني غيَّرت رأْيي و أنا أدخل إلى غرفة أخواتي الصغيرات وأراهنَّ متجمّدات من الفزع.

انتهى التفتيش، وأعلن الضابط أن جنوده سيبقون في الحديقة وسيراقبون البيت إلى حين صدور أمر جديد. وعندما فتحت أمي الباب لتفسح لهم طريق الخروج، رأينا أن الحديقة كانت تعجُّ بالجنُود.

أَغلقت أمي الباب بِلطفٍ وراءهم، فأسرع إليها أخوها لِيضمَّها إلى صدره! وسرعان ما تفجرَّت دموعها. كل إخوتي خرجوا من أَسرَّتهم ماشين على أصابع أقدامهم وعيونُهم مُحَمْلِقة وهم صامتون.

اجتمعت العائلة في الصالون؛ والتحقتْ بنا جدَّتي وعمَّتي سعدّية آتيتيْن من باب الباحة، بينما انصرفتُ أنا إلى المطبخ لأساعد في تحضير مشروبات ساخنة للجميع.

بعد عودتي من المطبخ، اتَّضح لي أنني أَضعتُ المناقشةَ التي تقرَّر خلالها أن يُسنَد إليَّ دور نَشِط في المأساة التي كانت تُنْسَج خيوطها. كان يتحتَّم إخطار أبي، بأسرع ما يمكن، أنَّ عليه ألاّ يعود إلى البيت. وكان قد أمضى الليلة ولا شك، عند أحد أفراد العائلة. كان عليّ أن أرتدي ملابسي بسرعة، وأن أحمل كُتبي المدرسية وأتظاهر بأنني ذاهبة إلى المدرسة. ثم كان عليّ أن أطوف على أعمامي وخالاتي لأَعثر على أبي وأقصّ عليه ما حدث.

اقتربتُ من المنزل المُثْبَت على رأس اللاّئحة، فرأيت خالتي نزهة تسرع نحوي لتُخبرني بأن أبي كان يوجد عند خالتي أمينة.

جريتُ إلى هناك وبمجرد ما طرقت الباب، انْفتح. خُيِّل إليَّ أن المنزل والحيَّ بأَجمعه كانت لهما عيون تَترصَّد من وراء الستائر.

دخلتُ فقَادوني إلى غرفة وجدتُ بها أبي جالساً على طرف السرير. وكان يبدو أنه لم ينم هناك، وملامحه متعبة. نظر إليَّ بحنان وأخبرني بوقوع كَبْسة أدَّت إلى اعتقال جميع مساعديه. وكان هو الوحيد الذي أَفْلَت، وعليه أن يحتمي بِالسِّرية لفترةٍ من الزمن. وقال لي بأنه سيتَّصل

روديزيا (المعتقل البريطاني)، **1942**.
جمال الحسيني في المعتقل البريطاني مع رفاقه المعتقلين من الهيئة العربيه العليا.

بنا حالَ ما يستطيع . ارتميتُ في أحضانه لأُودّعه فطلب مني أن أهتمَّ بوالدتي .

لم أره بعد ذلك أمداً طويلاً . في نهاية ذلك اليوم ، علمنا بواسطة الراديو ، أن مسؤولين سياسيين آخرين كانوا قد اقْتيدوا إلى باخرة راسية وسط البحر ، وأنهم قد نُفُوا إلى جُزر سيشيل . كنا نجهل مصير والدي . شيء واحد كنا نعرفه : لقد اختفى .

***

بيروت

رحلنا عن القدس بعد أَمد وجيز من اختفاء والدي . لقد كنّا متّفقين دائماً على أن نلتقي جميعاً في بيروت إذا اضطررنا إلى أن نفترق يوماً ونغادر القدس .

وذات صباح في بداية الخريف ، رَحَلنا في سيارتيْن : أمي ووالدتها ، وأخوها وصِهْرها وجميع الأبناء .

استغرق الوصول إلى بيروت ستّ ساعات . وكان هذا السفر الطويل تجربة جديدة علينا نحن الذين لم نذهب إلى أبعد من شرَفات في الصيف ، وأَريحا في الشتاء . تكدَّسْنا في السيارتيْن مع كل حقائبنا ونحن نَهْبٌ لمشاعر غامضة . كانت ضوضاء جميلة ، وكان عمري آنذاك ست عشرة سنة ، وعمر حسن اثنتا عشر سنة والفرق بين أخواتي الصغيرات ملك ، وهالة ، وجمانة هو سنتان .

كانت أمي جالسة في مُقدَّم سيارتنا إلى جانب السائق ؛ وكانت صامتة وتبدو بعيدة عمّا حولها ، منذهلة لما آلت إليه الأحداث . لاحظتُ أنها لا تكفُّ عن دَعْكِ المنديل بين أصابعها ، محاولة في يأس ، أن تتحكَّم بانفعالاتها . ورأيتها تمسح خلسة دمعة مُنْسَكِبة ، إلاَّ

بيروت ، **1938** .
سيرين في بيروت .

أنني كنت أعلم أنها بوصفها امرأة مقدسية حقيقية، لن تفسح لنفسها بإظهار علامات أخرى تفضح الألم العميق الذي كان يمزّقها.

خُيِّل إليّ، وأنا أراها في تلك الحال، أنه من واجبي أن أوفّر عليها عناء الاِهتمام بإِخوتي الأصغر، وقررتُ أن أتكلّف بهم. لم يكن الأمر سهلاً، فقد صاروا أكثر فأكثر، مُتعبين على امتداد مسافة الطريق. كانوا يتخاصمون ويتصارعون ويصخَبْون صخَبَ الشياطين. ذلك أنهم غادروا فضاءً مكوَّناً من الحدائق والملاعب، وأصدقاء وأبناء عمّ، ليجدوا أَنفسهم محشورين، مجمَّدين داخل سيارة تنطلق نحو المجهول.

بذلت جهدي لأُسليهم ولَأحثّهم على أن يكون سلوكهم لائقاً. لكنني، وأنا مضطربة مثلهم، لم أمنع نفسي من الاستسلام لنفاد الصبر.

وأخيراً، لم أتمالك أعصابي فلطمتُ أختي ملك لطمة عنيفة جعلتها ترتعد، فانتقمت مني بلطمة أقوى، ظلَّ أثرها مُزْرقّاً عدة أسابيع.

عند وسط ما بعد الظهر، وصلنا أخيراً إلى بيروت واتّجهنا مباشرة إلى بانسيون بَسُولْ الذي كان يقع في الحي السياحي المشرف على المياه الزرقاء الرائعة لخليج سانت ـ جورج الصغير. وفي الوراء، مَيَّزْنا تلال جبل لبنان البنفسجية.

كنا في قلب تلك المدينة البديعة، محاطين بالفنادق والمطاعم والمراقص الليلية. يالَهُ من تغيير قياساً إلى هدوء حيِّنا السّكني في القدس!

بيروت ، **1939** .
سيرين تقرأ .

مرتاحين لكوننا تحرَّرنا من انْحباسنا الطويل، ومُستَثارين بِفكرة اكتشاف وسط جديد، انطلقنا في التَّوِ لِلاستكشاف والتعرُّف على بيروت؛ وهو ما خفَّف عنا تعب السفر. وفي الأخير، وبعد بَلْبلة كثيرة ووَجْبة ساخنة، أرسلونا كلنا إلى الفراش. كان كل واحد منا، على الرغم من صغر سنّنا، واستثارتنا، يحس بأن الفترة عصيبة. ولا أحد منّا طلب من والدتنا أن تُنبئه عما يخبئه لنا المستقبل، ولا حَاوَلَ أن يتناقش في الموضوع مع الآخرين. لقد ظلّت الصور المتتالية بين سواد الليل وأحلامنا، أسيرةً داخل قلوبنا.

مستلقيةً فوق سريري، تلك الليلة، لَم أستطع أن أَمتنع عن التفكير في التوتّرات والأحداث الأليمة التي سبقت مغادَرتنا للقدس. متى سنرى والدنا من جديد؟ ما مصيرنا ؟ وأصدقاؤنا وأقاربنا في القدس؟ وبيتنا؟ شيئاً فشيئاً، صَرَفَتْني الضوضاء المتصاعدة من الشارع تحت نافذتي، عن أفكاري المقلِقة.

سمعت موسيقى وأغاني المحتفلين الذين كانوا يغادرون المراقص الليلية في ذلك الحيّ النشيط.

حاولت أول الأمر أن أطرد من ذهني تلك التّسلية وأُتابع خواطري، لكنني سرعان ما استسلمت بِنوع من الارتياح، لتلك الأُلْهية التي صرفْتني عن قلقي.

بينما كنت أتأرجح ببين اليقظة والنوم، أخذت حركة الشارع وأضواء السيارات المتحركة، تتلاشى تدريجياً أمام الصمت والعتمة الكثيفة لِما

لبنان.

سيرين مع أخواتها في لبنان: من اليسار ملك ، جمانة وهالة .

قبل انبلاج الفجر. تنبّهتُ، فجأة، إلى صوت طفل كان صداه يرنُّ في الشارع ليصلني من الأسفل إلى غرفتي في الطابق الثاني. كان يصل عبر النافذة ويبدو كأنه يتسلّل من خلال قماش الستائر المسدَلة السميك، ليغمرني برُمَّتي. ذلك الصوت اللّامُجسَّد الآتي - فيما كان يُخيَّل إليّ - من لا مكانٍ والمتوجّه إلى لا مكان كان يئِنّ بِرفق من خَلَلِ الهواء الليليّ.

إن مشاعر التَّرك واليأس، الحزن والألم، لتلك الشَّكاة الكئيبة قد حرّكت في قلبي وتراً، وسرعان ما انفرطت التوتّرات التي كنت قد دفنتُها بأَعماقي. كأنّما ألمُ وقلق الأسابيع السابقة على مغادرتنا القدس، وتوتّر الأَعصاب خلال السفر، قد انسَكَبْت في انْتِحاب ذلك الطفل. أخذتْ دموعي تنهمر، وظللتُ، داخل سريري، أَنْتحب إلى الصباح.

***

في أَعقاب ذلك

لم نفهم بطبيعة الحال، فوراً، أن هناك حياة جديدة تبدأُ بالنسبة لنا غَداةَ وصولنا إلى بيروت. كنّا قد اجْتَزنا الحدَّ القَدَري بين حياتنا في القدس وحياة المنفَى؛ إلاّ أنه كان يلزمُنا عدّة عقود حتّى ننتبه حقيقةً، إلى ذلك.

في التَّوِّ، لم نكن نعتبر ذلك السفر سوى مضايقة قصيرة الأمد، وكنّا متأكدين من عودتنا القريبة إلى القدس.

كان العالم العربي تحالف بِرمَّتِه مع كفاح الفلسطينيين ضد الظُّلم الذي كانوا ضحاياه. وعندما حلَّت ساعة الرحيل، اختارت عائلتي بطبيعة الحال، أن تهاجر إلى بلد عربيّ آخر. وكانت بيروت هي العاصمة العربية الأقرب إلى القدس، وكان وجود عدد كبير من الفلسطينيين هناك، وصلوا تقريباً في الوقت نفسه، يجعل من ذلك السفر سفراً أقل رُعباً ممّا كان سيكون عليه.

في تلك الفترة، استقبلت بيروت أيضاً الحاج أمين الحسيني، مفتي القدس وزعيم الحركة الفلسطينية. كان الحاج هو ابن العمّ المتحدِّر من جدود والدي الذي شارك معه على امتداد معركة استرجاع فلسطين.

القدس، 1936 .
الحج أمين الحسيني مع القيادات الوطنية والإسلاميه والمسيحيه .

وقد وضع، عمر بكْ الداعوق، وهو شخصية أساسية في الطائفة الإسلامية بِبيروت، أَحد بيوته الرائعة رَهْن إشارة الحاج أمين طوال إقامته التي كان الجميع يعتقدون أنها ستكون وجيزة.

مع مرور الوقت، بدا واضحاً أكثر فأكثر، أننا لن نعود إلى بلدنا في القريب؛ وعندئذ أخذ الفلسطينيون الذين سكنوا في غُرف بالفنادق ببيروت، يبحثون عن حلول أكثر ديمومة وأقل كُلْفة. وقد أَجَّر الحاج أمين فيلاّ في مدينة الزوقّ، وسط المدينة المسيحية في كسروان. وغَدَا بيته ملتقىً محترماً للسياسيين اللبنانيين والفلسطينيين من جميع الطقوس والولاءات.

كثيراً ما كانت أمي تأخذنا لزيارة والدتها والخال موسى وزوجته في فندق سانت ـ جورج، أحد أجمل فنادق العالم. وقد قرروا ألا يُضيعوا وقتهم بالبقاء داخل الفنادق بدون أن يفعلوا شيئاً واتفقوا على الاستفادة من وجودهم في بيروت الشّهيرة بِجودة خدماتها الطبيّة، لينجزوا فحصاً طبياً عاماً في مُستشفى الجامعة الأمريكية. كنا نعرف أن الجدّة كانت تعاني من السكري، وأمنا من الروماتيزم؛ فكان يبدو إذن، قراراً حكيماً طلب النصيحة من خبراء اختصاصيين في تلك المؤسسة.

وفي مستشفى الجامعة الأمريكية تعرَّفتُ على مَنْ سيصبح زوجي في المستقبل، الدكتور مُنيب شهيد.

كان يُمضي مدّة الداخلية في المستشفى تحت إمرَة الدكتور الخياط، طبيب أمي. وذات يوم، بدايةَ ما بعد الظهر، كان عليَّ أن ألتقي أمي في المستشفى لأُرافقها إلى المدينة حيث كانت تريد أن تتبضَّع للأولاد.

أريحا ، 1944 .
سيرين مع زوجها منيب شهيد في أريحا.

وكان منيب يقيس ضغطها عندما أدخلوني إلى غرفة الفحص. قدّمتني أمي إليه وخطر على بالها أن تضُمّني إلى الفحوصات العامة العائلية، فسألته:

" يا دكتور، ماذا نفعل مع هذه البنت التي يُغمى عليها عند رؤية أبسط قطرةِ دم؟"

كانت تلك الإغماءات تشغل بال أمي باستمرار. وقد علمنا فيما بعد، أنني أخذت ذلك الرُهاب من موسى كاظم الحسيني أحد أعمام والدي؛ وأنا بِدوري، نقلتُه إلى ابنتي زينة.

ضحك الطبيب الشاب وأجاب مازحاً:

" اضربيها لطمةً قوية!"

كان الدكتور شهيد قد جاء إلى بيروت من حيفا مع أسرته. وقد سكنوا في شقة قريبة من المستشفى الأمريكي حيث كانت أخته مريم تُعالَج. كانت تلك الفتاة الجميلة، اللاّمعة، تدرس في باريس عندما أُصيبت بمرض الهودشكين (سرطان اللِّيمفا)، وقد جاءت لتتلقّى العلاج في بيروت. صارت عائلتانا وثيقَتَيّ الصداقة، لكننا لم نكن نظن، منيب وأنا نفسي، أن مصيريْنا كانا مرتبطيْن. التقينا بعد ذلك بأمد طويل وقد أحرزت على الإجازة من الجامعة الأمريكية، ولم تنفع كل الجهود المبذولة لإنقاذ مريم. بعد ثماني سنوات على أول لقاء بيننا، تمَّ زواجنا.

كان لا بد من بضع أسابيع حتى يتمكّن أبي من اللّحاق بنا في بيروت حيث أَطلعنا على نجاحه في التخلّص من مراقبة السلطات البريطانية.

بيروت ، **1944** .
سيرين في حفل استقبال ببيروت .

ذلك أنه انضمَّ إلى أُسرة من النساء المحجَّبات المرافقات لوالدهنّ داخل السيارة التي أجَّرتها الأسرة لمغادرة البلاد. كانت النساء جالسات فوق المقعد الخلفي، مُرتديات مِلاياتهنّ التي كانت ثِنْياتُها الضافية تُغطّي والدي الممدود على الأرض. وقد أُوقفت السيارة عند عدة حواجز وفُتِّشت رأساً على عقب بدون أن يكتشفوه.

في الوقت الذي وصل أبي إلى بيروت، كنّا قد أدركنا أن إقامتنا ستطول. وهذا الإدراك دفع والديَّ إلى الانتقال إلى فندق أكثر تواضعاً هو فندق فيكتوريا. ثم أقمنا بعد ذلك في بَنْسيون عائلي. ولم يُتَّخذ قرار الانتقال إلى شقة نستأجرها إلاّ خلال السنة الثانية من منفانا.

في ذلك التاريخ، كان الحاج أمين الحسيني قد استقر بمنزله في كسروان، غير أن معظم بقية أفراد عائلتنا كانوا قد انجذبوا، مثلنا، إلى ناحية رأس بيروت، غير بعيد عن الجامعة الأمريكية. ولم تكن إمكاناتنا، في البدء، تسمح لنا بأن نُؤثث الشقة بكيفية لائقة. فكنّا ننام ليلاً على أَفرشة موضوعة على الأرض، وخلال النهار كنا نكتفي بكراسي المطبخ.

فيما بعد تحسنت وضعيتنا بفضل تحويل جزء من دَخْلِنا في فلسطين. وقد آل الأمر إلى أن تصبح بيروت مسكناً لنا.

بعد وصولنا بقليل، كانت أمي بدأت تبحث عن مؤسسة مدرسية لإخوتي الصغار، فسجّلتهم في مدرسة الأهلية تُديرها الستّ وداد المقدسي قرطاس. ونتيجة لما عُرِفت به من روح إنسانية، فإنها أَعفتْ عائلتي من المصاريف المدرسية إلى أَن استقام وضعُنا المالي.

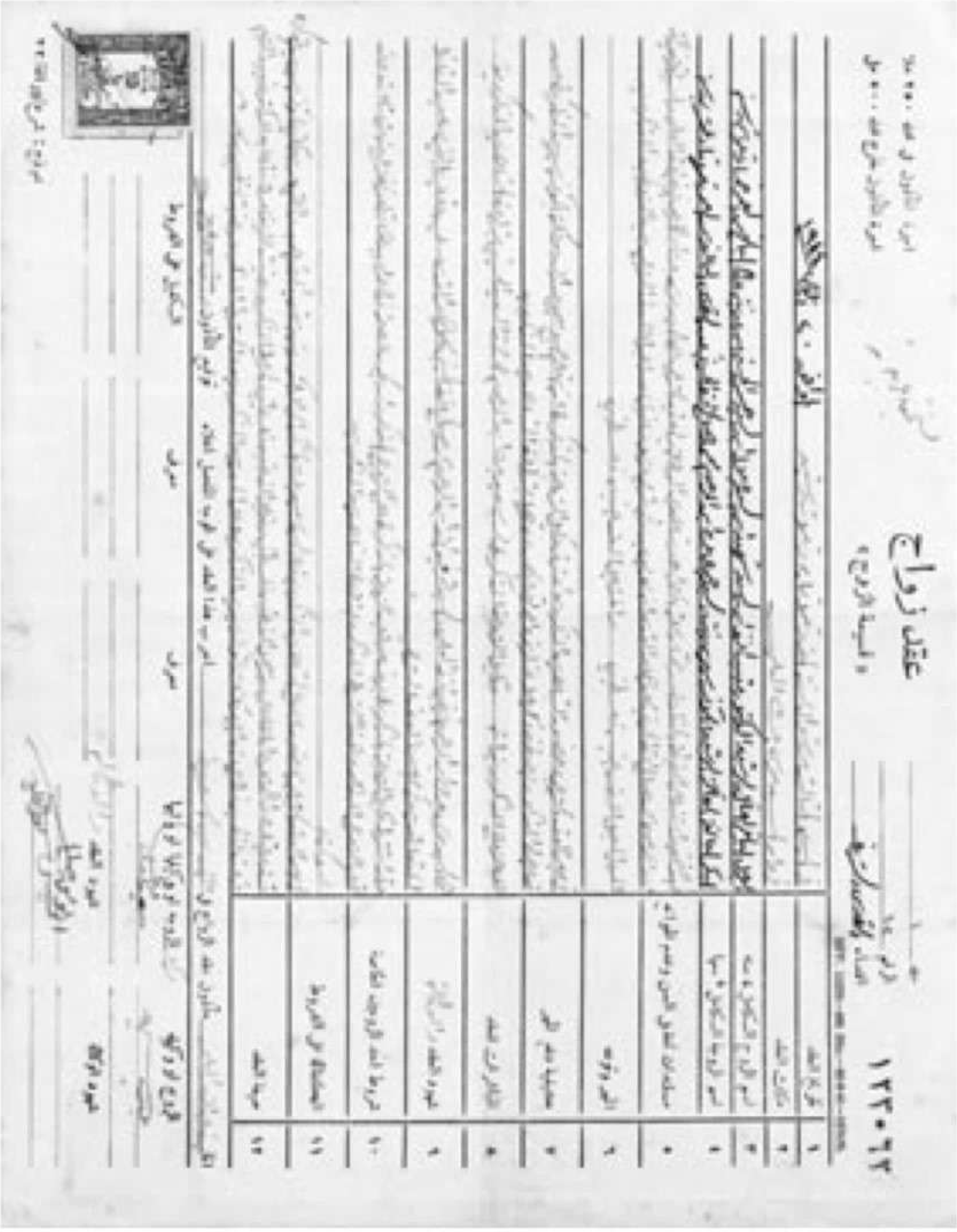

عقد زواج

١٣٢٠٦٣

القدس ، **1944** .

عقد زواج سيرين ومنيب .

ولما كنتُ في السنة الأخيرة من الطَّوْر الإعدادي، فإنه ما مِنْ ليسيه في بيروت قَبِل تسجيلي لمدة سنة واحدة وأخيرة. وهذا ما جعلني ألتحق بكوليج الفتيان الأمريكي.

***

كوليج الفتيات الأمريكي

قبل رحيلنا ، كانت مديرة مدرسة الفرندز في رام الله ، قد نصحتني بأن أقدم طلباً للتسجيل بِكوليج الفتيات الأمريكي في بيروت . لم أكن قد أنهيتُ بعد الثانويه العامه ، لكنها كانت تعتقد أن نتائجي الحسنة ووضعيتي الخاصة ستُمكّناني من أن أُعفَى من السنة النهائية . وعند وصولنا إلى بيروت ، قدمّت بالفعل طلباً لقبولي في الكوليج وقيل لي إن عليّ أن أشارك في امتحان الدخول إلى الكوليج . هل يتحتّم القول بأن هذا الأفق كان يُقلقني كثيراً ؟ إلا أن لطف مدير المؤسسة آنذاك ، الدكتور سْتولزفيس تغلَّب على وساوسي .

استدعاني الدكتور ستولزفيس ، ولما لاحظ انشغالي بفكرة ذلك الاختبار المرتقب ، أخبرني بأن وصولي تصادَف مع حدث سعيد ، وأن عليَّ أن أعتبره فألاً حسناً . ظللت مضطربة قبل أن يحكي لي المغامرة التي وقعت لابنته لورنا بالأمس .

كان عمرها ثلاث أو أربع سنوات وكانت عادة تلعب في حديقة البيت المطلة على الشارع الكبير . وكانت محطّة الترمواي المخترق لبيروت ، توجد تماماً أمام قضبان الحديد لِبَيتهم . وكانت لورنا الصغيرة تحب النظر إلى الناس الذين يتسارعون إلى ركوب العربات والنزول

بيروت، **1938**.

منها. وفي ذلك الصباح، تمكّنت بطريقة لا أحد يعرفها، من اجتياز القُضبان والصعود إلى التِّرَام تغمرها السعادة، واستقرّت على مقعد قُرب النافذة. وظنّ الركّاب الآخرون والسائق، أول الأمر، أنها كانت مع إحدى العائلات الصاعدة إلى العربة. أخيراً، تَنَبَّه السائق إلى أنها كانت وَحْدَها. وفي تلك اللحظة، كانت بطبيعة الحال بعيدة عن البيت ولم يكن بوسعها التعرُّف على المحطَّة التي صعدت منها.

آخذاً إياها تحت رعايته، جعل السائق التّرام يتوقف مدّة أطول من المعتاد عند كل محطّة. وفي كل مرة، كان يطلب منها إذا كانت تسكن هناك، مُلقياً نظرة على الخارج، ليرى ما إذا كان هناك مَنْ يبحث عن طفلة صغيرة.

في الأثناء اكتُشِف غياب لورنا، فأخذ الجميع، والدها وأساتذة الكوليج وطلابه، وكذلك الشرطة، يبحثون عنها في كل أنحاء رأس بيروت. وأخيراً وصل التّرام إلى المحطّة المقابلة لبيتها فتعرَّفت على المكان. ساعدها السائق على النّزول ورافقها إلى المنزل.

كان الدكتور ستولزفيس جدّ سعيد بالعثور على ابنته سليمة مُعافاةً إلى درجة أنه كان مستعداً لكلّ أنواع التسامح. وبالفعل، نجحتُ بدون صعوبة في اختبار القَبُول والتحقت بالكوليج، وهو ما كان، بطبيعة الحال مُشرِّفا لمدرستي في رام الله.

بعد مرور عدّة أسابيع على بداية الفصل الدراسي، التحق بنا والدي في بيروت؛ وأرسل له الدكتور ستولزفيس بطاقة معلومات ليملأها ويوقعها، و كانت بعض تفاصيل حياتي اليومية متوقّفة على موافقة

والدي. ومن بين الأشياء التي يطرحها ذلك الاستفسار على أبي، ما إذا كان يوافق على خروج ابنته، نهاية الأسبوع، مع أولاد، تلاميذ، بعد الظهر؟

كتب أبي أمام السؤال: "إنها تستطيع أن تفعل كل ما تَراهُ حسناً".

هذه العبارة، أَلقت على كاهلي مسؤولية ثقيلة، وأَمْلَتْ عليّ سلوكي طوال أربع سنوات أمضيتُها أولاً في كوليج الفتيان الأمريكي ثم في الجامعة الأمريكية في بيروت. كنت بالغة الانضباط مع نفسي، ربما أكثر من اللاَّزم عندما أفكر في ذلك اليوم. وكانت أحداث فلسطين المأسوية تُلاحقني. كيف أذهب إلى السينما بينما أُناس يُقتَلون في بلادي؟ كيف أشارك في نزهة بينما شبَّان من سني، ومعهم أبناء عمِّي، كانوا مرغمين على وقْف دروسهم للالتحاق بالمقاومة؟ مُكرِّسة كل وقتي للعمل بدون أن أسمح لنفسي بأَدنى تسلية، لا شك أنني كنت أعطي عن نفسي صورة شابّة جدِّ مُمِلَّة. وكان امتياز ذلك هو أنني كنت أركّز جهدي على الدراسة.

إلاَّ أن التحاقي بكوليج الفتيان الأمريكي فتح أمامي آفاقاً جديدة وجعلني أكتشف عن قرب، عالماً من المعارف لم أكن قد حلمت بها عندما كنت في اللّيسيه.

خلال السنتين الأوليَيْن من الدراسة، تعرفت على فتيات ذوات جنسيات عديدة، وخاصة اللبنانيات والعراقيات. وكان معنا أيضاً، كثير من اليهوديات الفلسطينيات اللاّئي لم يكن حضورهنّ خالياً من المعضلات: أي موقف يَتَّخِذْنَهُ من بعضهنَّ البعض؟ وفي نهاية الأمر،

تغلَّب شبابنا وتقاليدُ شعبنا على الشروخ السياسية، فاندمجت تلك الشابّات اليهوديات داخل مجموعتنا، مثلهنّ مثل الأخريات.

غير أن واحدة من بينهنّ لم تكن فلسطينية، بل كانت قد وصلت حديثاً من ألمانيا. كانت تبدو، معظم الوقت، نَهْباً للقلق وكنت أتساءل عن المأساة التي كانت تنهش قلبها. كانت فتاة صامتة، منغلقة على نفسها، لا ترتبط بأحد. كنّا على اطلاع، طبعاً، على ما يجري في ألمانيا، إلاَّ أننا لم نُقم قط علاقة بين تلك الأحداث وبين وجودنا الشخصي، ولم نتصوَّر أبداً أننا سنؤدي، في النهاية ثَمنَ ذلك.

وكانت واحدة أخرى من زميلاتنا اليهوديات، فتاة جميلة نَزِقَة، تُعابث الصبيان، تُضحكنا كثيراً بمدَّخراتها اللاّنهائية من حكايات الأُمَسيات والأولاد. وكانت هناك ثالثة، متشبثة برأيها ومستعدة دائماً للجِدال. وفي الواقع، كنت أُحسني أقرب إليها من الأخريات لأنني كنتَ بِدوري، مُجادلة مثلها فكنّا نستمتع معاً بالدخول في مناقشات سياسية ملتهبة.

بعد نجاحي في امتحن نهاية السنة الثانية بكوليج الفتيان، التحقتُ بالسنة الثالثة في الجامعة الأمريكية ببيروت. كانت أول مرّة أوجد فيها داخل فصل مختلط. لم يكن لدى والدي اعتراض بطبيعة الحال، إلاّ أن هذه الفكرة كانت ما تزال تصدم بعض الأُسَر المقدسية. ولا شك أن الوقت الذي مرّ وتفاقُم الوضع الفلسطيني باستمرار، قد خفّف من أهمية هذا النوع من القضايا.

بيروت، **1940**.

كنت على أُهبة الالتحاق بالجامعة الأمريكية عندما ناداني أبي إلى الشّرفة وعلى فمه ابتسامة تتدفّق حناناً.

" إنك تنوين الذهاب إلى الجامعة الأمريكية هذه السنة، أليس كذلك؟

- نعم أَجبت وأنا ممتلئة سعادة.

- اسمعي، قال وظلال حزن تحجب بصره، أنا آسف فذلك لن يكون متيسراً. تعلمين أننا سنرحل إلى بغداد ونحن، بكل بساطة، لا نتوفّر على المال الكافي حتى تتمكَّني من البقاء هنا، وحدك".

فيما كنّا نتحدث، وصلت السيدة شهلة. كانت إحدى صديقاتنا الفلسطينيات المقدسيات، التي تزوّجت أستاذاً من الجامعة الأمريكية. شاركتْنا في محادثتنا، وفجأة خطرتْ لها فكرة، فسألتْ:

" هل أنتِ مستعدة لتشتغلي في المأوَى النسائي مقابل حصولك على منحة؟

- بطبيعة الحال مستعدة، أجبتُ.

هكذا، خصصتُ، في السنة التالية، بضع ساعات من يوم السبت لأُغذي بِالحَطب فُرْنَ تسخين حمّام الطالبات.

وقد تأثر ابن عمٍّ لي، غني، يسكن في ذلك المأْوى، لمصاعبي واقترح علي مساعدتي مالياً، على الأقل خلال فترة الضّائقة. لكنني رفضت بقوة لأنني كنت أعتقد أنني أؤدي، بذلك، جزء من ديني تجاه بلدي وأبناء عمّي وجيراني المعتقلين والمعذَّبين. كان هناك شيء مُسَلٍّ

بيروت ، **1943** .
سيرين بلباس التخرج من الجامعة الأمريكية في بيروت .

وهو أنني كنتُ أؤدي ذلك العمل مُرتديةً ملابس أنيقة اشتُريَتْ لي في أوقات الرخاء. وقد اسودَّ قفازي وحذائي الأخضر بسبب سخم النار. وكانت الفتيات الأخريات يضحكنَ مني ومن ثيابي وحطَبي.

منهمكةً في دروسي بالكوليج ثم بالجامعة، تعوَّدتُ على شروط العيش في بيروت على رغم أن مواردنا المتقلِّصة اضطرّتني إلى العمل لأساهم في أداء مصاريف الدراسة. فقط عندما كنت ألتحق بعائلتي، آخر الأسبوع، كنت أدرك هشاشة حياتنا.

غدَتْ أخبار فلسطين مقلقة أكثر فأكثر، من يوم لآخر، وأخذتْ الأحداث فيها وِجْهة أكثر خطورة. وهو ما جعل عدداً متنامياً من الأُسر الفلسطينية المطارَدة من سلطات الانتداب، تأتي إلى بيروت وبعضها يذهب إلى دمشق. لكن، عندما انفجرت الحرب العالمية الثانية، بَدَتْ قضيتنا بدون ثِقْل في نظر العالم. ذلك أن ثورة الفلسطينيين ومطالبهم تلاشت في الدَّوامة العامة.

مع ذلك استمر كفاحنا وما يزال إلى اليوم.

***

الستّ زكية

خلال الفترة التي كنت أتردَّد على الجامعة في بيروت، تعلمتُ أن أَعرف وأفهم الست زكية بكيفية أفضل.

وسط العائلة، كانوا كثيراً ما يتحدثون عن الستّ زكية. وكانت، بطبيعتها الساخرة وحس الدُّعابة وقوّة طبْعها، تستطيع يومياً أن تكون هي موضوع الساعة. يوماً تزجر مدّعيا بكلمة قاسية، وفي الغد تهدّئ تَوتّرات ما بعد الجنازة بإبداء ملاحظة ماكرة تثير قهقهةً من الضحك العام داخل غرفة ممتلئةً بناسٍ في حِداد. أحياناً، كانت تفرض نفسها على عالم الرجال إذ تذهب للجلوس معهم متحدية بذلك العادات و السلطة الذّكورية.

كان زوجها، موسى كاظم باشا، هو بكْر عائلة الحسيني. كان محترماً خلال فترة السيطرة العثمانية ثم أثناء الانتداب البريطاني، فأصبح على رأس الحركة الوطنية الفلسطينية في عشرينات وبداية الثلاثينات من القرن الماضي.

كان زوجاً ثانياً للستّ زكية، وكانت هي زوجته الثانية.

كنت طالبة في بيروت عندما وصلتْ إلى هذه المدينة رفقةَ حفيدتها فاطْمَة التي أحرزت على إجازتها في كوليج روبرتس بإسطنبول. وكان

القدس ، **1952** .

الست زكيه على باب بيتها بالقدس مع حفيدها الدكتور رفيق الحسيني .

السبب الوحيد الذي جعل فاطمة تتردد على تلك المؤسسة هو أنها كانت مخصَّصة للفتيات. كانت فلسطين متأجّجة بالحماس الثوري، ولم تكن أسرتها تريد أن تصدم المجتمع المقدسيّ المحافظ بإرسال فاطمة إلى مدرسة مختلطة.

لكنها لما علمتْ أن أبي قرر أن يسجلني بالجامعة الأمريكية في بيروت، لم تتردّد لحظة فَسَحَبتْ فاطمة من كوليج روبرتس ورافَقَتْها إلى بيروت مؤكدة بأن ما كان حسناً لعضوٍ من العائلة، هو أيضاً حسن بالنسبة للآخرين.

كانت الستّ زكية مسؤولة على حفيدتها التي كان أبوها قد تُوفّي عندما كانت جد صغيرة. وقد تزوجت أم فاطمة، بعد موت زوجها، رجلاً آخر من العائلة، فتكلفّت الجدّة (الستّ زكية) بتربية ابنتها.

كنت جد مسرورة لمجيء فاطمة إلى بيروت حث التحقتْ بالسلك الثالث في الجامعة الأمريكية. كانت تؤثر عليّ قليلاً لأنها كانت أكبر مني سناً، ومتقدمة عليّ في الدراسة. كنت أَلتقيها كثيراً وكان حضورها يمنحني ثقة أكثر ويجعلني أحس بالاطمئنان.

خلال أول ما بعد الظّهر أَمضيناه معاً، أخذتني معها إلى زيارة جدّتها التي كانت مقيمة في فندق باسول. وحسب تقاليدنا، فقد كانت الستّ زكية هي أيضاً جدتي. وهي بالفعل ابنةُ عمّ والدي الشقيقة وكانت تنتمي إلى نفس جيْل جدَّتي من جهة أبي.

تفاجأَتْ جدّتي زكية إذْ وجدتني قد كبُرت. وعليّ أن أقول بأننا لم نكن قد التقينا منذ أمد طويل. تعاطفت معي في الحال؛ وعندما خرجنا

في ذلك اليوم نفسه لشراء قماش لفساتين فاطمة، اشترت لي كذلك قماشاً. ترددتُ في قبول تلك الهدية، لكنها أَلحَّت ورفضتْ اعتذاري رفضاً باتاً:

" لا تكوني غبية! صاحتْ. لستِ فقط عضواً من عائلتي، بل أنت من نفس الفرع".

ولتدعيم كلامها أَكثر، أضافت: "يمكن لكل واحدة منّا أن ترث الأخرى لشدَّة قرابتنا".

اندهشتُ لِقَوْلها، إلاَّ أن إِلحاحها على وثاقة روابطنا العائلية أدخل السرور في نفسي وأحسست بالارتياح من الاهتمام الذي كانت تغمرني به تلك القريبة ذات المكانة البارزة. فيما بعد، عند نهاية النهار، وصفَتْ لي بتفصيل مختلف فروع شجرة العائلة، راسمةً الروابط القائمة بينها، شارحة العلائق القانونية والمالية المترتبة على تلك القرابة. كانت ترى أنني غادرت القدس منذ أَمدٍ طويل بِسبب منفَى والدي، فلم يكن لديَّ متّسع من الوقت للحصول على معلومات صحيحة في هذا المجال المعرفي. وأَثناء الشروحات، حدثتني قليلاً عن حياتها الخاصة وعن علائقها مع والدي:

" عليك أن تعرفي أنني كنت زوجة لأَخويْن هما جدَّاكِ شريف وَموسى كاظم.

كانت الست زكية ابنة عمّي وكان زوجاها شريف أفندي وموسى كاظم، عمَّيْن لأبي من جِهَة الأم. كنت أعرف أن آل الحسيني يتزوجون

لبنان.

سيرين وبنت عمها فاطمه.

فيما بينهم، وأن أبي وأخواته هم وحدهم لم يتَّبعوا هذا التّقليد. كنت مُنْسحرة ومُتلهِّفة على أن أعرف المزيد، لكنها كانت متعبة:

"سأحكي لك كل ذلك عندما تعودين إلى زيارتي في الأسبوع المقبل".

مرَّت أيام وذهبت إلى زيارتها من جديد في بانسيون بسول. وأثناء ما كنّا نتناول الشاي، تابعت الجدة زكية حكايتها:

" لا تظنّي أَنِّي فُتِنْتُ بنفوذ موسى كاظم عندما تزوجته. في الحقيقة، لم أحب سوى زوجي الأول شريف أفندي. وهو أيضاً أحبّني؛ لفترةٍ معينة في جميع الأحوال. اسمعي الأبيات الشعرية التي كتبها لي".

ثم قرأت عليّ بعض الأبيات ظلّت راسخة في ذاكرتها طوال هذه العقود، وأنا أيضاً لم أَنْسَها بعد مرور نصف قرن على أول مرة سمعتها فيها:

آهٍ لذراعيْها الرائعيْن
لولا السِّوار الذهبي يمسكهما
لَذَابا مِثْلما يذوب الثلج في النهر

بعد ذلك، استأنفت حَكْيَ حياتها مع ذلك الزوج الرومانسي. كان أول مَن أَنْجَبَاهُ هي وافية، أُم فاطمة؛ وتابَعَا حياتهما بدون غيوم. لكن، ذات يوم رحل زوجها الشابّ إلى استنبول، باريس المشرق كما كانت تُسمّى آنذاك. ظاهرياً، أَعجبه ذلك السفر الأول كثيراً لدرجة أن تلك

الست زكيه تتوسط سيدات آل الحسيني .

الانفلاتات الصغيرة، عبر السفر، أصبحت عادة لديه؛ فبدأ يُنفق قسطاً كبيراً من ماله في المدينة الشاسعة الأرجاء، مُقامراً ومُغامراً مع النساء. وإذا كانت زكية تحبُّه بالقدر الذي يجعلها تسامحه، فإنها لم تَقْبل ذلك الوضع بلا اعتراض. وكان أبي، المراهق آنذاك، هو مَنْ يتولى الوساطة بينهما. وكان عمّه شريف، كلما عاد من إحدى السفرات، يطلب منه أن يذهب إلى منزل زكية ليطلب منها أن تسامحه وتستقبله.

وكانت قطعة نقود ذهبية تضطلع بمهمة الجواب: فإذا عاد أبي من عند زكية حاملاً تلك القطعة، فهذا يعني أن كل شيء على ما يرام. وإذا حصل العكس، فسيكون على العمّ شريف أن ينتظر بضعة أيام قبل أن يجدّد محاولة التقرُّب من زوجته.

إلاّ أن زوجته الذكية، العنيدة فَقدتْ ذات يوم صبرها، إذْ وجدتْ أن سَفْرَته المغامِرة الأخيرة هي بمثابة النقطة التي أَفاضت الكأس. ذلك أنّ زوجها لم يُعدّل سلوكه، فقرّرت أن تُنهي حياتهما المشتركة. وحسب الشّريعة، فإنه يكفي أن يقول الزوج لامرأته "أنتِ طالق" لتُصبح هذه الكلمات نافذة المفعول. ومثل كثير من الأزواج، فقد سبق للعمّ شريف أن تلفَّظ بتلك الكلمات تحت تأثير الغضب أو النَّرفزة بدون أَن يأخذ ذلك مأخذ الجد أو يفكر في تنفيذها. لكن، في اليوم الذي قررت زكية إنهاء زواجهما، أَعلنت أن زوجها تلفَّظ بالطلاق. وقد أرسلت إليه وثائق الطلاق الرسمية بينما كان يوجد خارج البلاد. ولِتَتْويج انتقامها، تزوّجت من سلفها (أخ زوجها) ذي النّفوذ موسى كاظم الذي كان قد فقَد زوجته قبل ذلك بأمد قصير.

موسى كاظم باشا الحسيني مع الشريف الحسين .

قالت الست زكية وهي تحكي لي هذه القصة المفاجئة :

" لكنني ، وقد أحببتُ واحترمتُ كثيراً موسى كاظم واهتَمْمُت به ، فإنني لم أشعر أبداً ، تجاه زوجي الثاني ، بنفس المشاعر التي أيقظها فيَّ زوجي الأول " .

كانت زياراتي للستّ زكية ، بعد ظُهر السبت ، وهي الفترة التي كان مسموحاً للدّاخليين أن يغادروا فيها الحرَم الجامعي ، تمثِّل منعطفاً حقيقياً في شبابي . ففي داخل عائلتي ، ما مِنْ أحد أخذني مأْخذ الجِّد ، بينما كانت الست زكية العظيمة التي يخشاها ويحترمها الجميع ، تُبدي نحوي التقدير والمودَّة . والصداقة التي منحتْني إياها كانت شرفاً أعطاني الثقة بنفسي . فيما بعد ، عندما عرفتها معرفة أفضل وحكتْ لي تفاصيل أطول عن حياتها ، أدركتُ أن اهتمامها بالآخرين لم يكن يُراعي كِبَرَ السنّ أو صِغَره .

لا شك أن اختفاء حفيدتها فاطمة وهي في عزّ شبابها ، قد زاد من توطيد الصّلة بيني وبين الست زكية . فبَعْد أن أحرزت بتفّوق ، على الإجازة من الجامعة الأمريكية ببيروت ، عادت فاطمة إلى القدس وهناك أصابت قَدَمَها حزَّة خفيفة مثل خَدْش . غير أن الجرح تعفَّن ولم نكن نتوفّر على المضادّ الحيوي ، فماتت فاطمة بعد بضعة أيام . وقد صَعَقَني هذا الخبر وكذلك بقية عائلتي . وكان عزائي الوحيد هو رباطة جأش وشجاعة الجدّة النادرة أمام تلك الخسارة الفظيعة .

زمن طويل بعد ذلك ، عرفتُ من عائلتي سبب مغادرة الستّ زكية للقدس لتستقرّ ببيروت خلال الفترة التي تعرَّفت فيها عليها .

القدس ، **1935** .
فاطمه الحسيني .

كان ذلك أثناء الستة أشهر من الإضرابات والاهتياجات الثورية التي أَعقبتْها. في تلك الفترة، كان الفلسطينيون، رجالاً ونساء وأولاداً، يعتبرون من واجبهم مقاومة المِحَنْ النّاجمة عن تلك الظّرفية الاستثنائية، وأن على جميع الأُسَر أن تكتفي بِالرَّفاه اليومي الضّئيل الذي تبقَّى لها.

وكانت الست زكية في بيتها العائلي الضخم، تُكابد مثل الآخرين مشقَّة الوقت وصعوبته، إلاَّ أنها لم تكن مستعدّة لِتَقبُّل ذلك. وكانت تقول لنفسها بأَّن بيتها كان، في حياة زوجها، مركزاً مُهمّاً للنشاط السياسي، أَفَلاَ يحقّ لها أن ترضي بعض حاجياتها إذا ما استطاعت؟

انقطع الماء عن البيت والآبار جفَّت تقريباً. ففكَّرتْ أن الشيء الوحيد الذي يمكن أن تفعله هو أَن تُتَلِفن إلى المندوب السامي البريطاني، لتطلب أن يساعدها على توفير الماء لبيْتها. ألم يكن ذلك التماساً معقولاً تقدمِّه إلى جارها؟ بطبيعة الحال، سُرَّ المندوب السامي من مساعدته لعائلة الحسيني وبذل ما في وسعه ليكون لطيفاً معها.

وكان من بين زعماء الكفاح الفلسطيني، عبد القادر الحسيني، ابن موسى كاظم من زواجه الأول ـ أي أنه حفيد الستّ زكية ـ؛ ولم يكن عبد القادر موافقاً على مسعى خالته لدى المندوب السامي، فبادَر عندما علم بالخبر إلى زيارتها في مساء نفس اليوم.

كانت الست زكية تنتظر زيارة عبد القادر بفَخْر ونفاد صبر. وعندما دخل إلى بيتها مرتدياً الزّيَّ العسكري كاملاً، وجدت أنه لم يكن قط

فاتناً مثلما كان تلك الليلة. قبَّل يدها وهي باركَتْه ورضيتْ عليه. بعد لحظات، قال لها وهي تقدم له قهوة التّرحاب:

" علمت يا خالتي العزيزة، أنك اتصلت بالمندوب السامي البريطاني ليساعدك على مواجهة نقص المياه. وأنا جئت لأذكرك بأنك لستِ الوحيدة التي تُعانين من هذا الضيق. لكنني جئت كذلك لأُحذرك بأنه، فيما نحن نتحدث، قد أحاط رجالي ببيتك ووضعوا الدِّيناميت حوله. وإذا تمَّ اتصال آخر مع الإنجليز، فإن البيت سيتفجَّر".

ضحكت الست زكية لتُداريَ انفعالها، لكن الخوف تسرَّب إلى قلبها. وبعد تبادُل حكاية أو حكايتين طريفتيْن، انتهت الزيارة. انسحب عبد القادر من بيتها، وقررت هي مغادرة القدس فترة من الزمن لتستقر في بيروت.

عند وصولها، نزلت في فندق باسول، إلاّ أنها سرعان ما أجّرت شقّة لتستقر تماماً في بيروت، حيث كان لها العديد من الأصدقاء. هناك، تعلمت بسرعة تدبير شؤونها ومُشترياتها. وكان يوجد في ذلك الوقت، دكّان كبير جدّ معروف يدعى " أورسدي باك "، نصحها أصدقاؤها بالذهاب إليه، بدلاً من التردّد على الأسواق. ذات يوم، تشجَّعَت لتذهب وحدها لشراء البضائع التي تحتاجها. كانت تجربة غير مسبوقة بالنسبة لها، هي التي وَرثت عن أجيال سابقة حتى أدوات المطبخ. لم تكن لها خادمة في بيروت، إلاّ أن فكرة التفرُّغ وحدها لقضاء حاجاتها، أَعجبتْها. وهي في طريقها، ذلك اليوم، إلى وسط المدينة، شعرتْ بأنها مقبلة على مغامرة كبيرة.

الشهيد عبدالقادر الحسيني.
عبد القادر الحسيني ، قائد المقاومة وزوج الست وجيهة ووالد الشهيد فيصل الحسيني .

متُبِّعَةً الإرشادات التي أُعطِيَتْ لها، اتجهت نحو متجر" أورسدي باك" ودخلت إليه. وبسرعة، أَدركت أن عليها أن تختار ما تريد، وأنَّ بضائعها ستُجمَّع فوق مَبْسَط سِلَعٍ لِتُرَزَّم قبل تسليمها إلى البيت.

أَنهت مشترياتها واقتربت من المكتب حيث كان الوكيل واقفاً أمام الخزينة. وبينما كان يُنْهي رَزْمَ البضائع، فتّشت الستّ زكية في حقيبتها اليدوية عن أكبر ورقة مالية وقدّمتها إليه. لاحظ الوكيل لهجتها الفلسطينية فأخذ الورقة المالية ونظر إليها ثم قال بلهجة ساخرة:

" أنتم الفلسطينيون تَشْتَكُون من الهجرة اليهودية، فهل كنتم ستملكون كل هذه النقود لولا اليهود؟".

مباشرة وبدون لحظةِ تردُّد، انتزعت من يده الورقة المالية ووضعتها في حقيبتها بإشارة جافّة، وأَجابته بِحَسْم:

" احتفظ ببضائعك، فأنا لا أريدها. لقد جئت إلى متجركم ظانَّة أنني سأتعامل مع لبنانيّ لا مع صهيوني، وخَشِن علاوة على ذلك".

ثم انصرفت تاركة الوكيل مبهوتاً، أخرس من الحرج.

إن حياة الست زكية المديدة، وقوة طبعها وروح دُعابتها الخارجة عن المألوف، وأصالتها الراسخة، كانت تُقلق بعض أفراد العائلة إلى

درجة أنهم كانوا يحكمون عليها بقسوة. أما أنا، فقد اعتبرتها دائماً امرأة لم تَقْبَل قط فكرةَ الدُّونية أو الضَّعف الأُنثويَيْن.

***

بغداد

في سنة **1939** ، توجه والدي إلى لندن ليشارك في المائدة المستديرة عن فلسطين، المعروفة باسم مؤتمر سانت ـ جيمس. كان البريطانيون قد رفضوا حضور الحاج أمين لكنهم سمحوا بحضور أبي الذي عاد إلى لبنان بعد المؤتمر وتابع فيه نشاطه السياسي.

بعد أمد قصير، غادرتْ عائلتي إلى بغداد مع عائلات أخرى لسياسيين فلسطينيين. ذلك أن البريطانيين كانوا يتوسَّعون في المنطقة فكانت الخشْية من أن يتسلّلوا إلى لبنان.

ذات يوم، أرسلتني عائلتي للقيام بمسْعىً لدى الأمن العام، لأنني بصفتي كبرى أبناء الأسرة كثيراً ما كنتُ أتولى مثل تلك المهامّ. تفحصَّ الموظف اللبناني الكبير الوثائق التي قدَّمتها إليه ثم نظر إليّ باهتمام قائلاً:

" عليك أن تعلمي أن الأنجليز سيصلون إلى هنا خلال بضعة أيام".

فوجئت بقوله، لكنه شرح لي مباشرة ما كان يقصد إليه:

" إذا كان أبوكِ هنا، فمن الأفضل له أن يرحل لأنهم بدأوا في جمع معلومات عنه".

لندن ، 1939 .

مؤتمر سان جيمز في لندن ومن اليسار موسى العلمي والثالث من اليسار جمال الحسيني يشاركون بالوفد الفلسطيني .

أسرعتُ لأخبر أقاربي، لكنهم كانوا على علم بوصول البريطانيين المرتقَب وكانوا يحاولون الاتصال بأبي. وإذن، سافرت عائلتي في ذلك الصيف إلى بغداد.

في العام **1939**، عندما بدأ الفلسطينيون يَفِدُون على العراق، كانت السلطات المحلية جدّ متعاونة معهم. كانت فترةَ نوري السعيد؛ ورشيد الكيلاني الوزير الأول، كان أحد الرجال الأكثر قوة في بلاده. وللأسف، فإن هذا الموقف الودّي من الفلسطينيين لم يدم طويلاً: إذ سرعان ما استولى البريطانيون على العراق وعادوا إلى التضييق على الفلسطينيين اللاّجئين.

رغم كل شيء، كان الوضع ملائماً خلال السنة الأولى، ولقيتْ عائلتي استقبالاً حسناً في بغداد. وكان عليّ أن ألتحق بهم خلال الصيف، وتساءلت:

" الصيف في بغداد! وإذن لن تتوقف هذه التَّرحُّلات أبدا؟". وقُبَيْل سفري، كنتُ في طريقي إلى الجامعة عندما صادفتُ طبيب عائلتي وزوجي المقبل، الدكتور شهيد. استوقَفني ليستفسر عن أحوال الجميع وعندما علم بأننا سنُمضي الصيف في بغداد حذّرني:

"قولي لعائلتك، على لساني، بأن جدّتك المصابة بمرض السكر، لن تحتمل حرارة بغداد". وعدْتُه بأن أنقل رسالته بدون أن أُدرك حقيقة أهميّتها.

موسى العلمي ووالدته أم موسى خلال إحدى سفراتهما بأروبا .

عندما وصلت إلى بغداد، فوجئت بالفرق بين طقسها وطبيعتها، وبين مثيلَيْهما في المدن العربية الأخرى التي كنت أعرفها جيداً. كانت القدس محاطة بالجبال و التلال الصخرية التي غالباً ما تَعلُوها قريةٌ أو مزار مقدس. وكانت بيروت ذات الشوارع المنتعشة، المختَرقة بالترامات والسيارات، تستقر على حافة البحر الأبيض المتوسط اللاّزَوَرْدي. ووراء المدينة تنتصب جبال رائعة تكسوها الخُضرة. وعلى العكس، كانت بغداد امتداداً شاسعاً ومسطّحاً؛ وحرارتها مرهقة إلى درجة أننا كنّا، في الليل، نضع أَفرشتنا على السطح لنتصيَّد قليلاً من الطراوة؛ وعند الصباح ننزلها إلى داخل البيت استعداداً للقيلولة. لم تكن لدينا إمكانات مادية، مثل معظم الأسر العراقية، لنُوفّر فراشَيْن خلال الأصياف القائظة، واحد للنهار وآخر لِلَّيل.

إلاّ أنني بدأت أُثَمِّن جمال الصحراء المتفرد. كنت أحب التملِّي بذلك الجمال وأنا جالسة على عشب الحديقة الأخضر المحيط بالمنزل الذي كنّا نسكنه.

كنا نعيش منكفئين داخل ذلك المنزل وحديقته، في حيّ الوزيرية؛ ولم يكن لنا جيران. ولما كنتُ لا أعرف أحداً في تلك المدينة الشاسعة، فإنني كنت أحس غالباً، بالوحدة. كان بودّي أن يكون لديّ أصدقاء ومعارف من سِنّي.

وكما الحال في القدس، كانت عائلتي وعائلة الخال موسى تعيشان سوية. وكان هناك أعضاء آخرون من أسرتنا الواسعة قد جاؤوا إلى بغداد، من بينهم مفتي القدس الحاج أمين والعم داوود، والعم عليّ

والعم عبد القادر، وأبناء عمّ أبي وآخرون، إلاَّ أنهم لم يكونوا يسكنون بالقرب منّا؛ فالحياة لم تكن سهلة على جميع تلك العائلات في هذه البيئة الجديدة، وكانت الخشية تكاد تكون ملموسة على أعضاء بعض تلك العائلات.

كان أخي وأخواتي يذهبون إلى المدرسة في بغداد، ويعاشرون أطفالاً آخرين. وعندما كنتُ آتي إليهم في العطل المدرسية، كانوا يفرحون بقُدومي و يعلمونني كلماتٍ من الدارجة العراقية.

صاحت أختي هالة، مخاطبة السائق عند وصولي في إحدى العطل: "كابّوط، كابّوط". ولم أفهم ما كانت تريد قوله، غير أنني فهمتُ في الأخير أنها كانت تطلب منه أن يُنزل القماش الواقي ليمنع دخول الحرارة.

كنت نقلتُ رسالة الطبيب المتعلقة بمرض السكر عند جدَّتي. وكما تنبَّأ، تفاقمت حالتها واتضح بسرعة أنها لا تستطيع أن تمضي بقية الصيف في بغداد. وبنصيحةٍ من طبيبها الدكتور حسام الدجاني، وهو صديق ومنفيّ مثلنا، تقرّر نقلها إلى القدس. وقد رافقتْها زوجة ابنها الخالة سعدية التي كانت فَرِحةً بالهرب من الصَّهد الشديد. ولما كان الأمر يتعلق بامرأتيْن ترغبان في مغادرة البلاد لأسباب طبيّة، فقد حصلتا على إذن السفر. ذلك الصيف، كانت بغداد فعلاً مفصولة عن العالم نتيجةَ لمَنْع الانتقال؛ فقد توقّفت الأسفار إلى الخارج فتحتم علينا القيام بإجراءات خاصة بالنسبة لجدّتي.

خلّف سفرها لديْنا كثيراً من القلق؛ فهي كانت مسرورة من العودة إلى القدس بطبيعة الحال، بعد أن فارقتْها عدة سنين. إلاَّ أن عمرها كان

القدس ، 1915 .

فيض الله العلمي وابنه موسى .

يقارب خمساً وستين سنة وصحتها ليست على ما يُرام. وقد تولّى سياقة السيارة موسى الحسيْن سائق العائلة منذ عشرات السنين. ووُضعت في السيارة أكياس من الثلج والمياه لترطيب المسافرين خلال رحلتهم الطويلة عبر الصحراء. وحضر عديدُ الأصدقاء ومن بينهم الدكتور الدجاني، لتوديع المسافرين. وأخيراً، رحلوا في طراوة المساء حتى يتمكنوا من اجتياز الصحراء ليلاً، متوقّعين الوصول إلى القدس خلال نهار اليوم التالي.

ففي اليوم الذي أَعقب سفرهم، أَيْقَظني شيء عند انبلاج الضوء. غادرت فراشي فوق السطح ونزلت ببطء سلَّم البيت الصامت. لم يكن هناك من أحد، غير أنني سمعت همسات، وخُيِّل إليّ، وأنا أحاول تخمين مصدرها، أنني أجتاز بيتاً مسكوناً بالأرواح. كان باب المدخل منفرجاً فدفعتُه وخرجت. عندئذ لمحت الخال موسى العزيز على قلبي، وهو شبه غائب. رآني لكنه لم يوجه لي الكلام. كان يبدو منهكاً؛ وكان شخص لا اعرفه يكلمه وهو يتمشّى على الفيراندا.

أدركت مباشرة أن حدثاً فظيعاً قد حصل. كثيراً ما أثارت الوضعية السياسية الذّعر و الوُجوم، لكن ذلك الصباح، كان المناخ مختلفاً. بقيتُ على العتبة محاولةً تخمينَ ما حدث. ولم ينقطع الصمت الثقيل المُرِين على المنزل إلاّ من خلال همسات وجَلَبَة خُطىً مكتومة تذهب وتجيء.

لم أستطع أن أصرف نظري عن الخال موسى الجالس صامتاً فوق كُرسيّه، مستغرقاً في أفكاره لدرجة أنه لم يَنْتَبه إلى وجودي. كان قريباً

مني وفي الآن نفسه جدّ بعيد وكأنه في عالم آخر. بعد حين، وصل شخص وانحنَى عليه ليُوَسْوِشه بضع كلمات؛ فسمعتُ بوضوح: "شهادة وفاة".

ارتعشتُ من الرعب وأنا أدرك أن الجدّة قد ماتت أثناء السفر.

لم يُشْفَ الخال موسى قط من تلك الصدمة. طوال سنوات، ظلَّ يؤاخذ نفسه بمرارة لأنه ترك أُمه تقوم بتلك الرحلة.

فيما بعد، وصلتنا تفاصيلِ عن اللحظات الأخيرة من حياة جدّتي؛ إذ بعد مغادرتهم بغداد بقليل، أَحست الخالة سعدية التي كانت تغفو فوق كرسيّها، أن الجدة تتّكِئ بكل ثقلها على كتفها. ظنَّت أنها نامت؛ وعند أول محطة لذلك السفر في الحدود بين العراق وفلسطين، أرادت الخالة سعدية أن تكلمها، فحركتها بلُطف لكن الجدّة لم ترد. جاء السائق لِنَجْدتها وسرعان ما اكتشفا أنها كانت في غيبوبة. حملوها إلى داخل مركز الجمارك، لكنها لم تستيقظ أبداً.

بعد ساعات، وصل جثمانها إلى بغداد؛ وكان يوم جنازتها يوم حداد بالنسبة لجميع الفلسطينيين في المدينة. لم نَعِ في ذلك الحين أهمية ذلك الحدث، إذ أن جدّتي كانت أول شخص يموت من عائلتنا ويُدفَن خارج الوطن.

مرّت سنون على موتها، إلاّ أنني ما أزال أفكر في روح جدّتي وهي هائمة وسط ذلك الامتداد الصحراوي الشاسع، بعيدة، جدّ بعيدة عن بيتها.

***

الست وجيهة

كانت جميلة وغنيّة؛ وكان هو فاتناً ومثقفاً. كلاهما مُتحدِّر من الفرع الأكبر لعائلة الحسيني. كان لا بد أن يتعارفا عاجلاً أو آجلاً، وأن يتزوجّا.

كان عبد القادر الحسيني، ابن عمّ أبي، أكثر قُرباً إلينا من الست وجيهة. وأنا صغيرة، كنت أحب أن ألتقية في شوارع القدس عندما كان يعود إلى بيته خلال العُطل. كان يدرس بالجامعة الأمريكية في القاهرة؛ وكان وجهه الباسم وإشارة رأسه الصغيرة المُوجهة إليّ، يُوحيان لي بأنني أصبحت إنسانة كبيرة جديرة بذلك الاعتراف الصادر عنه.

وعندما تفجّرت الاضطرابات في فلسطين، كان عبد القادر يمرّ كثيراً إلى بيتنا ليتناقش مطوّلاً مع أبي. ولم يكن ذلك استثنائياً بطبيعة الحال: فجميع الذين كنت أعرفهم، رجالاً ونساء، كانوا - فيما يبدو لي - مهتمين بالسياسة مثل أبي. لكن حينما تفاقمت التوترات، واندلعت ثورة **1936**، فإن عيني عبد القادر اللاّمعتين لم تعودا توجهان نحونا ابتسامتهما المتلألئة. كان جد مُنشغل بتكوين وتسليح كتيبة من الرجال لتحارب إلى جانبه حتى الرمق الأخير.

السيده وجيهـه الحسيني ، الست أم مـوسى زوجـة القـائد الشـهيـد عبدالقادر الحسيني ووالدة القائد الشهيد فيصل الحسيني .

بعد مغادرتنا فلسطين، توَارى عبد القادر عن ناظري إلى حلول صيف **1941**. فعندما وصلت ذلك الصيف إلى بغداد، قيل لي بأن من بين الفلسطينيين الآخرين المنفيين في تلك المدينة، توجد وجيهة زوجته، وأطفاله الأربعة: موسى وغازي وفيصل وهيفاء. أما عبد القادر فقد اعتقله البريطانيون ووضعوه في سجن عراقيّ.

بينما كان زوجها معتقلاً، حوّلت الست وجيهة بيتهم، وسط بغداد، إلى ملتقى لجميع أولئك الذين جاؤوا ليشاركوا إلى جانبه، في الكفاح من أجل حقوق الفلسطينيين. وكانت هي حاضرة في كل مكان، منشغلة وساهرة على الجميع وعلى كل شيء. وحينما لا تكون مهتمة بأولئك الذين جاؤوا للالتحاق بعبد القادر، فإنها كانت تقضي وقتها مُتنقّلة بين المصالح الحكومية لتُسوِّي مشكلات إقامتها في العراق، أو لتستفسر عن مصير زوجها. وكان عملها هذا، مثار إعجاب واحترام لدى مجموع العشيرة الفلسطينية.

في نهاية الأمر، أُطلق سراح عبد القادر الحسيني وعاد إلى فلسطين حيث استأنف نشاطاته على رأس حركة المقاومة. لكن أسرته بقيت في بغداد حيث كانت الست وجيهة تتابع عملها. كانت امرأة بالِغَةَ الكرامة والتكتّم لدرجة أَنْ لا أحد؛ خارج دائرة العائلة الحميمية، كان يعرف أنها تعيش في فَاَقة.

لم تكن لديها وسيلة لاسترجاع ثروتها الموجودة في فلسطين؛ وقد طلبت من المكلَّفين بتدبير أملاكها أن يبعثوا إليها النقود، إلاَّ أن ذلك المدخول أصبح غير مُنْتَظم أكثر فأكثر، فأخذت تدبِّر بِاحتراس شديد ما تتوفر عليه من مال أصبح في نُضوب متسارع.

الست وجيهه مع زوجها القائد الشهيد عبدالقادر الحسيني بعد زواجهما .

وقد اكتشفتُ، بذهول، هشاشة وضعيتها ذات يوم، حين فاجأتُ أمي وهي تهمس لصديقتها، بأنه بينما تقدم وجيهة صواني الطعام للمقاومين الشبان، الفلسطينيين الذين يُمضون الليل تحت سقفها، لم يكن أبناؤها هي، يأكلون حتى الشَّبَع. في تلك الفترة إذن، وبينما كانت صعوبة حياتها تزداد، وقعتْ الحادثة التالية التي علمتُها من أسرتها.

ذات يوم، كانت الست وجيهة تتجوّل وهي غارقة في أفكارها وسط حرارة الزوال. كانت قد خرجت من بيتها لتحاول، مرة أخرى، الحصول على إذْن رسمي يسمح لها بالاتصال مع زوجها. وكما هي عادتها، كانت تمشي رافعة الرأس، حريصة على ألاَّ تكشف همومها الشخصية للعالم الخارجي.

ولأنها مُتَّقيَّة وممتلئة بالطاقة، فقد كانت مُقتنعة بأن الله لن يُسعفها على التغلب على مِحَنِها إلاَّ إذا واجهتْها بشجاعة. ولم تكن تنسى أبداً أن زوجها كان معرَّضاً لمخاطر أكبر وأسرع ممّا هي معرَّضة له.

وهي سائرة، ذلك اليوم، خُيِّل إليها أنها تسمع مَنْ يتكلم باللّهجة الفلسطينية، فنظرت حولها محاولة التعرُّف على مصدر ذلك الصوت. غير أن محاولتها ظلت بدون جدوى. قالت في نفسها إن ذلك وَهْم ولا شك.

لكنها سرعان ما سمعت، مرة أخرى، تلك اللهجة الفلسطينية. وهي تُلقي نظرة حولها، لمحت رجليْن من عمر معيّن يمشيان أَمامها عن قُرب، وهما يَتَناقشان بِجِدّ. أسرعت الخَطْوَ للاقتراب منهما وأَرْخَتْ أُذنيْها وهي تظن أنها ربما أخطأت السمع. لا، لم تُخطئ، فقد

كانا حقاً فلسطينييْن. وفَهمتْ من الطريقة التي كانا يتكلمان بها، أن عقَبةً قد انتصبت أمام مشروعهما. وكان أحد الرجليْن ينصح بالصبر والمثابرة، بينما الآخر يريد العودة إلى القدس و الاعتراف بفشلهما في أسرع وقت ممكن. يقول الأول:

" يجب الانتظار، فسنَلقاها، بالتأكيد سنلقاها". ويعترض مُخاطبه:

- من الأفضل أن نعود. ما مِنْ فائدة، وقد أضعنا ما يكفي من الوقت.

تصدت وجيهة مباشرة للرجلين، فوضعت يدها على كتف أحدهما وقلبها ينبض بِشدّة وأفكارها تتزاحم في ذهنها؛ قالت لهما:

" اعذُراني فأنا تعرَّفت على لهجتكما. هل أستطيع مساعدتكما؟"

انْتفضا في مكانهما وقد أحسّا بِضيق لأنهما فوجئا بسؤالها، واعتذرا لها بأدب، لكن بطريقة باردة. قالاَ لها بأنهما لم يكونا يحتاجان لشيء، غير أنها أَلحت وهي تعتذر مرة أخرى عن تطفُّلها؛ ثم نظرت إلى الأول مباشرة في عينيْه واستدارت نحو الأخر قائلة:

" اعلما أنني فلسطينية أيضاً واسمي وجيهة وأنا زوجة عبد القادر الحسيني".

ظل الرجلان مشدوهيْن. ثم بادرا إلى مصافحتها وتقبيل يديها وهي مذهولة من المفاجئة: "لقد جئنا إلى بغداد للقائك"، قال أحدهما وهو يكاد يختنق.

- منذ أسبوع ونحن نبحث عنك، وكِدْنا نتخلى عن البحث، أضاف الآخر؛ أحد ما أعطانا عنواناً مغلوطاً فلم نتمكّن من العثور

عليك . يا ستّ وجيهة ، جئنا نحمل إليك نقوداً من أملاكك . "

شكرت الله من أعماق قلبها وهي تُحسّ بانفراج الغمة . طلبت من المسافرَيْن أن يسامحاها على المضايقات التي سبّبتها لهما عن غير قصد ، وشكرتهما بحرارة على الجهود التي بذلاها من أجلها . ثم دَعَتْهما إلى بيتها لتتقاسم معهما الطعام القليل الموجود لديْها .

عندما حان وقت عودتهما إلى القدس ، طلبت منهما فقط أن يُطمئنا عبد القادر زوجها ، وأن يقولا له بأن أسرته في أحسن حال .

***

1948

في التاريخ الذي انتهى فيه البريطانيون من الاستيلاء على العراق، كان الزعماء الفلسطينيون، ومنهم والدي، قد عثروا على ملجإ في إيران. لكن سرعان ما دخل البريطانيون إلى إيران أيضاً. أخذ المنفيون يتساءلون: ما العمل الآن؟

رفضوا حلَّ السفر إلى ألمانيا لأنهم لم يريدوا أن يتحيَّزوا لأي جانب في حرب يقدّرون أنها لا تهمُّهم. فضّلوا، إذن، أن يسلموا أنفسهم للبريطانيين. اعتقلوا وأُرسِلوا إلى مخيم اعتقال في الأهواز، بإيران. وفي عام **1942**، نُقلوا إلى سالسبوري في روديسيا التي كانت آنذاك تحت سيطرة الإنجليز. وعند نهاية الحرب العالمية الثانية، رفع أبي ورفاقه المُعتَقَلون في روديسيا، دَعْوَى ضدّ الحكومة البريطانية، لأنهم لم يُحاكَموا قط، ولم يصدر في حقهم أي حكم. وقد ربحوا القضية وعادوا إلى فلسطين سنة **1946**.

كانت أمي قد عادت آنذاك، إلى القدس مع بقية أفراد العائلة. أما أنَا فقد كنت تزوجت وأعيش مع زوجي في بيروت. وخلال بضعة سنين، كانت حياتنا عادية تقريباً. كنت أزور والديّ في القدس صحبة زوجي وابنتنا البِكر، كما كنت أدعوهما لزيارتنا في لبنان. كانا يحبان كثيراً

تهجير الفلسطينيين في **1948** .

الإقامة بيننا، لأنها تذكرهما بالفترة الأصعب التي وصلا فيها إلى بيروت بوصفهما منفييْن.

بِعَوْدته إلى فلسطين، استأنف أبي نشاطاته السياسية. وفي العام **1947**، ترأس الوفد الفلسطيني أثناء الجولة الثانية لمفاوضات مؤتمر لندن المتعلق بفلسطين، ودافع عن قضية بلادنا في الأمم المتحدة حيث تؤخذ القرارات العالمية الكبرى. إلاَّ أن جميع جهوده ذهبت سُدىً. ففي **1948**، نشبت حرب فلسطين، واحتُلَّ الجزء الأكبر للبلاد من لَدُنِ إسرائيل، الكيان اليهودي الجديد. وقد سقط حيّ القدس الذي يوجد فيه بيتُنا في يد الإسرائيليين. من ثمَّ فإن أفراد عائلتي، مثل مئات آلاف الفلسطينيين الآخرين، تحولوا إلى لاجئين. وقد وُضِعَ أمام الأمر الواقع، لم يصدر عن العالم ردّ فعل.

عندئذ، تَقَاطر على بيروت مئات الآلاف من اللاّجئين الفلسطينيين؛ وكان معظمهم أقل حظّاً من عائلتي التي استطعتُ أن أستقبلها في بيتي، بينما كان مئات من الآخرين يبحثون بيأس عن منازل يستأجرونها. وقد وجد الأكثر فقراً من بينهم، مأوىً في مخيمات اللاّجئين الذين يتعيّشون، يوماً بيوم، ممَّا توزعه وكالات الغوث.

رغبةً منّي في مساندة القضية الفلسطينية، التحقتُ بالمجموعات التي كانت تُنجد اللاّجئين الموجودين في البِنايات المكتظّة التي قدمتها لهم الحكومة اللبنانية.

وكانت إحدى تلك البنايات توجد بالقرب من منزلي. كنت حاملاً بابنتي الثانية وأعاني من غَثَيانات الصباح. ولِدَهْشتي، اكتشفت أن

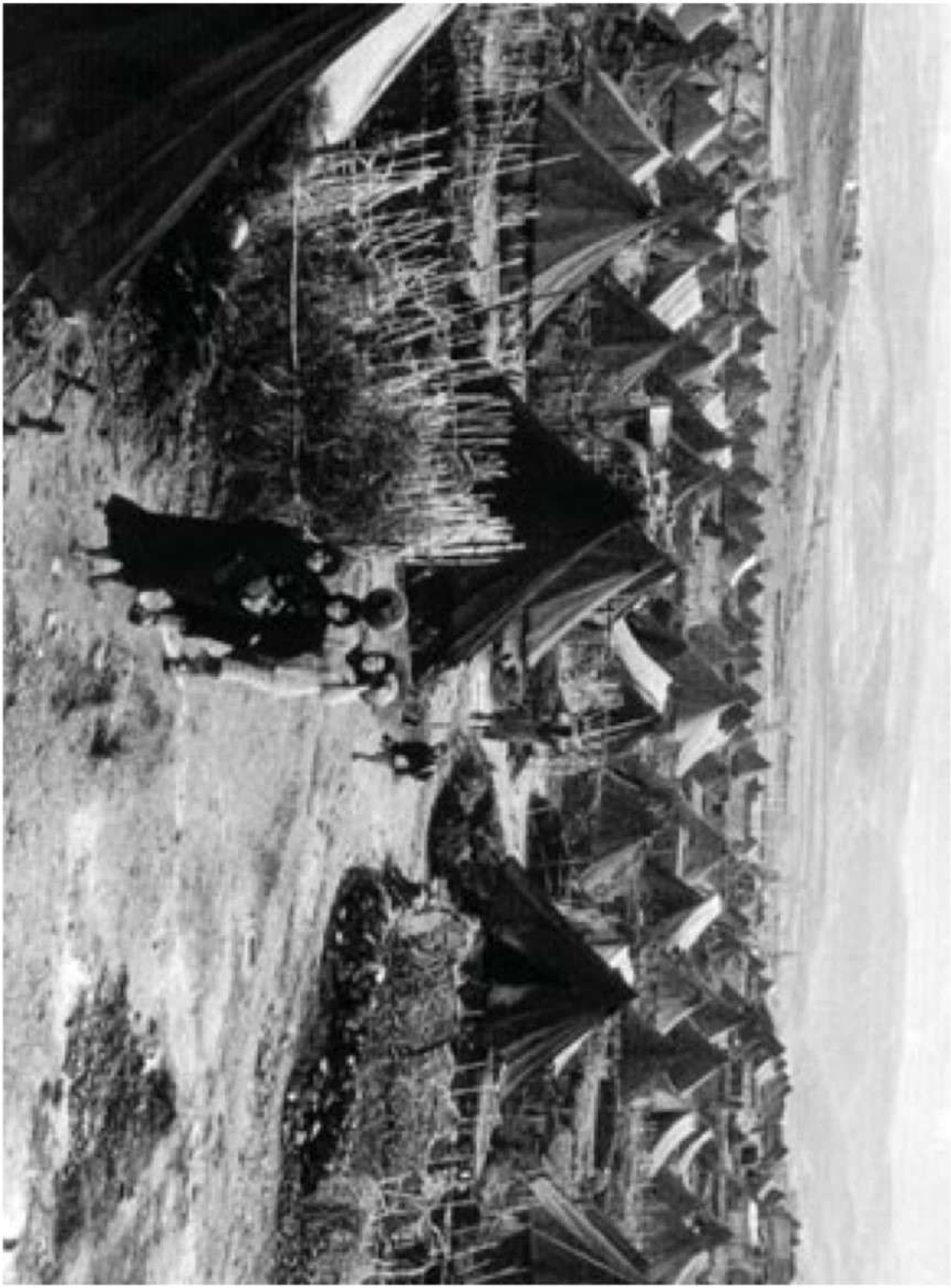

المخيمات والخيام تستقبل الفلسطينيين خارج وطنهم.

الروح البشرية هي أقوى من الجسد. ذلك أنني كنتُ أحسني على تمام الأُهْبَة، وأنا مُنحنية على قِدْرٍ كبير، بِجانب أعضاء آخرين من مجموعتنا الإسعافية، لتحضير وَجْبة اللاّجئين. لكن، بمجرد عودتي إلى البيت بعد ساعات طِوال من العمل، كانت الغثيانات تعود.

بالنسبة لعائلتي وكذلك بالنسبة لجميع الفلسطينيين، كانت تلك الفترة مشحونة بالتوتّرات والتساؤلات المتناسِلة، الحافِرة في النفوس:

والآن؟ كم من الوقت سيدوم هذا المنفَى؟ كيف سنستطيع الاستمرار في الحياة؟ ما العمل؟

***

تمزق العائلة

اشترى والِداي شقة في رأس بيروت ؛ وكانا يأتيان عندي بالسيارة بعد الظهر ويأخذانني معهما للتجوُّل في ضواحي بيروت الرائعة ، على شاطئ البحر وعلى التلال التي تعلو المدينة . ثم طلب مني والدي ، فيما بعد ، أن أرافقهما إلى بيتهما ليُمْليَ علي الخطوط العامة لكتابِ ذكرياتٍ كان ينوي كتابته غير أنه ظل مشروعاً لم يكتمل أبداً .

غالباً ، كانت المحادثات تتناول الآفاق المعتمة التي تنتظرنا . وقد أدركت ضعف مداخيل والدي . وكان الموضوع يُطْرَح بانتظام للمناقشة ، إلاَّ أنَّ أمي لم تكن تصدّق مدى خطورة وضعنا المادي . فهي كانت تتوفّر دائما على ثروتها الخاصة ، وبفَضْلها ، إضافةً إلى راتب والدي وإلى مدخول أراضيه ، لم تشعر قط بالاحتياجِ . كانت عاجزة عن أن تفهم قلق أبي ، لأنها كانت مُقتنعة بأنَّه في أسوأ الحالات ، يمكنهما دائماً العودة إلى القدس ليعيشا ـ رغم الاحتلال ـ من الأَملاك التي يحتفظان بها هناك .

على مرّ الأيام ، غَدَتْ نزهاتنا خلال ما بَعد الزوال ، مُتَوترةً أكثرْ فأكثر . وذات يوم ، جاءا ليأخُذاني معهما كالعادة ، غير أنني وأنا أركبُ السيارة ، أحسستُ أن المناخ يَكتسي طابعاً مسرفاً في البرودة . كان

الصمت ثقيلاً لدرجة أنني آثرتُ الانتظار بضع لحظات قبل أن أتكلم. سَألتهما في نهايةِ الأَمر وأنا أُحاول إخفاءَ القلق الذي كان يعصر حلقي:

" هل حدث شيء؟ هل هناك شيء ليس على ما يرام؟

نعم. أجاب أبي. لقد اقترِح عليَّ أن أصير مستشاراً في بلاط الملك عبد العزيز آل سعود".

تلفظ بتلك الكلمات في مرارة وهو ينظر إلى أمي. حوَّلتُ عينيّ نحوها فوجدتُ لونها قِرْمَزياً، لكن وجهها كان يوحي بالعزم الصارم، ففهمتُ أن هذه المسألة سبق أن كانت موضوع نقاش طويل. لقد كان الصراع القائم بينهما صراعاً حقيقياً.

" ولِمَ لا؟" سألتُ أمي وأنا أُخمِّن أنها رفضت فكرة الذهاب إلى السعودية نفسها. فاضت عيناها الزرقاوان بالدموع. كيف كان يمكنها، في سِّنها، أن تتعود على ثقافة جديدة، وعادات وممارسات جديدة؟ قالت محتجة.

كيف يمكنها التكيّف من جديد، مع عالم جديد بعد جميع التقلُّبات و الكفاحات التي عاشتها؟ كانت تفضل أن تبقى في زاوية بيتها القديم في القدس، على أَن تكون أجنبية في بلاط الملك.

كان موقف أبي على النقيض من موقفها. فهو كان يعرف أن الكفاح من أجل فلسطين سيستمر، ويُقدِّر أنه إلى حين أن يتكلل الكفاح بنتائج إيجابية ونتمكن جميعاً من العودة إلى بلادنا، ستكون الحياة، ربما، أكثر سهولة إذا حصل خلال تلك المدّة، على راتب محترم ومنزل

القدس ، **1919-1918** .

نعمتي العلمي الحسيْني ، أم سيرين .

يعيش فيه مع أمي في أَمان. كان يحب ويحترم الملك عبد العزيز، ويأمل أنه باشتغاله معه، سيمكنه أن يُفيد في مجال تحرير فلسطين.

دام الصراع بين والديَّ عدة أَشهر. ولم أعد أتذكر عدد المرّات التي طلب فيها أبي من أمي أن تختار بين منصب في البلاط الملكي، وتمثيل القضية الفلسطينية في الخارج. وفي كل مرة كانت تشمئزّ من فكرة أن تتعودَّ على طريقة جديدة في الحياة.

في النهاية، أعلن أبي أنه قَبِل تلبية دعوة من الملك عبد العزيز، وأن غيابه سيدوم بضعة أيام أو عدة أسابيع، وأنه سيخبرنا بمجرد أن يعرف أكثر. بذلك فإن موضوع سُكناهما الدائمة في العربية السعودية قد أُغْلِق. وعندما عاد والدي من سفرته، شرح لنا بأن منصبه الجديد سيضطّره إلى التنقّل المكّوكي بين لبنان والعربية السعودية. لذلك فإنه سيحتفظ بمنزله في بيروت، وسيكون ضيفاً على الملك عندما يذهب إلى الرياض.

في تلك الأثناء، كانت الحياة تُتابع مجراها في بيروت. ومع تأمين الموارد، استقرّت أمي، مع أخي وأخواتي، في شقة صغيرة مريحة. هكذا حصلت مَلَك وجُمانة على الإجازة من الجامعة الأمريكية في بيروت، ثم تزوجتا.

وبقيت أختنا الصغيرة هالة مع أمي في المنزل. وسافر أخي حسن إلى جامعة سيراكيز في الولايات المتحدة. ومِثل كثير من الفلسطينيين المنفيين، عاشت أمي حياة هادئة، بعيداً عن مجتمع العاصمة اللبنانية.

كان أبي يتردّد على بيروت كثيراً، خاصة في الحفلات، وأيام العطل؛ وكان يبدو في صحة جيدة، إلاَّ أنه لم يكن يتكلم كثيراً عن عمله في العربية السعودية.

بيروت ، **1963** .
جمال الحسيني والد سيرين بعد زواجه الثاني .

كنا نتناقش أكثر حول الوضع السياسي الدولي بصفة عامة، وأيضاً بطبيعة الحال، عن مصير فلسطين بصفة خاصة. ولعل أمي أَحسّت أن موقفه كان غريباً بعض الشيء، إلاَّ أن كرامتها البالغة كانت تمنعها من أن تسأله. غير أن شائعات عن حياة أبي الجديدة، بدأت تسري وانتهت بالوصول إلينا. ذلك أن زوجي كان يعالج كثيراً من المرضى السعوديين؛ وبعضهم مِمَّن يعرفون أن له قرابة بجمال الحسيني، حدَّثوهُ عمّا كان حماه يفعله في الرياض. وقد زعموا أن والدي تزوّج من سعودية تنتمي إلى بلاط عبد العزيز. إلا أننا اعتبرنا ذلك نميمة وتَقوُّلات بدون أساس. لكن، ذات يوم، اعترف لنا بالحقيقة العمّ إبراهيم أخو أبي الذي استقر هو الأخر في العربية السعودية. قال لنا بأن أَبي قد تزوج فعلاً وأن زوجته قد ولدتْ طفلهما الأول.

يا لها من صدمة، لنا نحن أبناءه! بعثتُ إليه رسالة مليئة بالحزن والأسى، احتفظ بها في جيبه عدة سنوات، وكلما قرأها أسالت دموعه. وقد استشهدتُ فيها بآية قرآنية:

"يا ليتني مِتُّ قبل هذا وكنتُ نسياً منسياً"

بعثتْ له أمي رسالة تطلب فيها الطّلاق العاجل، لكن والدي رفض، وتشبث بأن يظل مسؤولاً عنها وأَنْ تَرِثَهُ بعد موته بِصفتها زوجة، لا امرأة مطلقة.

كُثْرُهم الذين أُعجبوا بِوِجْهة نظر أبي وأيّدوا مفهومه للأشياء. ذلك أن المجتمع العربي كان جِدَّ مختلف عن المجتمع الفلسطيني الذي عاش فيه على الدَّوام.

وإذا كان قد رحل إلى السعودية، فَعَلَى أمل أن يحصل على مرتَّب مُريح، ويتابع النضال من أجل فلسطين. إلاَّ أنه لم يكن يتوقَّع الوحدةَ التي أَثقلتْ كاهله. كان بحاجة إلى امرأة تعيش معه وتَسنِدُه وتساعده على مواجهة تلك الحياة الجديدة والصعبة، وعلى احترام العادات التي لم يكن يعرفها. لقد تزوّج من امرأة كانت من قبل زوجة الملك نفسه. غير أنها لم تُنْجِب منه. وكان يأمل بأن يظل ذلك الزواج مسألة خاصة، بل وسِراً. لكن القدَر قرّر غير ذلك، فأصبح بعد السبعين أَباً لعائلة أخرى مكوّنة من عدّة أَبناء.

وفي الحقيقة، فإنّه بعد سنوات من ذلك الزواج، وعندما كان يُقيم في أوروبا مع الملك سعود الذي خَلَف عبد العزيز، تزوج أبي من امرأة ثالثة وِفْقاً للتقاليد السعودية!

أظن أن الإعصار الذي اجتاح فلسطين وشتّت أَهلها في أنحاء العالم، قد تركه أَبله، مذهولاً بالمعنى الحرفي للكلمة، فلم يسترجع أبداً بعد ذلك، الحالة التي كان عليها من قبل. في الأيام الأخيرة من حياته، بدأ ينظر إلى الحياة بطريقة مختلفة، وببْراغماتية أكثر، وبينما كانت رغبته الأثيرة هي صَوْنُ عائلته ومساندة قضية فلسطين، فإنه انْقادَ لهذه الحياة الجديدة. وقد كان دائماً أباً جيّداً لمجموع أبنائه، إلاَّ أنه ظلّ في أعماقه، غريباً تماماً عن طريقة عيْشه الجديدة.

آل الأمر إلى خضوع والدَيَّ إلى هذا الوضع غير المألوف. لم يعودا يلتقيانِ، إلاَّ أن والدي استمر في توفير حاجيات أمي و النَفَقة عليها. وقد بنَى لها منزلاً في "الرابية" على التّلال المطلّة على بيروت. ولِفَتْرةٍ

من الزمن، قَطَعْنا، نَحن أَبناءه، كل علاقة معه، وهو ما كانت أُمّنا تؤاخذنا عليه بِشدَّة. كانت تُذكّرنا بأنه ليس أول ولا آخر رجلٍ يُبدي ضعفه أمام وضعية حياتية جديدة.

كان أبي ينفق عليها مادّياً، لكنها كانت تجد عند الخال موسى، العَوْنَ المعنوي والعاطفي الذي كانت تحتاجه. أما نحن، أبناءها، فقد بقينا إلى جانبها حتى وَفَاتِها.

***

الخالُ موسى

بِفضل خالي موسى العَلَمي، استطعت سنة **1972**، أن أعود إلى فلسطين لمجرد الزيارة، لكنها زيارة أتاحت لي أن أرى من جديد الأرض التي انتُزِعْنا منها منذ أمد طويل.

بعد الحرب العالمية الثانية وانْقِضاء زمن منفانا في بيروت وبغداد، عاد الخال موسى إلى فلسطين. وفي سنة **1948**، عندما فُرِضَ على الفلسطينيين التّشتُّت الدائم، اثر هو البقاء في أَريحا التي كانت جزءً من المنطقة الفلسطينية التي ستُسمّى فيما بعد، الضفَّة الغربية، والتي لم تَستَوْلِ عليها دولة إسرائيل في سنة **1948**. لكن كان خالي يقيم كثيراً في بيروت، وهو ما جعلني اقترب منه وأعرفه جيداً. والعاصفة التي حطمت عائلتي لم تَسْتَثْنِ عائلته: فقد افترق هو الآخر عن زوجته بعد المأساة الفلسطينية. ولِكَوْنه لم يُنْجِب، فقد أصبحتُ أنا وأخواتي بمثابة أبنائه؛ وجعلتنا القطيعةُ مع والدي نرى فيه، نحن أيضاً، ملجأً أبوياً.

كان موسى العلمي رجلاً متميزاً. وُلِد في القدس سنة **1897** بعد سنتيْن على ولادة أمي "نِعمتي". وكان آل العلمي إحدى أُسَر المدينة العتيقة. وقد تولّى شؤونها جدّي فيْضي، وعمره ست عشرة سنة عندما خَلَف أباه. وكان فيضي، أول الأمر، موظفاً بوزارة المالية في الإدارة

القدس ، **1918** .
موسى العلمي خال سيرين قبل سفره إلى كامبردج درس الحقوق .

العثمانية، مُكلَّفاً بِتقييم المحصولات الزراعية لتحديد أساس الضرائب. وهذا العمل الذي كان يضطره إلى التنقُّل عبر جميع أَنحاء البلاد باستمرار، زرع في نفسه حبّاً عميقاً لأرض فلسطين وشعبها. ثم نُقِل فيما بعد إلى وزارة العدل. وفي العام **1902**، عُيّن مديراً لبيت لحم، وهو مَنْصِب يَسْتتبِع مسؤوليات جسيمة. فقد كانت أغلبية سكان المدينة مسيحيّةً، إلاّ أنها مقسَّمة إلى عدَّة طقوس، وأحياناً تثير حشود الحجاج الوافدين على بيت لحم منافسات تجُرُّ إلى صدامات بين تلك الطوائف المتباينة.

في سنة **1906**، أصبح فيضي العلمي عمدة للقدس، قبل أن يُنتخب نائبًا في البرلمان. وقد كان هناك ثلاثة يمثّلون سُنْجُق القدس في البرلمان العثماني بإستنبول. وهذه الوظيفة اضطرته إلى أن يعيش في تلك المدينة، فأخذ معه زوجته وابنته، تاركاً موسى في القدس لكي يتابع تعليمه في مدارس بريطانية و فرنسية وكذلك مع أساتذة مُربّين.

كان عُمُر موسى سبعة عشر عاما ونصف عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى سنة **1914**، فتجنَّد في الجيش التركي. وعند نهاية الحرب **1918**، وبعد احتلال فلسطين من لَدُنِ البريطانيين، رأى فيضي الذي كان قد عاد إلى القدس، أن الوقت قد حَانَ ليُكمل موسى دراسته، فقرّر إرساله إلى أوروبا.

هكذا أبحر موسى في صيف **1919**، باتجاه انجلترا، ليلتحق ب " ترْنيتي كوليج " في كامبردج. ولما اكتشف مدير المعهد أن موسى مُلْحَق بالجيش التركي رفض قبوله بِحُجَّة أنه لا يمكن أن يُطْلَب من الطلبة

القدس، **1918**.
موسى العلمي مع والدته ووالده.

الذين خدموا العلَم البريطاني الجلوس إلى جَنْب عدوٍّ قديم. حاول موسى جاهداً أن يفسر للمدير أنه أدّى خدمته العسكرية بصفته غير محارب، وأن معرفته اللغتيْن الإنجليزية و الفرنسية جَعلتاه يُنقَل إلى مصلحة الرقابة، لكنه ظل متشبثاً بالرفض. وعندما يئس موسى، تذكّر حينئذٍ رسالة أعطاها له أبوه ليُسلّمها إلى المستشرق الكبير أ. ج. بْرون الذي كان أستاذاً لِلُّغة العربية في كامبريدج. سلَّم إليه الرسالة فانْحلَّت جميع المشاكل: بفضل تدخُّل البروفسور برون، تمكَّن موسى من أن يسجل نفسه في ترنيتي كوليج، حيث أمضى ثلاث سنوات وأحرز على إجازة في القانون. ثم قُبِل بعد ذلك في(إنير - تامبل) أحد المعاهد الكبرى للقانون في لندن.

بعد عودته إلى القدس، بدأ يشتغل مع سلطات الانتداب البريطانية. وبصفته محامياً عن الحكومة و مستشاراً للمندوب السامي، كان أحد العرب الذين يشغلون مناصب عليا في الإدارة المنتَدَبة.

وخلال تلك الفترة، تزوج موسى سعدية الجابري التي كانت تنتمي إلى عائلة سورية كبيرة.

إلاَّ أن وظيفة موسى الحكومية انتهت باندلاع ثورة **1936 - 1939** التي قمعها الإنجليز بوحشية. وفي تلك الفترة، سافر إلى بيروت معنا قبل أن يعود إلى فلسطين في نفس وقتِ عودة المنفيين الآخرين. وفي سنة **1944**، عند تأسيس جامعة الدول العربية، كان هو الممثِّل الوحيد لفلسطين في مؤتمر الإسكندرية حيث حُرِّرَ ميثاق الجامعة.

القدس ، **1918** .
موسى العلمي مع والدته ووالده .

جاءت عقِب ذلك، سنة **1948**، وهي سنة ضياع وطننا؛ فَجرَّدونا من بيوتنا وأملاكنا في القدس، ولقيتْ أملاك الخال موسى نفس المصير.

لكنه احتفظ، مع ذلك بِضيْعة أريحا التي توجد اليوم تحت المراقبة الأردنية.

وقد أصبح بيتُه في أَريحا ملجأً لنا، وملتقى محصَّناً من العاصفة التي دمَّرت حياتنا. وقد اتجه نحو الخال موسى، آلاف الشباب الذين كانوا يبحثون عن دليل يقود خطواتهم.

وخلال أوقات الصراع، قدمت الجامعة العربية أموالاً لإغاثة الفلسطينيين. وفكّر الخال موسى في أن يستعمل قسطاً من ذلك المال، مضيفاً عليه مبالغ أخرى من عنده، ليساعد اليتامَى الذين كانوا يتزاحمون في مخيمات اللاّجئين. سيُنْشئ ضيعةً و مدرسة مهنية، وسَيُحوِّل جيلاً مضيَّعاً إلى مواطنين صالحين.

لكن أَيْن؟

جالساً تحت شرفة بيته في أَريحا كان يتأمل السَّهل القاحل لوادي الأردن: الغُور، وهو إحدى المناطق الأكثر حرارة وقفْراً في العالم. هل من الممكن أن يصنع منهما شيئاً؟ وهل الاختصاصيون أنفسهم يستطيعون أن يتأَكدوا تماماً من أنه لا يمكن زَرْعُ شيء في تلك المنخفَضات؟

شرفات، البلوطه التي يتجاوز عمرها ألفاً وخمسمائة سنه.

وراء السهل، كانت عيناه تمتدان نحو الجبال. لقد كان المطر يسقط هناك في الأَعالي، والماء يسيل في الوديان. فماذا يصير ذلك الماء؟ لا بدّ أنه يجري في ناحية مّا، تحت هذا السَّهل القاحل، كان موسى يقول في نفسه. وسرعان ما قرَّر اختبار نظريته.

كان معظم أصدقائه مُتشككين في مشروعه، وبعضهم كانوا يرون أن ذلك يستحقُّ التجربة. سمحتْ له السلطات الأردنية بأن يفعل ما يستطيعه بالأَلفَيْن وخمسمائة هكتار من الوادي، فبدأ الخال موسى الحفْر.

بدأ الحفر بمِعْزَقَة، ثم أَعَارَتْهم شركة بتْرولية مضخَّة صغيرة. وبعد خمسة أَشهر صرخ العمال معلنين الفوز: لقد عثروا على الماء العذب. وهذا الاكتشاف سيغيّر حياة الخال موسى وحياة الآلاف من اللاّجئين. بدأ الخبر ينتشر إلى أن وصل إلى سَمْع شيخ بدويٍّ كان صديقاً لجدّي فيضي العلمي. وجد، أول الأمر، أن خبر العثور على الماء شيئا مستبعد، ثم قرر الذهاب بنفسه لاستجلاء الأمر. ما قصة الماء هذه؟ فقَادَهُ الخال موسى إلى البئر. أَنزلوا دَلْواً وملأوه ماء ثم قدموه للشيخ. شرب وشرب وأعاد الشرب، ثم قال:

" الشكر والحمد لله يا سيد موسى، يمكنك أن تموت في اطمئنان، فعملك الجليل سيبقى بعدك".

هكذا أخذَ "المشروع الإنشائي العربي" - وهو الاسم الذي أُطلِق على المشروع آنذاك - تتَّسع وتزدهر. كانت تملك تربية الأبقار ومَلْبنة لإنتاج اللّبن الرائب و"البوظة" (كانا الأَفضل في الشرق الأدنى)، وضيْعة

تسمح بِتصدير الخُضر الممتازة إلى الخليج، وتربية الدَّواجن، وأكثر من مركز للتكوين المهني يشتمل على ورشات للنّجارة والحِدادة والكهرباء. وكانت تلك المراكز تكوِّن باستمرار أربع مائة صبيّ في مهن الزراعة و الصناعة التقليدية المتخصصّة.

لكن الشرق الأدنى كان يعيش أوقاتاً صعبة. وأكثر من مرّة، وصل المشروع إلى حافة الكارثة. وخلال حرب يونيو **1967**، احتل الجيش الإسرائيلي الضيعة، فتركوا نصف أراضي المزرعة مهملة، وحطموا أَكثر من نصف الآبار، وماتت مئات أشجار الفواكه أو الأشجار التَّزيينية نتيجة لِعَدم السَّقْي، وهَلَكَ معظم الأبقار و الدجاج. لكن الخال موسى عَاوَد العمل بنفس الروح النضالية، فاستطاع مشروعه أن يبقى على قيد الحياة: إِنه قائم إلى اليوم، والنموذج الذي حقّقه خلَق منافسين له.

منذ ذاك، في الغور، أرض شاسعة كانت قفراء من قبل، تحوَّلت إلى مئات الكيلومترات الخضراء المتلألئة تحت أشعة الشمس و مناكب العمال تتزاحم في نشاط دؤوب.

❃❃❃

العودة إلى أريحا

لأنه بقي في أريحا ، تحت الاحتلال الإسرائيلي منذ **1967** ، فقد كان للخال موسى الحق ، بِمُوجِب قانون " جَمْع الشّمل " ، أن يطلب لأخته الإِذْن للالتحاق به . أنجز هذا الإجراء سنة **1972** ، وكانت أمي سعيدة بالسفر إلى هناك .

بالنسبة لها ولأخيها ، كانت الحياة قد فقدت الكثير من جاذبيّتها . كانا قد وُلدا في عائلة غنية ومتعلّمة في القدس ، وعاشا وهما طفلان ، أُفولَ القرن التاسع عشر والسنوات الأولى للقرن العشرين ، وكانت حياتهما سهلة قبل أن تختفي إلى الأبد . وبالنسبة لأمي ، زواجُهما قد وضع حدّاً لشباب ذهبيّ . ذلك أن الرجل الشاب ، المثقف ، الفاتن والرائع الذي تزوّجته سرعان ما ارتاد عالم السياسة فغدت حياتهما التالية مطبوعة بمقاومة حكومة الانتداب والنضال ضد السيطرة الصهيونية في فلسطين .

إلاّ أن المضايقات الناجمة عن ذلك الالتزام قد عوَّضَها الارتياح من الحياة العائلية ، إلى اللحظة التي تعرَّضنا فيها ، بسرعة ، إلى التشتّت ، بعيداً عن الوطن . وما حَسِبناه زلزالاً مؤقتاً سرعان ما تأَبَّد .

القدس ، 1906 .

فيضى الله العلمي رئيس بلدية القدس مع ابنته نعمة وولده موسى العلمي .

بعد مرور فترة زمنية، ودائماً بفضل القانون نفسه لِجَمْع الشمل، حصل أخي وأخواتي وأنا نفسي، على الإِذن لكي نلتحق بأمنا التي كانت صحتّها تتدهور. على هذا النحو، بعد مرور خمس وعشرين سنة على رحيلنا إلى المنفى، أخذتُ طريق العودة إلى إقامتنا الشتوية في أريحا. في اللحظة التي نزلت من السيارة ودفعتُ الباب الحديديّ، كان قلبي ينبض بِشدّة. أَحسستُ فجأة، بنفس شعور القلق واليأس وأنا أجتاز، قبل ذلك في أول النهار، جِسْر اللينبي بين الأردن و إسرائيل. هل كان ذلك الاختبار فوق طاقتي؟ عندئذ فكرت في الكلمات التي تَفَوَّهَ بها الولد الذي حمل حقيبتي وأنا أجتاز الحدود في نفس صباح ذلك اليوم. قال لي وهو يلاحظ انفعالي:

" يا ستي، ما تخليهمش يشوفو ضعفك ".

هذه الكلمات الصادرة من شاب مضطر إلى أن يربح قُوتَ عيشه في ظلّ الاحتلال، جعلتني أَتَماسك.

عند وصولي إلى أَريحا، رفعتُ رأسي وتوجهتُ نحو البيت، سالكةً الممرَّ المرتفع الذي كان يفصل الحديقة عن البناية، مستنشقة بسعادة عطرَ أزهار البرتقال المتناهي إليَّ عبر جرعات متتالية. نزعتُ نظّارتي المضبَّبة بسبب الانفعال ووجدتُ نفسي أمام شجرة الكاوتشوك بالقرب من البيت. كم كانت كبيرةً!

لقد كنت موجودة مع الخال موسى عندما اشتراها وزَرعها وصلَّحها.

القدس ، **1898** .

فيضى الله العلمي جدّ سيرين من جهة أمها ، وإلي جانبه ابنته البِكر نعمتي ، وعلى حجْره ابنه موسى الذي سيغدوَ رجلاً سياسياً كبيراً .

أحسستُ بنوعٍ من الغيظ، لأنني وجدتُني مُبعَدة، متروكة. ثم تساءلتُ:

ماذا كنتِ تنتظرين؟ أن تكون الشجرة قد كفَّتْ عن النموّ لأنكِ لم تكوني هنا؟

مُتقدمةً بضع خطوات، رفعت عينيَّ. أمام المنزل الذي كان يواجهني، استسلمتُ لشعور ضاغط بالوحدة وثُبوط العزيمة. بيتنا في أريحا. . . . لا شيء كان قد تغيَّر: نفس مصاريع النوافذ ذات اللّون الأخضر الغامق، ونفس السقف الأحمر المائل، والشّرفة الخشبية والعريشة المغطاة بالياسمين من ورائها أَشجار البرتقال. وحدها جُدرانُ اللَّبِن تقشَّرتْ؛ والبُستاني العجوز، الذي كان في الوقت نفسه حارساً ويمشي إلى جانبي، غَدَتْ كتفاه منذ الآن مقوستيْن وجسده يرتعش من الاضطراب. وجدتُه جدَّ مختلفٍ عن الرجل الذي عرفتُه أيام زمان. كان قد ربَّى أسرته بالقُرب من البيت الذي كان يشتغل فيه؛ لكنه الآن، وقد ماتت زوجته وكبُر أبناؤه وسافروا بعيداً عنه، فإنه غدا يحسُّ نفسه وحيداً. لقد استمر خالي موسى يَصُونُ البيت القديم ويُسدّد حاجيات الحارس، إلاّ أنه منذ رحيل جميع مَنْ كانوا أعزّاء عليه، لم تَعُدْ له رغبة في أن يسكن البيت.

فتح الرجل العجوز الباب ببطء ودخلت إلى البيت الكبير. وقفتُ لحظة مُتجمّدة، صامتة. وكانت تلك اللحظات القليلة كافية لأن تجعل دَفقات الذكريات تِنْثال عليّ، والبيت الفارغ يمتلئ بالأصوات و الناس، وبحركة نشاطٍ دائبة. كانوا كلهم هناك: أمي، أبي، الجدّ وجميع

القدس ، **1918**.
نعمة العلمي الحسيني والدة سيرين .

الآخرين: الأعمام، العمَّات، أبناء العمّ، الأصدقاء... كلهم نُفِخَتْ فيهم الحياة فانبثقوا من عمق الذاكرة في وضوح تامّ.

أول مَنْ تراءى لي، الجدّة، أم موسى. فهذا البيت، في نهاية الأمر، قد شيَّده زوجها عند مفصل القرنيْن، من أجلها هي. وكان أعضاء العائلة وأصدقاؤها يحبون زيارتها وقضاء النهار معها، مستمتعين بالشمس، متذوّقين طبخَها الشهير. غمرني شعور عميق بالسعادة وأنا أَتذكر ما بعد ظُهْرٍ معيّن: كنت قد جئت ذلك اليوم مع جدّتي وخادمتها لتنظيف البيت وتوفير الزّاد تحضيراً لمجيء بقية الأسرة، في الغد. لم يكن لأخي وأخواتي الحق في مصاحبتي لأنهم كانوا سيُزعجوننا خلال إنجازنا للتّحضيرات.

كانت الحديقة والبيت المغلقان طوال أَشْهُر الصيف، لأن حرارة أريحا تجعلهما غير قابلْين للعيشْ، كثيراً ما يُخبِّئان لنا مفاجآت لا تخلو من طرافة: حشرات غير مؤذية تنبثق عادة من الزوايا، لكن أحيانا قد يتعلق الأمر بِعقارب. وكانت جدّتي تخاف كثيراً من تلك الأشياء: الحشرات، والرحلات في السيارة فوق طُرق مُتصلّبة ومُتعرِّجة؛ فكانت تمنع بتاتاً على الراكبين أن يتكلموا مع السائق، خوفاً من أن يُلْهوه عن مهمته.

ذلك اليوم، بعد تنظيف البيت، طافت جدّتي بجميع الغرف في تفتيش أخير. وكنت أمشي معها وهي ماسكة حُزْمَةَ مفاتيح تفتح جميع خزائن وأبواب البيت. أخيراً، وهي مرتاحة من العمل المُنْجَز وتَعِبَةٌ من الشغل، تهالكتْ على كرسيّ مريح. وبالقرب منها، كانت توجد طاولة صغيرة وضعت عليها مفاتيحها النّفيسة. غَفَتْ قليلاً، وعندما فتحت

عينيْها المثقلتيْن بالنوم وأَجالتْ بصرها في الغرفة، رأت مفاتيحها تتحرك وكأنّ أقداماً نَبَتَتْ لها. مفزوعة من هذه الرؤية، أُغْمِيَ عليها في الحال. بعد ذلك، لم تُرِدْ أن تصدّق أن المسؤول عَنَ كل ذلك الفزع إنما هو عَنْكبوت مُسالم. ظَلت معتقدةً أن الأمر يتعلق بعقرب ضخم ممتلئ سُمّاً. وكانت هذه الطُّرفة مصدر مسرة لكل أفراد العائلة.

الآن وأنا استحضر ذلك الزمن الماضي، أتنقّل ببطء داخل البيت الكبير الصامت، صاعدةً السلَّم الخشبي لألتحق بالغرفة التي كنت أَقتسمها مع جدَّتي. كنت أحب أن أتأمل قمَّة الأشجار من نافذتي وأن أنام وصوت جدّتي المرتِّلة لصلاة المساء، يُهَدْهِدُني.

من أسفل السلَّم في الطابق السُّفلي، كنت أستعيد صوت أبي الذي كانت يهمس بوضوح: "هِيهُوا! من يريد مُرافقتي إلى الصيد هذا الصباح؟" كنت أنزل الدّرج بسرعة بينما الدَّار ما تزال نائمة، لأُرافقه في التّطواف بِمُروج أريحا الفيحاء.

أول شيء علّمني إياه أبي، هو ألاَّ نصطاد الطيور المهاجرة. إنها مفيدة للزراعة وهي تكون في ضيافتنا عندما تعود إلى منازلها. وكان يضف شارحاً: لا يجب أيضاً إطلاق الرصاص على العصافير الصغيرة. ثم حكى لي قصة العصفور والصائد: لمح الصائد عصفوراً صغيراً على غصن شجرة، فأخذ بندقيَّتَه وسدَّد. ناظراً إليه، أخذ العصفور يغني:

"أنا عصفور ضعيف، وطُيَيْرٌ شقيّ
وقَطْرة زيت تُساوي أكثر من قيمتي، لو تعلمون!"

مُشفقاً على الطائر، تركه الصياد يطير، فأخذ ينتقل بِمَرَح من شجرة إلى أخرى أمامه وهو يغني بصوت ساخر:

" أنا طائر؛ من يُعاملني كَفَأْر؟
واحدة من قائمتَيَّ تكفي لإطعام بيتٍ بكامله، بالتأكيد!"

وسط دَفْق هذه الذكريات، تراءت لي أمي فجأة، شابَّة وقوية؛ فاسترجعتُ يوم زُرنا نتاشا. كيف نسيت ذلك؟ كان أول تلقينٍ أتلقّاه في مجال الجنس. كانت نتاشا روسية بيضاء تعيش، مثل فيرا وتاتيانا، بالقرب من كنيسة القدس الروسية وكثيراً ما تساعد أمي في بعض الأشغال المنزلية. وكانت أسرتها تملك أيضاً إقامة صيفية في أريحا، وتأتي باستمرار لزيارتنا، فضلاً عن علاقات أخرى.

ذات صباح، اقترحت أمي أن أذهب معها لزيارة نتاشا في الساحة، كانت دجاجات سمينة، جميلة، تَتَبَخْتَر. طلبت أمي أن تشتري عدداً من البِيض أملاً في الحصول على كَتاكيت. لكن نتاشا اعترضت:

" يا ستّي هذه الدجاجات لا يمكن أن تُفرخ كتاكيت، فليس هناك ديكٌ، كما ترين.

- ولماذا لا تتوفرون على ديك؟ سألت أمي

- ديك؟ هنا؟ ردّت متعجبة من مجرد الفكرة. أضافت: وإذن سنشاهد في هذه الحالة، العملية الجنسية! لا تفكري بذلك يا ستّي فنحن راهبات!"

كان عمري خمس أو ست سنين، وكنت أتابع تلك المحادثة بانتباه واهتمام. ثم فكرتُ في نفسي: أفهم الآن سبب هذه الجَلَبة الصادرة عن الدجاجات في الساحة! هل الآدميون يفعلون نفس الشيء؟

مرَّت ساعات على دخولي إلى البيت الكبير، وانتقالي من غرفة إلى أخرى، واستعادتي للماضي من خلال تلك الصور؛ فأحسستُ قلبي يفيض بالفرح. إلاَّ أن الصمت المخيِّم أعادني إلى الواقع: لم أكن سوى زائرةٍ هنا. طُفْتُ مرة أخيرة بجميع الغرف، واقفة عند المكتبة، مُتأملة الرُّفوف المحمَّلة بالكتب المُنْقَذَة من بيتنا في القدس قبل عدة سنوات، قارئةً عناوين المؤلفات. تجولتُ بالحديقة ولامستُ أوراق شجر البرتقال.

شيئاً فشيئاً، انْحَسرت سعادتي. كان وقت الانصراف قد حان. أعدتُ إغلاق الباب بالمفاتيح التي كنت أحبها كثيراً، وخرجت من الحديقة مُجتازة البوّابة الحديدية. تركتُ ورائي، داخل البيت، ذُرِيَّةَ أولئك الذين أَحببْتُهم، ولم أجد عزاءً سوى في شجاعة الولد الشّاب الذي التقيته، صباح ذلك اليوم، عند الجسر.

***

العودة إلى القدس

أَمضينا بضعة أيام في أَريحا مُتعرِّفين خلالها على معالمنا، عائشين الماضي من جديد، إلاَّ أن أَفكارنا سرعان ما اتّجهت نحو القُدس.

في أَريحا، لم يترك الاحتلال الإسرائيلي آثاراً جدّ واضحة. كنَّا نسكن دائماً في البيت القديم، وكنا نلتقي عماتنا وخالاتنا وأبناء عمِّنا الذين كانوا يُمضون الشتاء أيضاً في أَريحا؛ والأشخاص القليلون الذين كنّا نُصادفهم في الشوارع من غير العرب، كانوا يُوحون لنا بأن السياحة تَّزْدهر مثلما كانت عليه قبل العام **1948**.

في القدس، كانت الأمور جدّ مختلفة؛ فمنذ **1967** احتلَّ الإسرائيليون مجموع المدينة.

رافقَتْنا ابنة عمي نجوى - أُمي، ونحن بناتها الأَربع - إلى مدينة القدس. وكان على أخي حسَن أن يلتحق بنا فيما بعد. طافت بنا نجوى على المدينة عبر الأَزقَّة التي كانت ممتدَّة في ظلِّ الجدران العتيقة. وهكذا مَرَرْنا أمام عدَّة بيوت كانت من قبل في مِلْك عائلتنا. مررنا أمام "الأمركن كولوني" التي كنّا نعرفها جيداً، والمدرسة الأُسقفية، "والترا سانتا"، "والمسكوبيه"، والكنيسة الفرنسية ونَواحيها. ثم أخذتْنا إلى

فندق الملِك داوود في حيّ الطَّالبِيْة، وإلى البقاع العلوي والسُّفلي، وإلى ما يُحيط بِكلّ تلك المنازل المألوفة لديْنا والتي تحتلُّها الآن أُسَرٌ إسرائيلية. ولا أحد طرح إمكانية زيارة بيْتنا في المِصْرارا. في آخر المطاف، طلبتْ أمي، مع ذلك، من نجوى أن تقودنا إلى بيتنا. ونحن جالسات على المقعد الخلفي للسيارة، احتَجَجْنا بصوت واحد:

" كلاّ، ليس هو الوقت المناسب. ليس الآن. فيما بعد! ".

تلقائياً، وبدون اتفاق مُسبق، كان لدينا نحن الأخوات الأربع، إحساس بأننا لن نتحمَّل رؤية ذلك البيت الذي لم يَعُد بيتنا. كنا نعرف أَنه مُحتَّل من لَدُنِ إسرائيليين؛ لكن أُمَّنا، وهي في سِنِّها الثمانين، أصرَّتْ على زيارته، فاستجابت نجوى لِطَلَبها.

منذ وَصَلْنا إلى باب العمود، بدأنا جميعاً نبحث بعيوننا، مُتلهِّفات من بعيد، دون أن نتفق على ذلك. لكن، عندما توقفت السيارة أمام المدخل، أصبحنا عاجزات عن القيام بأدنى حركة. وكل واحدة تحاول إخفاء دموعها وكِتْمان حزنها. وحين رفعتُ بصري نحو بيتنا القديم الذي لم يتغيَّر فيما يبدو - نفس الشُّرفة والشجرة العتيقة، ونفس النوافذ في غرفة النوم المطلَّة على على العذراء الحاملة الطّفل في دَيْر الدومنكيين المعانق للسماء الزرقاء - أحسستُ بأن سنوات الفراق قد صَعقَتْني، فأخذت أَرتعش من الانفعال.

في الجانب الآخر من الزقاق، كان منزل الدكتور توفيق كنعان قد دُكَّ تماماً وزُرِعتْ أشجار إلى حدّ باب العمود. لقد سبق أن تحدَّثتُ عن ذكرى الدكتور كنعان وذَوِيه الذين كانوا أصدقاء لِجَدّي ولعائلتي أيضاً.

فيضى الله العلمي مع زوجة وبنات صديقه الدكتور توفيق كنعان.

وقد ذكَّرتْنا أمي بالصداقة الوثيقة التي جمعتْ بين عائلتيْنا. وبعد هَدْم منزله، رحل الدكتور كنعان ليعيش مع زوجته وأخته بالقرب من الكنيسة الألمانية. وقد ماتوا، الواحد بعد الآخر، في عزلة؛ ولم يغادروا القدس قط.

وها هي أمي، الوحيدة بيننا التي لم تضطرب، تخرج من السيارة. مُستندةً على عكّازها، ارْتَقَتْ الدرجات الثلاث المؤدية إلى الباب الرئيسي، ودقَّتْ ثلاث دقّات. انفتح الباب وظهرت يهودية في سنّ متوسطة. من داخل السيارة، سمعنا أمَّنا تسأل بأدبٍ ولكن بِحزْم:

" هل تأْذَنين لي في أن أرى داخل بيتي؟

- بيتكِ؟ قالت المرأة مذهولةً. لكننا نحن اشتريناه!

- أنا لم أَبِعْهُ؛ أجابت أمي.

كانت اليهودية تتكلم بلهجة عراقية. وعندما فهمتْ معنى هذه الزيارة المباغتة، قالت:

" أُف! لقد كان لنا بيتٌ في العراق. ما الفائدة في أن نأتي إلى هنا، إذا كنا سنجد أنفسنا في وَضْع مُحرج مثل هذا؟ ".

وعندما أشارت لها المرأة بالدخول، التفتتْ أمي نحونا، لكنّ أحداً لم يَقْوَ على أَنْ يتبعها. انغلق الباب خلفها، ولم تنْبس أية واحدة منا بكلمة طوال الوقت الذي استَغْرقَه غيابُ أمِّنا.

أخيراً انفتح الباب من جديد وظهرت أمنا صُحبةَ المرأة اليهودية وهما تثرثران مثل صديقتيْن قديمتيْن. قامتا بِجولة بطيئة حول البيت وأمنا تَتْبع الأخرى خطوةً بخطوة. وفي النهاية سمعنا أمي تشكرها.

استدارتْ ونزلت ببطء الدرجات الثلاث المؤدية إلى الزقاق.

صعدتْ إلى السيارة ونجوى أَقلعتْ. لا واحدة منا تلفَّظت بكلمة. كان المناخ مُثقلاً بالانفعال لدرجة أن السيارة كان بوُسعها أن تنفجر!

أخيراً، سألت إحدانا أمي عن أي شيء تحدَّثَتا، فَنَقَلتْ إلينا نُتفاً من حديثهما. لقد سألَتْ اليهوديةَ عمّا إذا كانت عائلتها تسكن وحدها في البيت؛ فانفجرت في ضحكة ساخرة: "وحدها؟".

"توجد عائلة في كل غرفة".

ـ لكن، أين تطبخون؟ استفسرتْ أمي.

ـ فوق حافة النافذة،، تماماً خلف المكان الذي تقفين فيه".

كانت بيوت القدس القديمة مشيدة من الحجر المقصوب و لها جدران سميكة. وكان عمق الجدار يُوفِّر لكل نافذة أو كُوَّة، عَرْضاً كافياً لِوَضْع أَصِيص نباتات كبير، أَوْ مخدَّة ممتلئة للجلوس. وهم الآن قد حوّلوا ذلك الفضاء إلى رُكْنٍ للطبخ.

أرادت المرأة اليهودية أن تعرف مَنْ بَنى ذلك البيت؛ وحينما أجابتها أمي بأنه أبوها، استفسرت المرأة عمّا إذا كان البيت مدرسة. وشرحت لها أمي بأنه بناه لِيُسْكِنَ فيه عائلته.

بينما كانت أمي تتابع حكيَها، تَوارَى انفعالي الحادّ لِيَخْلُفَه شعور إعجاب عميق بشجاعتها الهادئة. وقبل أيام، كنَّا سمعنا حديثاً عن زيارة مُماثلة قام بها طبيب فلسطيني لمنزله القديم بالقدس. وقد زوَّروه الغرفة التي كانت لطفلته الصغيرة، والتي لم تتغير عمَّا كانت عليه في

أيام الهناء التي رحلتْ. تُوفّيت ابنته أخيراً فأحس بانفعال قوي وهو يزور غرفة طفولتها. وفي نفس الليلة تعرَّض لأزمة قلبية. فهل كان عمر أمي وحالتها الصحيَّة الهشَّة يمثلان نوعاً من صمَّام الأمان الذي يتيح لها أن تتحمَّل أفضل منّا، مثل ذلك الأَسى؟

مهما يكن، فإن موقفها قدَّم لنا نموذجاً، وجعل ما تبقَّى من إقامتنا في القدس أكثر احتمالاً. أحياناً، مع واحدة من أخواتي، أو معهن ثلاثتهنّ أو وحدي في بعض الأحيان، كنت أذهب لاستكشاف المدينة التي أحببتُها كثيراً والتي حُرمتُ منها أمداً طويلاً. في كل ركن من الشارع كانت مظاهر الاحتلال العسكري الإسرائيلي تقفز إلى بصرنا؛ وعند كل ركن كان الماضي يُعاود الانبثاق. وكان انفعالنا جدَّ قوي فكُنّا بالكاد نتبادل بضع كلمات. إذا ما حاولنا الكلام، فإنه يصعب التحكُّم في حزننا؛ فكان الصمت دفاعَنا الأفضل. كنا نحس أيضاً بأنَّه لا يوجد وقت نُضيِّعه، وأن علينا أن نتشرَّب ما أمكن، تلك الذكريات الثمينة وأن نُخبِّئها في عمق أفئدتنا. وكل ثرثرة كانت ستُلهينا.

خلال زيارة أخرى للقدس، قررنا - أنا ومَلَك - أن نُمضي أياماً في "الأمركن كولوني" التي تحوَّلت إلى فندق وكانت ما تزال حاضرة في ذاكرتي. إن غرفتي ببلاطها من الحجر المصقول، ونوافذها ذات الحافة العريضة، وشرفتها المظَلَّلَة بصنوبرة فارعة، قد أعطتني انطباعاً بأنني في بيتي. أمضيتُ الليلة الأولى مع أختي في الساحة القديمة مستمعتيْن إلى خرير النافورة الصغيرة، مُعجبتيْن بشجرة الليمون القديمة وبالفواكه المذهبة التي تَنُوء بها الأغصان. تساءلتُ عمّا إذا كنت سأستطيع

التعرُّف على الغرفة التي تَقَاسمتُها مع الأخت حنَّة منذ أكثر من خمسين سنة، إلاَّ أنني سرعان ما طردت هذه الفكرة عن ذهني. إذ كيف يمكن العثور على غرفة معيَّنة داخل فندق مملوء بالسُيّاح ويُديره رجال ونساء من جيل آخر؟

إلاَّ أن هذه الفكرة ظلَّت تحفر في ذهني. بعد مرور ساعة، وقفتُ وخرجت من الساحة، وتركتُ قدميَّ وذاكرتي تَقُودَانِي وأنا مُتوجِّهة نحو الباب الذي تُفضي إلى ما يسميه الفندق جناح الباشا في الطابق الأَول. كان الباب ينفتح على ممرّ طويل فيه غرف على جانب، ونوافذ تطل على الساحة في الجانب المقابل. استَدَرْتُ يميناً واستمررتُ في التقدُّم. عند منتصف الممرّ توقفت أمام الباب الذي يحمل رقم **43** والذي بَدَتْ لي عتَبتُها من الحجر المصقول جدَّ مألوفة وكأنها صورة انبثقتْ من الماضي.

طرقت الباب. لا جواب.

نزلت إلى الاستقبال وسألت الموظف عمّا إذا كانت غرفة **43** خالية؛ وفعلاً لم تكن محجوزة، فشرحت له أنني أرغب في رؤيتها إذا كان ذلك ممكناً، فأعطاني المفتاح. ببُطء، وأنا أشدُّ يدي على المفتاح، اتجهتُ إلى غرفة **43**. كان قلبي يدقُّ بعنف وأنا ألتقي سُيّاحاً يمرُّون إلى جانبي في مَشية مَرِحة.

فتحتُ الباب وتقدمت خطوة ثم قفلته ورائي. لم أكن أتوقّع مثل تلك الصدمة. جاهدتُ لأتحكّم في انفعالي، إلاَّ أنني كنت أَرتعش بكل جوارحي. من النافذة، لمحتُ الصنوبر والجدار وراءه والمارَّة في

الشارع. مَسَحْتُ الغرفة ببصري فتعرَّفت على المكان الذي كان يوجد به السرير والمَغْسَل وحنَفِية الماء. أحسستُ أيضاً بِطعم التراب على شفتيَّ وكذلك طعم الصابون الذي غسلتْ به الأخت حَنّة فمي قبل ذلك بسنوات عديدة. توقّفتُ مُتريّثة عند الركن الذي كنتُ أَمكث فيه حين مُعاقبتي.

في تلك اللحظة انْهَرْتُ. وكان لا بدّ من وقت لأَسترجع رُشْدي. خرجت أخيراً مغلقة الباب ورائي ثم هبطت إلى الاستقبال لأُعيد إليهم مفتاح الغرفة.

***

بيتُ الشرق

بعد هذه العودة المشحونة بالانفعال في المِصرارة وإلى البعثة الأمريكية، أخذت الذكريات تَتَزاحم في ذهني، فَرَغِبْتُ في أن أستفيد من هذه الإقامة القصيرة لأرى أكثر مل يمكن من الأَمكنة والناس. أحببتُ، قبل كل شيء، أن أزور الأقارب الذين كنّا تركناهم في المدينة، وبِالأخص أبناء عمّي ورفقائي القُدامى في اللّعب.

صباح الغد، تناولت فطوراً سريعاً ثم اتجهت نحو بيت الشرق الواقع على بُعْد خطوات في حي الشيخ جرّاح أو باب الزّاهره، كما كنا نسميه أحياناً، وذلك لأَزور ابنة عمّي سلمى الحسيْني، مالكة هذه البناية هي وأخوها وأخواتها.

غمرني الانفعال وأنا أكتشف سياج الحديد على الجانب الآخر للشارع، مائلاً قليلاً نحو الأسفل. وانتصب البيت أمام عينيَّ، عالياً، رائعاً، ممتلئاً بالذكريات. كان أحد الأمكنة الذي أمضيتُ فيه مع أبناء عمّي طفولتنا نلعب في الساحات والحدائق المجاورة. واقفةً أمام سياج ذلك البيت القديم الجميل، أسلمتُ نفسي للذكريات.

خلال عطلة الصيف الطويلة، وأنا طفلة، كنت كثيراً ما أغادر منزلنا في المِصرارة لأَلتحق بسلمى. ذلك أنني، وأنا الكبرى من بين أخواتي

منزل اسماعيل بيك الحسيني الذي اصبح في ما بعد مقر م. ت. ف. بالقدس ومقر فيصل الحسيني ابتداءً من عام 1991 ودعي بيت الشرق.

وأخي، كنت أحس بالملل داخل بيتنا. كنت، في الصباح، أقرأ داخل المكتبة العائلية، وعند ما بَعْد الظّهر كانوا يسمحون لي أحياناً بزيارة أبناء عمّي.

بعد ظُهر ذات يوم، عند بداية الصيف، عندما وصلت إلى بيت سلمى وجدتُها تنتظرني وراء الباب الدّاخلي للساحة. وضعتْ أصبعها على فمها لتأمرني بعدم إحداث ضجيج ثم دَعَتْني إلى ارتياد البيت. كانت تلك ساعة القيلولة بالنسبة للأشخاص الكبار. إلاَّ أن مَنْ كان يُعطي أهمية كبرى لذلك النوم العابر ولا يريد أن يزعجه أحد مهما يكن السبب، هو إسماعيل بك جَدُّ سلمى ومالك البيت. كان يعيش وحده في الطابق الأول. كنتُ، عادة، أدخل عندهم من الباب الخلْفي، ولم ألمح سوى مرة واحدة ذلك الرجل الوقور، عند المدخل الكبير الواقع على الجانب الآخر للزقاق. وقد ترك ذلك اللقاء الوحيد لديَّ ذكرى مقترنة بملامح الكرامة والأناقة.

لكن بعد الظهر ذاك، وعند وصولي إلى البهو، أشارت لي سلمى بأن أَتَّجه نحو اليمين ثم أمسكت يدي بقُوّة لِتقُودني إلى السلَّم الكبير. كانت مفاجأتي كبيرة لأن ذلك السلّم كان يقود إلى الطابق الذي يسكنه جدّها؛ ولم يكن من حقّنا أبداً أن نَرْتَادَهُ. مُلاحِظةً تردّدي، دفَعتْني إلى أمام وأَتَتْ بإشارة كأنها تقول لي:

" انتظري، سترْين".

صعدنا السلّم ولم نقف إلاَّ عند بلوغنا المنْبَسَطَ الواسع. وبابتسامة عريضة تعلو محيّاها، أشارت إلى شيء بِأُصبعها. مُقتفية الجهة إلي

كانت تؤشر عليها، أخذتُ أَفحص الأنحاء بِبصري من دون أن أُخمِّن ما كانت تريد أن تُريَني إياه. لمحتُ ببَّغاء محبوساً في قفص، ففهمتُ أن ذلك هو سبب حماسها ونشوتها. كنت أعلم بوجود ذلك الطائر، إلاّ أنني لم أَرَهُ أبداً لأنه كان يعيش في الجناح الممنوع من البيت والذي يسكنه الجدّ إسماعيل بك.

كان الببغاء من قفَصه الواسع، يتفحَّصنا بفُضول صامت. وكان بوسعه أن يقول: " ماذا تفعلان هنا " لِشدَّة مفاجأته من رؤيتنا. كان القفص من حديد مُطرَّق أسود، يحمل بصماتٍ مذهَّبة على جوانبه وعند القُبَّة. وكان الببَّغاء بلونه الأزرق ـ الرمادي وقليل من الأحمر في عنقه، يقف على مِجْثَم خشبي يُجاوِز طوله متراً ويخترق داخل القفص من جانبيْه. خُيِّل إليَّ أنني لم أشاهد أبداً ما هو أجمل من ذلك! ومن دون أن تترك لي الوقت لأُعبِّر عن إعجابي بذلك المخلوق الغريب والجميل، جعلتني سلمى أنحدر بسرعة كبيرة في السلّم، خَشْيَةَ أن يُفْتَضَح أمرنا. بعد ذلك، حكتْ لي قصة لم أكن أعرفها عن ذلك الببَّغاء.

قالت: ذات يوم، كان جميع أفراد العائلة، أي إسماعيل بك وابناه إبراهيم وجواد، وبقيّة سكان البيت، مَدْعُوّين لقضاء النهار خارج القدس. وقد لاحظ لصوص كانوا يعيشون في الجِوار، أَن الجميع قد خرجوا؛ فاستغلوا الفرصة ليتسلَّلوا إلى البيت بمجرد ما تأَكَّدوا من فراغه. والأمر العجيب أنهم لم يسرقوا شيئاً وكأن أحداً أزعجهم أثناء عملهم واضطرَّهم إلى الانسحاب في عُجالة. وقد اقتنع أفراد الأسرة

بأن الببَّغاء قد صرخ عالياً بِاسْم جواد، كما يفعل عادةً، لأنه كان هو سيِّده المفضَّل. ومنذ ذلك اليوم والعائلة تُوكِلُ للببَّغاء مهمَّة تضليل اللُّصوص!

لما تقدَّمت قليلاً في السنّ، علمت أن بيت الشرق قد شيدّه سنة **1897**، إسماعيل بك حقِّي موسى الحسيْني، جدّ سلمى، لِتسكنه عائلته.

وكان له ابنان وبنت. وخلال العهد العثماني، عُيِّن إسماعيل بك مديراً للتعليم في القدس. كان يتكلم التركية والفرنسية والأنجليزية والعربية. ولمَّا ألحَّ على ضرورة فَتْح مدارس للبنات مثل الأولاد، نُفِيَ إلى "أضنة" في تركيا، ولم يُسْمَح له بالعودة إلى القدس إلاَّ بعد مرور خمس سنوات.

لقد كان بيته من أَجمل البيوت في القدس، وكان أعضاء العائلة يدعون إليه ذوي المقام الرفيع الذين يأتون لِلتَّمِلّي بِرَوْعة ذلك البيت الجميل.

أول هؤلاء الضيوف والأكثر نفوذاً، كان هو أَمبراطور ألمانيا غيُّوم الثاني الذي جاء إلى القدس بعد زيارته لأستنبول مجتازاً في طريقه دمشق وحيفا ويافا. وكان هدف تلك الزيارة توطيد العلائق بين تركيا وألمانيا؛ وهو ما تحقَّق بِنجاح تام.

وقد طلب أعيان القدس من إسماعيل بك أن يستدعي الأمبراطور إلى بيته ليتمنّى له مقاماً طيباً في المدينة. وكان مفتي القدس آنذاك، هو

ابن عمّ إسماعيل بك، إلاّ أن بيت المفتي كان ما يزال قَيْدَ البناء ومن ثمَّ كان طبيعياً أن يؤول شرف استقبال الأمبراطور إلى إسماعيل بك.

لم يُدَّخَر أي جهد لِجَعْل الاستقبال لائقاً بالضيف المرموق. فإلى جانب أناقة القاعات ذات الأثاث الخشبي المنقوش والمغطَّى بقماش الحرير، وإلى جانب شمعدانات الكريستال المزيَّنة بالفضَّة، ومرايا العاج ودَرَبْزينات الحديد المُطرَّق، أُضيف إلى ذلك لَمْسَةٌ رائعة: أُوقِدَ عدد كبير من الشموع. هكذا، كان البيت والسطوح الخارجية والحدائق كلها تَتَلأْلأ تلك الليلة على ضوء الشموع المتراقص. وكان أَوْجُ الضيافة أن إسماعيل بك ابْتَدع حفلاً فاتناً على شرف ضيْفه. ذلك أن ابنته رُوَيْدة وهي في السابعة من عمرها، ذكية وجميلة، قد حفظت عن ظهر قلب قصيدة ترحيبية كتبها أبوها، لتُلقيها أمام الأمبراطور. حلَّتْ ليلة الاستقبال وكان كل شيء يجري على ما يُرام. نسيم عليل يداعب أشجار الصنوبر ناشراً أَريجها على المدعوِّين المرموقين الذين كانوا يتجوَّلون وهم يعبّرون عن إعجابهم بِروعة المكان. أخيراً، خرجت روَيدة من البيت واتجهتْ نحوهم وهي ترتدي فستاناً طويلاً من الحرير خِيطَ لها في تلك المناسبة. وكانت، بشَعرها الطويل الأشقر اللاّمع على ضوء الشموع، تبدو كأنها ملاك. أَلقتْ قصيدة الترحيب مُضيفةً بذلك نكهة شخصيةً إلى ذلك الحفل الجليل. وعندما توقَّف التصفيق، أهداها الأمبراطور عِقْداً، ثم انسحبت إلى البيت فيما كان المدعوون يتحلَّقون للاستمرار في تسلية الأمبراطور.

اجتازت رُوَيدة البيت، سالكة بين الشَّمْعَدانات الكثيرة المنتصبة في الممرّات. وفي لحظة معينة، لامَسَ فستانُها الطويل وشعرها المسدَل

رويده ابنة اسماعيل بيك جالسه بشعرها الجميل مع أولاد العائلة قبل الفاجعة التي ألمت بالعائلة .

إحدى الشموع؛ وقبل أن يتمكن أي واحد من التدّخل، كانت البنت مشتعلةً لهباً. وقد ماتت بعد ذلك بثلاثة أيام. لكن أباها لم يُخبر أبداً الأمبراطور بهذه المأساة التي كسَّرت حياته إلى الأبد.

وحياة فلسطين، هي الأخرى، عرفت نفس مَصير رُوَيْدة. فخلال فترة الانتداب، وبِخاصَّةٍ بعد بداية الاضطرابات، أصبح بيت إسماعيل بك يحمل اسم بيت الشرق، وغَدَا أحد المراكز الكبرى للنشاط السياسي الفلسطيني؛ وما يزال إلى اليوم.

ما بعد ظُهر ذلك اليوم، إذن، وأَنا واقفة أمام ذلك البيت مُستحضرةً سلمى وببّغاءها، وحكاية رويدة والأمبراطور، انقطع فجأةً حلم يقظتي؛ ذلك أنني انتبهتُ إلى أن الحارسيْن الواقفيْن عند المدخل، كانا يُراقبانني بِفُضول. ولا شك أن منظري كان يبعث على الارتياب وأنا أتأمل البيت صامتةً لا أتحرك. اقتربتُ منهما بِبطء. كانا فلسطينييْن؛ وعندما شرحت لهما أنني جئت لزيارة ابنة عمّي سلمى، دَلاَّني بِأدب على باب في جانب البيت. "هذا مدخل الخَدَم" قلتُ في نفسي، وأنا مقتنعة بأنهما أَخطأا في إِرشادي. ومع ذلك توجهتُ إلى حيث أَشارا.

دخلت إلى البيت، وبعد أن مررتُ أمام عدّة غرف ومَقرَّات باحثة عن سلمى، لمحتُها آخر الأَمر. كانت جالسة خلف نافذة مفتوحة، تقرأ جريدة الصباح. تداركتُ نفسي وطرقتُ بِرِفْق على الزجاج وأنا أُناديها باسمها.

إن انفعال تلك اللقاءات لا يُعبر عن نفسه إلاَّ من خلال الأيدي المرتعشة والقلبيْن الخافقيْن. إنه من المعروف أن المقدسيين لا

يُفصحون عن مشاعرهم أمام الناس. إنّنا متعوِّدُون على كتمان دموعنا وسعادتنا باعتبارهما منافيتيْن لِلحِشْمة. دخلنا إلى ممرّ ضيِّق، صغير، مُؤَثث بِكَنَبَة وبعض المقاعد. قالت لي سلمى مبتسمة:

"هذا هو الصالون، والغرفة التي وجدتِّني فيها هي غرفتي؛ ولي مطبخ صغير في الخلف". ثم نادت ابنتها التي كانت تسكن الشقة الصغيرة المجاورة لها مع زوجها وأبنائها. والتحقت بنا أيضاً أختها التي كانت في زيارة لأريحا، فأمضينا الصبحيةَ مستحضرات الذكريات والانفعالات. وقبل عودتي إلى الفندق، قمتُ بزيارة قصيرة لفيصل الحسيني ممثل الكفاح الفلسطيني والذي كان يشغل الطابق الأول من البيت.

لقد كانت ابنة عمي سلمى الحسيني وأسرتها، من بين الفلسطينيين الذين بقوا في القدس بعد أن استولى الإسرائيليون عليها بعد سنة **1948**. وحين مات زوجها، ورحل أبناؤها للعمل في الخارج، حاولت أن تكسب قُوتَها بفضل بيتها الفخم. فكَّرَت أول الأمر أن تجعله فندقاً بِأَن تحتفظ بالطابق الأول وتؤجر غرفاً في الطابق الثاني. لكن هذا المشروع لم يكن مُربحاً لأن السُيّاح لا يمضون بصفة عامّة، سوى يوم واحد في الحي الفلسطيني في بالقدس. ثم فكّرتْ في أن تؤجر بيتها للاستقبالات والأعراس، غير أن هذا المشروع لم يكن ناجحاً مثل سابِقِه. أخيراً، بمساعدةٍ من أخيها وأبنائه، استقرَّت في جناح الخدَم القديم الموجود في الطبقة الأرضية وأَجَّرت الطابقيْن العُلوييْن لِبَيْت الشرق وَلمنظمة أمريكية تُسعف اللاَّجئين الفلسطينيين.

الشهيد القائد فيصل الحسيني .

بعد عودتي إلى الفندق، أمضيتُ ما بعد الظهر في الشرفة مُستمتعة بالصنوبر وبالمدينة الممتدَّة إلى بَعيدٍ. إن النّسيم الذي يداعب أغصان الشجر يأخذ معنى جدّ خاص في هذا المكان. وأنا قاعدة على كرسيٍّ طويل وكأنني داخل مسرح، أخذتْ تمرُّ أمام عينيَّ حياتي وحياة عائلتي في القدس.

كنتُ أنصتُ إلى ضَوْضاء الماضي وأستمع مرة أخرى إلى حكايات ذلك الزمن الذي مضى إلى غير رجعة.

***

اجتماعات الأُسرة

بعد هذه الزيارة الأولى إلى فلسطين، رجعنا إلى بيروت. وفي سنة **1975** عندما انْدلعتْ حربُ لبنان، ذهبت أمي لتُقيم عند أخيها في أريحا.

وفي العام **1977**، أدرك الخالُ موسى أن أيام أُخته أصبحت معدودة. دعانا جميعاً لِنُرافق أُمنا في أيامها الأخيرة. كانت صحتها قد تدهورت كثيراً إلى درجة استدعتْ إدخالها المستشفى. كانت قد بدأت تفقد ذاكرتها، وغالباً لا تفهم ما يجري حولها. كانت تعرف أنها في بيتها، لكنها لم تكن تتعرف على أشيائها الخاصة. وذات يوم سألت الخال موسى:

" يا أخي العزيز، هل أَتينا إلى هنا لِنُدْفَن؟ ".

وهذا السؤال الذي أكَّد هشاشة حالتها، هو ما جعل الخال موسى يدعو صهره إلى زيارة زوجته المحتضَرة والتي كان يعيش بعيداً عنها منذ عشرات السنين.

وعندما تلقَّى والدي، البالغ منذ ذاك أكثر من ثمانين سنة، رسالةَ خالي موسى، كاد يقعِ على قَفاه؛ فقد مضت أكثر من ثلاثين سنة لم يَزُر خلالها القدس وتقريباً نفس السنوات منذ آخر لقاء بِزوجته.

سمحت السلطات الإسرائيلية بهذه الزيارة، واجتاز والدي جِسْر أَلِنْبي على نهر الأردن، بين عمان وأريحا، متحملاً المشاقّ المعتادة لهذا السفر، من انتظار وتفتيش، والتي يعرفها جميع الفلسطينيين الذين يمرّون من تلك الحدود.

كان قد مرَّ وقت طويل على لقائنا مجتمعين وكانت سنوات الفراق مَمْهُورةً بكثير من المحن والفراقات. ونحن مُتحلِّقون حول سرير أمي، كُنّا نجد من الطبيعيّ والغريب في الآن نفسه أن يضع كلٌّ من هذا الرجل الشيخ وتلك المرأة العجوز عينيْهما أحدهما على الآخر، بعد كل هذه العقود من الفراق. سألتُ أمي التي لم نُخبرها بزيارة والدنا:

" هل تتعرفين على زائرك؟

ـ بطبيعة الحال، أجابتْ؛ إِنَّه ابن حماي"!

ذلك أن ذاكرتها قفزتْ خمسين سنة إلى الوراء ووجدت ملامح الأب في ملامح ابنه.

بعد فترة قليلة من وصول والدي، خرجت أمنا من المستشفى، لأن الأطباء لم يعودوا قادرين على فعل شيء من أجلها. أَخذناها إلى أَريحا عند الخال موسى في بيته في "المشروع الإنشائي العربي" حيث كنَّا نسكن جميعاً.

استأنف الخال موسى مسؤولياته الإدارية، بينما كان أبي يتشرَّب، حرفياً، أَقل نَسمة هواء تهبُّ في هذا البلد الذي فارقَه زمناً طويلاً. وكُنَّا أخواتي وأنا نهتمُّ بِوالدتنا. وكل صبح يأتي أبونا ليزورها في غرفتها،

نعمتي العلمي الحسيني والدة سيرين .

مازحاً معها ومُشاكساً لها. كنا متيقّنين الآن أنها عرفَتْه، لكنها لم تقل شيئاً عن ذلك. كانت تتركه يثرثر وتُدير عينيْها بعيداً عنه وتسأل واحدة منّا:

" مَنْ هو هذا المزعج؟ "

بعد هذه الزيارة الصباحية لعائلته، كان أبي يتجوّل في أَريحا التي التقى ثانية بكل أركانها وهو في منتهى السعادة. كان يحب بالأخص، أن يَتُوه في الحقول وأن يكتشف من جديد النباتات الأليفة لديْه.

استغرقت السلطاتُ الإسرائيلية بِضعةَ أسابيع قبل أَن تكتشف هُوِيَّة والدنا. إلاَّ أنها لم تكن مقتنعة أنها منَحتْ سهواً إِذْنَ العودةِ إلى رجل لا يجب أن يحصل عليه.

ذات يوم، رنّ جرس الهاتف:

" هل يمكن للصحافة أن تحصل على حديث مع جمال الحسيني؟

ـ آسفة، إنه ليس هنا

ـ هل جمال الحسيني هو ذاته جمال الحسيني؟

ـ جمال الحسيني هو جمال الحسيني، ".

بعد قليل مكالمة جديدة:

" هل يقبل جمال الحسيني أن يستقبل السيد والسيدة س. ؟

ـ نعم، بطبيعة الحال".

بمجرد أن وصل الزائران، تعرَّف والدي على الأنجليزية الشابة التي كانت جارته في أريحا قبل سنوات عديدة. كانت قد تزوجت يهودياً

عراقياً أصبح الآن موظفاً كبيراً في الحكومة الإسرائيلية. وَصَلا في الثانية عشرة زوالاً، وبطبيعة الحال دعوناهما لمشاركتنا غداءنا في الحديقة. كانت محادثتهما في منتهى اللّطف والمناخ بَالِغَ الودّ. ولم يُثيرا مسألة إقامة والدي في أريحا ولو لحظة واحدة، غير أن الزائريْن استغلاّ الفرصة ليتأكّدَا، سرّاً، من هُويَّته.

في الغد، استُدعي والدي من لَدُنِ حاكم أريحا العسكري. كان عليه أَن يتواجد في المكتب عند الساعة الثانية عشرة. انتشر نبأُ هذا الاستدعاء في البلدة، مثل سحابة من الغبار. كنتُ وأخواتي، ونحن نتنقل من جناح والدتنا إلى مكتب الخال موسى تحت ظلّ الأشجار الفارعة، نحسُّ بأسئلة مقلقة تشغل ذهنَنا. كيف ستَمر الأمور؟ هل ستنقلب إلى مأساة؟ وهل هذا التحقيق معه يعود إلى وزارة العدل أم إلى الجيش؟ لم نكن نعلم مطلقاً أي شيء عمّا ينتظرنا.

عاد أبي من ذلك الاستنطاق بعد بِضع ساعات وابتسامة عريضة على شفتيْه. قال لنا: الحاكم العسكري هو شاب يتكلم العربية جيداً. وقد سأله أبي بعد سماعه عن البلد الذي جاء منه، فأجابه الحاكم بأن أباه من أصل يَمَني.

" في هذه الحال، لاحظ أبي، سيكون له نفس عُمُري.

- نعم، أجاب الحاكم العسكري، عمره أكثر من ثمانين سنة وهو في صحةٍ جيدة، الحمد لله.

- بالتأكيد أن صحته ليست أفضل من صحتي، رد والدي. فأنا أيضاً سِنّي تفوق الثمانين إلاَّ أنني أَب لأبناء صغار".

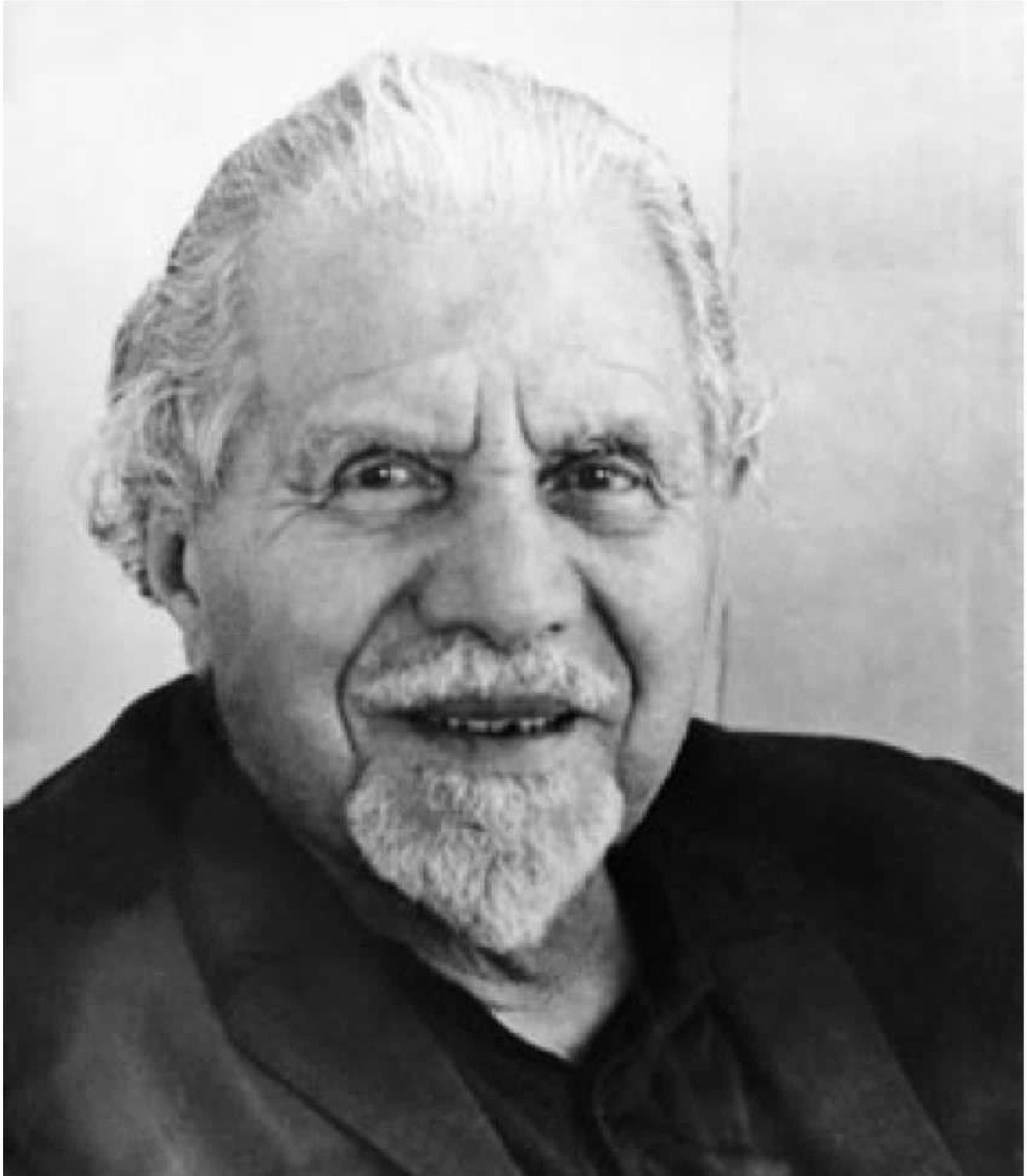

جمال الحسيني والد سيرين .

انفجر الحاكم ضاحكاً وأعلن: "تصوَّرْ أنّ والدي رُزِق طفلاً منذ أمد قصير"!

هذا التَّصادف المتطابق سلَّى كثيرا الرجليْن وأحدث انفراجاً في المناخ.

وقد سأله الحاكم بعد ذلك "بِصفتكَ رجلاً سياسياً، ما هو رأيك في السلام بين العرب واليهود؟

- السلام بين العرب واليهود؟

فكرّ والدي لحظة قبل أن يجيب: "بما أن والدك يمني، فلعله يعرف الشعر العربي الكلاسيكي. لذلك اسمَحْ لي أن أُنْشدك بعض أبياته:

وما الحربُ إلاّ ما عَلِمْتُم وذُقتم وما هو عنها بالحديث المرجَّمِ
متى تبعثوها تبعثوها ذميمةً وتَضْرَ إذا ضَرَّيْتُموها فَتَضْرمِ
فَتَعْرككمْ عَرْكَ الرَّحى بِثقالها وتلقح كِشافاً ثم تُنْتج فَتُتْئِمِ

رَانَ الصمت فيما الرجلان يتأملان ما ورد في هذه الأبيات. ثم تَوَادَعا بعد أن رافق الحاكم العسكري، مُتلطِّفا، والدي وراء الباب.

لاحظ أبي معلّقاً على ذلك اللقاء بارتياح:

"لقد كان هذا اللقاء فعلاً حضارياً"

لكن، في باكر الغد، سُمِعَ طَرْقٌ على الباب: جاءت السلطات الإسرائيلية تأمر أبي بمغادرة البلاد فوراً.

تُوفيتْ والدتي في اليوم التالي لمغادرته. أما الوالد فقد مات في الرياض سنة **1982**.

***

موسى العلَمي والاجتماع الأخير

في العام **1984**، توجهنا جميعاً، أخي وأخواتي وأنا، إلى عمّان حيث يوجد الخال موسى طريح الفراش في حالة خَطِرة.

بمجرد وصولنا، توجّهنا إلى المستشفى حيث وجدناه ممدّداً على فراشه؛ وملامح عزّة النفس تنبعث من ذلك الرجل البالغ ستة وثمانين سنة. كان رأسه المسنَد بين وِسَادتيْن، يبدو وكأنه نجا من عاديات الزمن. كان مؤثراً، مهيباً، بشعره الأبيض المنثور، ولحيته النابتة حديثاً والتي كانت تحيط بوجهه كَهَالةٍ.

لقد تمَّ تشخيص الغَنْغَرِينَة التي أصابت قدمه اليسرى نتيجة مرض السكَّر الملازم له منذ سنوات، في القدس.

وأدرك الطبيب الدكتور أمين مجج، أحد أفضل وأقرب أصدقاء الخال موسى والذي تَقاسَمْنا معه تجارب كثيرة بحُلوها ومُرّها، أنه من المتعذِّر علاجه بكيفية لائقة، في القدس العربية الخاضعة للاحتلال.

ولِحُسْن الحظ، كان الدكتور مجج عضواً في البرلمان الأردني ووزيراً سابقاً، فتمكَّن على رغم الصعوبات، من أن ينقل مريضه إلى عمّان. وعند وصوله إلى العاصمة، اتصل الدكتور مجج بالسلطات

الأردنية التي سهّلت دخول الخال موسى إلى المستشفى العسكري الذي كان يُعتبر الأفضل في عمّان. وألحَّتْ السلطات، بكَرمٍ، على أن يكون الخال موسى ضيفاً في علاجه على الحكومة الأردنية.

لقد عاش خالي موسى مُؤمِّلاً دائماً أن يتفهَّم العالم أخيراً الأَضرار التي أَلحَقها بالفلسطينيين ويعمل على رَفْع ذلك الظلم. إلاَّ أن الشيخوخة أدركَتْه قبل أن تتحقّق أمنياته. وكانت أُختي هالة التي تعيش معه هي التي طلبت منا الحضور جميعاً عندما رأت أن حالته تتدهور بسرعة. ومثل معظم العائلات الفلسطينية، كانت عائلة الخال تعيش مشتَّتة في أنحاء العالم. وهل هناك، اليوم، عائلة فلسطينية تنعم بسعادة العيش مجتمعة تحت نفس السماء؟

وصلنا، إذن، إلى عمّان من أجل هذا الاجتماع العائلي الحزين. نهاراً وليلاً كانت إحدانا تظل ساهرة عليه. وامتدّ مَرَضُه زمنياً وكان لا بد من بَتْرِ سَاقه... رحل الشتاء تاركاً مكانه للربيع، وأخذت الغيوم المزْبِدة تمرُّ عند تلال عمّان الخضراء، تحت بصر الخال موسى الذي كان ينظر، حزيناً، يائساً، من نافذته في غرفة المستشفى.

ذات صباح، رفض أن يتناول الطعام وحاول أن ينزع أَنابيبَ الحقْن المتواصل الذي وضعه الأطباء أملاً في إطالة حياته. وقد حاولت إحدى الممرضات أن تعطيه حُقنة فلم تتمكّن واضطرت إلى أن تبدأ من جديد قائلةً له:

" هذا لا يُؤلم. لا تنظر إلى الإِبْرة، انظر إليَّ.

ـ لن أَفعل، بالتأكيد، أجابها الخال، لأن عينيْك ستجرحانني أكثر".

لقد حافظ على ابتسامته الفاتنة القديمة.

تمكَّن من إغلاق عينيْه ليخفّف الألم الذي يَعْتَصِرُه. ثم فتح عينيه وسأل: "هل يعرفون ما وَقَع لنا؟".

هل العالم على عِلْم بكل تلك المظالم؟ إن أحداً قد ارتكب خطأً في مكانٍ مّا، لكن أي خطأ هو؟ ولماذا؟"

في فترات أخرى، كان صمته الطويل وعيناه المغلقتان، يُقلقانَنِي، فكنت أحاول استدراجه للكلام، طالبة منه أن يحكي لي ذكرياته عن الزمن المنصرم وعن أصدقائنا القُدامى. لكنه كان يجيبني:

"ليس لدينا أصدقاء".

لم أكن قط أتركه يلمح دموعي، وهي دموع لم تكن تجري من أجله فقط، ومن أجل الفُقدان الهائل الذي يُمثله موته بالنسبة لنا، وإنما من أجل كل جِيْله والجيل التّالي، ومن أجل جميع الفلسطينيين المحكوم عليهم بأن يموتوا في الخارج بعيداً بعيداً عن موطنهم.

تُوفّيَ الخال موسى العلمي عند غَسَق يوم **8** يونيو **1984**.

في الغد، رافَقْنا نَعشه، صحبة بعض الأصدقاء، إلى الجهة الأخرى من جسر أَلِنْبي، في مكان كان يسمى قديماً فلسطين. عند الحدود، خَضَع نَعشه وجثمانه للتفتيش: ذلك أن انْتهاك الحرمات مستمر حتى ما بعد الموت!

موسى العلمي في السنوات الأخيرة من حياته.

تَابَعنا طريقنا إلى القدس حيث تجمَّع فلسطينيون من كل أَنحاء البلاد في موكبٍ جنائزي يقودُه تلامذة البلدة الذين كانوا يَدقُّون بِحُزْنٍ على طبولهم. وكان الصَّدى يتردد، مُحزناً، عبر أزقة المدينة القَديمة. مرَّ الموكب بِبطء أمام المسجد الأَقصى وأمام كنيسة القيامة، مُجتازاً باب العامود قبل الوصول إلى المقبرة التي دُفِن فيها، من قبل، والدُ الخال موسى. تَوحَّدت أَصواتُ المآذن وأجراس الكنائس لتستقبل ابناً فلسطينياً عَرف أخيراً طريق العودة.

***

العم ابراهيم والخالة تانتي أَلْمَاني

بالنسبة للذين لا يَعْرِفُونهما ، كان للعمّ إبراهيم والخالة أَلماني ، كل ما يلزم لزوجيْن جديْن ، مُتَّزنيْن . والواقع أن رِبَاطَهما لم يكن فقط أَغرب زواج عرفتُه ، بل كان أيضاً الأكثر سعادة وغِنىً في مجال المغامرات . وقد كنتُ أُحبهما .

عرفا ستين سنة من حياة زوجية مُفعمة بالحب والصداقة والتفاهم . كانا يعيشان في عالم خاصّ بهما ، وكان الرِّباط الجامع بينهما جدَّ قوي لدرجة أن أيَّ حدث خارجي لا يستطيع أن يُزَعْزعه . وحتى في أوقات البؤس ، كانا أيضاً سعيديْن معاً مثلما كانا سعيديْن خلال سنوات الثروة والازدهار .

كان ذلك في العشرينات من القرن الماضي ، وأنا ما أزال صغيرة ، عندما سمعتُ الحديث لأول مرة ، عن العمّ إبراهيم . كنت قد ذهبت لزيارة جدّتي من جهة الأب ، في بيتها الكبير بالقدس والواقع في حيِّ الشيخ جرّاح ، والممتلئ دائما ، فيما يبدو لي ، بأولاد العمّ وبالأعمام والخالات . وقد تحوّل ذلك البيت بعد ذلك ، إلى مَيْتم ومدرسة . وذات يوم ، أخبروني أن إِقامتي عند جدّتي ستكون قصيرة لأنها مضطرة إلى السفر إلى يافا لحضور زواج العم إبراهيم .

كان لي سبعة أعمام وعمَّتان، إلاَّ أنني لم أسمع قط عن ذلك العمّ، وكنت أسأل مُتَعجبةً: "لكن، من أين خرج هذا العمّ؟".

وكان سؤالي هذا، يُسّلِي كثيراً الكبار، فكانوا يَسْتعيدونني إياه مرّاتٍ عديدة خلال السنوات التالية.

وقد تبدو قصةُ خطوبة وزواج العمّ إبراهيم والخالة أَلماني بعيدة عن التصديق، إلاّ أنها حقيقية تماماً. وكنت قد سمعت شذرات منها في طفولتي، وفقط في الأيام الأخيرة خلال اجتماع عائلي في بيروت، طلبتُ من الخالة أَلماني التي أصبحت أَرملة في الثمانين من عمرها، أن تَقُص عليّ كل التفاصيل.

لا شيء كان سيحدث، لو لم تكن فلسطين أَرضاً لِلأنبياء والديانات التي تجذب العديد من الإرساليات ومدارس البعثات. وقد كان الرُّهبان الهَيْكَليُّون الألمان جدَّ معروفين في العديد من المدن الفلسطينية مثل القدس.

ولا شك أن علاقات الجوار هي التي جعلت آل الحسيني، الراغبين في تأمين تعليم ممتاز لأبنائهم، يَتلقَّون النُصح باختيار التعليم الألماني. وهكذا سافر سبعة أبناء من العائلة، إخوة أو أبناء عمّ، ليتابعوا تعليمهم العالي بِألمانيا. وسيصبح بعضهم أطباء أو دكاترة في الفلسفة أو مُتخصّصين في بعض العلوم.

وأثناء مغادرتهم فلسطين، تلقى الأولاد وصيَّة بأن يُراعوا السلوك الحسن ويحترموا العادات الأوروبية.

وكانت الملابس التي يحملونها مع أَمْتعتهم تُراعي ليس فقط الفُروق المناخية بين أوروبا وفلسطين ، بل أيضاً عادات البلاد التي سيذهبون إليها . وعلى ذلك ، فصل لهم الخياط بدَلاً من قُماش صُوفي أَسْمَكَ من ذلك الذي كان يُرتدى عادةً في فلسطين ؛ وبَدَلاً من قُمصان النوم التقليدية ، اشترُيَتْ بيجامات حسب الموضة الأوروبية . وأُخْبِر الأولاد بأنه في أوروبا يكون على الناس المحترَمين أن يُغيروا ملابسهم قبل العشاء .

عند وصولهم إلى فُندقهم الصغير في هايدلبرغ ، تكلَّف أحد الأَبكار ، وهو إسحاق ، الذي أصبح فيما بعد دكتوراً ، بالسَّهر على مَنْ هم أصغر منه والذين كانوا قلِقين ومُسْتَثارين من ذلك التغيير الجذري . وتعرَّضَت فطنتُه لاختبار صعب عندما سألوه لأي شيء تصلح الغطاءات الضخمة المنتَفِخة والموجودة فوق أَسِرَّتهم .

وانتهى به الأمر إلى إدراك أن الأمر يتعلَّق بلحافات الرِّيش التي تمَّ تكييفُها مع الطقس القاسي ، كما شرح ذلك ، منتصراً ، لإخوته وأبناء عمِّه .

وقد ذكَّرهم أيضاً بألاَّ ينسوا تغيير ملابسهم استعداداً للعشاء كما أَوْصَتْهم عائلاتهم . وفي الساعة المحدَّدة ، نزل الأولاد السبعة السلَّم ليلتحقوا بقاعة الأَكل مُتَبَخْترين في زَهْوٍ ، داخل بيجاماتهم الجديدة . لقد غيروا ملابسهم كما طُلِب منهم . . .

في قاعة الأكل ، توجّهت نحوهم جميع الأنظار . وكان من المدعوين ، رجل اسمه هيرجونكوس مصحوباً بزوجته وابنهما ، وقد

عم سيرين إبراهيم الحسيني وزوجته السيده هيلدا "طنتطي ألماني" .

جاؤوا من مدينتهم كونستانس لقضاء عطلة قصيرة في هايدلبرغ. وقد أحس هيرجونكوس بتعاطف مع الأولاد، مدركاً أنه ليس سهلاً على أجانب فِتْيان أن يعيشوا في بلاده ألمانيا. وابتداء من تلك الليلة، جعل يُزجي لهم نصائح ثمينة تتصل بدروسهم وجامعاتهم. وكانت ابنته هيلدا ما تزال صغيرة، وقد درست فيما بعد لتُصبح طبيبة أسنان وهو التخصُّص الذي سيقودها نحو شواطئ فلسطين البعيدة.

بعد سنوات من إنهاء هؤلاء الشبان دراستهم وعودتهم إلى فلسطين، سمع هيرجونكوس عن داوود الحسيني، أحد أبناء العمّ الذين درسوا في هايدلبرغ. وكان داوود الذي تخرج من الجامعة الأمريكية في بيروت قد أصبح طبيب أسنان واستقر في يافا؛ وكان محتاجاً إلى مُساعِدة. وكانت هيلدا التي أنهتْ دراستها لِلتَّوِّ، تبحث عن عمل، وهذه المصادفة السعيدة قادَتْها إلى فلسطين.

ارتاحتْ هيلدا من التجربة المهنية التي اكتسبتْها في عيادة العمّ داوود في يافا إلاَّ أنهما كانا يعملان كثيراً فلم يكن يتبقَّى لها فراغ للسياحة وزيارة الأماكن التاريخية المهمة في فلسطين. مرَّ الوقت وحَانَ موعد عودتها إلى ألمانيا. عندئذ عبَّر لها العم داوود عن أسفه لكونه لم يصاحبها لزيارة مَعَالِم البلاد نتيجةً لشدَّة انشغاله، ثم توجّه إلى أخيه إبراهيم مُلحاً عليه في أن يُقدم له معروفاً وذلك بأَنْ يقوم بجولة صغيرة مع مُساعِدَتِه هيلدا. قَبِل العم إبراهيم هذه المهمة مع بعض التخوُّف، لأنَّه كان يعرف أن المساعِدة لا تتكلم لا الأنجليزية ولا العربية.

وهو بدوره لم يكن يعرف كلمة واحدة من الألمانية، لأنه لم يكن مِنْ هؤلاء المرسَلين لإتمام دراستهم في ألمانيا.

وعلى رغم مشاكل التواصل هذه، فقد نجح في أن يُرِيَها كل ما كانت تريد رؤيته. وبعد انتهاء جولتهما ووصول يوم سفر هِيْلدا، رافقها العمّ إبراهيم إلى الميناء ليحمل لها أَمتعتَها.

غادرت الباخرة يافا، وبعد أن التحق بها رُكّاب آخرون في بعض الموانئ المجاوِرة، عادت إلى رصيف الميناء، كالعادة، قبل أن تَشْرع في رحلتها عبر البحر الأبيض المتوسط.

وقد حَكَتْ لي هيلدا جونكوز، الخالة أَلماني، هي نفسها بقية القصة:

" عندما عُدنا إلى يافا قبل أن تبحر السفينة، سمعت نَفِيرَ باخرة أخرى في البعيد، وكأنما كانت تُنادينا. أثار ذلك اهتمام الركاب فتجمعوا على الجِسر. كنا نتساءل عمَّا إذا كانوا يريدون أن ينبهونا إلى خطر مّا. كانت الباخرة الأخرى تشق طريقها نحونا، وكانت إشارتها الصوتية تَرِنُّ مشؤومة في أذني، وأنا أنظر إلى البعيد في قلق. فجأةً، سمعت اسمي الخاص يخترق الأمواج:

" نطلب هيلدا جُونكوز! نطلب هيلدا جونكوز!"

" في تلك اللحظة، لمحتُ إبراهيم واقفاً على جسر الباخرة الأخرى صُحْبَةَ ثلاثة ضباط بريطانيين. وقد علمت فيما بعد، أنه كان لا بدَّ له من إِذْنٍ خاص من المصالح البريطانية حتى يتسنى له أن يوقف الباخرةَ التي كنت أوجد فيها.

" وقد صاح أحد الضباط الأنجليز بأَنه كان مكلّفاً بأن ينقل رسالة من إبراهيم الحسيني إلى الآنسة هيلدا جونكوز. وإذا كان الجواب نَفْياً، فعلى الآنسة هيلد أن تحرك رأسها من اليمين إلى اليسار؛ وإذا كان الجواب بنَعم فعليها أن تحرك رأسها من أعلى إلى أسفل. وبما أننا لم نتحدث أيَّ لغة مشتركة، أنا وإبراهيم، فإن الضباط وقائد كل سفينة اضْطَّلعوا بدور المترجم.

" صاح أحد الضباط البريطانيين بالسؤال: هيلد! هل تريدين أن تتزَّوجيني؟

" بقيتُ مشدوهة، إذْ أنني لم أَتخيَّل لحظة واحدة أن إبراهيم كان يُكِنُّ لي مثل تلك العواطف. ماذا أقول؟ كيف أَتصرف؟ وأنا، ما هو شعوري نحوه؟ وكيف أعرف ذلك في وقت جدٍّ قصير؟

" عندئذ، وعينايَ تنظران إلى أمام وكأن ضباباً يلُفُّني، حركتُ رأسي مرة إلى اليمين وأخرى إلى اليسار. بعد صمتٍ قصير، كُرِّر السؤال ومن جديد حركت الرأس. وبعد لحظة صمتٍ جديدة سمعتُ صوت إبراهيم: " هيلد! هيلد! هل تَقْبلين أن تتزوَّجيني؟ "

" كان صوته في منتهى الحزن فأَيقظ فيَّ مشاعر ما تزال غافية. ومن وراء الأمواج كنت أقرأ اليأس على وجهه. وكان واضحاً أَنه على وَشْك أن يتخلَّى عن طلبه. نظرت إليه ثم صحتُ، وأنا أحرك رأسي ثلاث مرّات من أعلى إلى أَسفل: نعم، نعم، نعم ".

إن التواطؤ العميق الذي كان يجمع العمّ إبراهيم والخالة ألماني قد

تغلَّب على حاجز اللغة الذي استمرَّ يُفرِّق بينهما حتى بعد ستين سنة من زواجهما. وإلى نهاية حياتهما، كانت جميع مُحادثتهما تتم من خلال مزيج من الألمانية والعربية والأنجليزية، وهو ما كاد يسبّب لهما، ذات يوم، هموماً كبيرة. فقد ذهبت الخالة ألماني لزيارة أسرتها في ألمانيا عند اندلاع الحرب العالمية الثانية. وخلال فترة لم تتمكَّن من العودة. وعندما استطاعت أخيراً أن تعود إلى فلسطين، أوقَفَتْها السلطات البريطانية؛ ذلك أن مصلحة الرقابة التي قرأت رسائلها إلى زوجها الخال إبراهيم، اتَّهمتها باستخدام شَفْرة للتواصل معه. ومن العبارات التي أَيقظت ريبةَ الجيش البريطاني، العبارة التالية: "**Tea mit nanaa**". وقد جعلت الخالة ألماني تشرح هذه العبارة الغامضة من داخل الغرفة التي سُجِنَتْ فيها، وتَبيَّنَ أنها مشتملة على كلمة أنجليزية وأخرى ألمانية وثالثة عربية، وكانت تقصد أن تقول له: "شايٌ بِالنَّعناع"!

في سنة **1948**، كنت أعيش مع زوجي في بيروت عندما وَصَلَها العمّ إبراهيم والخالة ألماني بوصفهما لاجئيْن. وكان كل مَتَاعِهما الملابس التي يَرْتَديَانها وابنيْهما: بنت وولد. ويبدو لي، في غمرة زَوْبعة التَّرحيل، أنَّ التلاحم العميق لهذه العائلة قد مَكَّنها من أن تتحمَّل بسهولة أكثر من عائلات أخرى، تلك المأساة المقترنة بضياع فلسطين.

استطاع العم إبراهيم أن يجد، في نهاية الأمر، وظيفة بوزارة الزراعة في دمشق؛ ثم سافر فيما بعد إلى العربية السعودية، وبعد فترة استأجر شقة في بيروت حيث كان ولداه يدرسان وحيث كان يأتي هو والخالة ألماني لقضاء عطلتهما.

جمال الحسيني والد سيرين الثاني على اليمين مع ست من اخوانه واخته .

في هذه الفترة ، كنتُ أُعاشرهما بانتظام ؛ وأَعترف بأن شخصيتيْهما وطريقتيهما غير المألوفة في العيش قد مارستَا عليَّ سحراً خاصاً .

طوال حياتهما الزوجية ، كانا يتردّدان بانتظام على ألمانيا . وقد ظَلاّ وفيَّين لِعَادَة إقامتهما في بيروت . وخلال الفترة الأولى ، كانا يسوقان سيارة " فوتزفاكن صغيره " التي لم تكن جد مريحة إلاّ أنها كانت كافية تماماً لهما .

وكل صيف ، بعد عودتهما من ألمانيا ، كانا يحكيان لنا مغامراتهما المليئة بالمفاجآت . كانت تحدث لهما حوادث جدَّ عجيبة ، إلاّ أنهما كانا يخرجان منها سالميْن تحميهما فقّاعتهما المصنوعة من السعادة والتواطؤ !

بعدَ واحد من تلك الأسفار ، حكيا لنا أنَّهما ، ذات ليلة ، وهما يسوقان ، تنبَّها ، فجأة ، إلى وجود رجل جالس ، مستقيماً ، على الغطاء المعدني الأمامي لسيارتهما . كان الظلام مُخيِّما وقد صدَما الرجل الذي لم يُجرح ، لحسن الحظ ، وفوق ذلك كان في مزاج رائق ! بعد أن ضَحِكَا كثيراً معه من هذه المغامرة السيئة ، قَادَاهُ إلى وِجْهَته سالماً مُعافَى .

لم يكونا يكلفان نفسهما عناءَ حجز غرفة في الفندق مسبقاً ؛ وخلال أحد أسفارهما ، وجدا صعوبة في الحصول على فندق . وأخيراً اكتشفا مكاناً رائعاً واقعاً في أقصى ممرٍّ طويل مَكْسُوٍ بأشجار حَوْرٍ فارعة . فَرِحا كثيراً بِحظهما الحسَن .

كانا ذلك المساء ، جدَّ مُتعبيْن فلم يقدرا على إلقاء نظرة على المنظر الجميل المحيط بالمكان . لكن ، صباح الغد ، بمجرد أن استيقظت

الخالة هيلدا، سارعت إلى النافذة لتستمتع بالمنظر فَذُهِلَتْ: كان تحت الأشجار حشْد من الرجال يتجوّلون عُراةً كأنهم ديدان! ولا شك أنها، في غمرة ذُهولها، قد صرختْ، لأن الرجال استداروا كلهم نحوها بِكامِل عُدَّتهم من دون أن يُخفوا أي تفصيل من تفاصيل أجسادهم.

وكانت تلك هي المرة الوحيدة التي وطئت فيها الخالة أَلماني نادياً للعُراة!

وذات صيف آخر، وَصَلا إلى فندق في تركيا. وبمجرد نزولهما من السيارة انفجرتْ، ذلك أنهما نَسِيا في غمرة السفر أنْ يعملا على فحص مُحرِّك السيارة.

وخلال سفر آخر إلى ألمانيا، كسَّرت الخالة هيلد عُرقوب قدَمها. وقد نصحها الطبيب بأن يؤجِّلا عودتهما إلى حين إزالة الجبس. لكنهما تجاهَلا رأيه وسافَرَا توّاً. وعندما رأيتُهما، آخَذتُ العمّ إبراهيم على مثل هذه المخاطرة، فأشار بيده إلى الخلف لِيُبدِّد قلقي، وشرح لي بأنَّ ما كان الطبيب يريده، هو أن تقوم هِيلد بتمريناتٍ كافية. وهل يمكن أن يكون هناك أفضل من سياقة السيارة لِتَقوية العرقوب؟

مرةً أخرى، ولبنان غارق في أَخطر أيام الحرب الأَهلية والناس لا يكادون يقدرون على الخروج، اتجه الخال وزوجته من طريق شمال لبنان إلى شقتهما في الروشة ببيروت. وكانت الصحافة، ذلك اليوم تتحدث عن قصف بالقنابل للشاطئ الواقع بين طرابلس وبيروت. ولم نكن لِنَفْهم لماذا أقدما على سفر مماثل، مُستهينيْن بالمعارك الدّائرة.

وقد اعترفَا أنهما لم يلمحا ولو قطةً واحدة على الطريق، إذْ لا أحد كان بمِثْل جنونهما فيُقلّدهما. غير أن قَلَقنا وتَوْبيخاتنا لم يُحركَا لديهما ساكناً، فاعتَرَضا قائلَيْن:

" ما هي إلاَّ إشاعات. لقد قمنا بِسَفر ممتاز ".

إن حُسْن طالعهما لم يتخلَّ عنهما أبداً. لقد نجحا في أنْ يجتازا، سالمَيْن مُعافييْن، عدةَ ثورات، وحرباً عالمية، وحرب فلسطين ثم حرب لبنان. وبعد أن عاشا في فلسطين في سعادة ورَفاهٍ، تحمَّلا مصير جميع اللاّجئين. وعلى رغم الحرمان والتقشّف، فإن تفاهُمَهما الفريد والسعيد في آن، قد حَمَاهُما، إن لم يكن من المحنة فعلى الأقل من شقاءاتها. لقد عاشا طويلاً وعاشا في رغَدٍ محدود، واستفادا من كلِّ ما قدَّمته لهما الحياة.

***

أمّ يوسف

كانت قد مرَّت عدّة سنوات على استقراري في بيروت، وبناتي الثلاث قد كَبُرْنَ، وفلسطين تبدو جدًّ بعيدة.

ذات يوم، ذهبت لزيارة أمي في شقتها ببيروت. وأنا أمرّ أمام غرفتها، سمعت صوتاً يغنّي: كانت أول مرّة أسمع فيها صوت أُم يوسف التي كانت تعيش بأحد مخيمات الفلسطينيين وتشتغل عند أمي. كانت امرأة متينة البنيان على رغم قامتها الرقيقة؛ وكان صوتها شجياً.

توقّفتُ عند العتبة مُنصتة إلى كلمات تلك الأغنية المرتَجَلة فيما يبدو. فاجأَتني الكلمات لأنها جعلتني أُدرك أنني لا أعرف كثيراً مَنْ كانت تُغنّي. كانت تُدَنْدِن لنفسها ما يلي:

أوه يا مِّ يوسف يا شاطرة

شاطرة والله شاطرة

نِضَّفتِ الأرض وأديكِ واقفة

تسوِّي الفرشَه وانتِ دايماً واقفة

ناديتُها بهدوء حتى لا أُفزعها ثم اعترفت لها أَنَّ أغنيتها أثارت اهتمامي، وحيَّرتْني. انفجرت ضاحكة غير مُبالية وشرحتْ لي أنها، طوال سنوات، نظّفت الأرض في العديد من المنازل وأَنها كانت تُمضي

نهاراتها جاثية على ركبتيْها لِحَكِّ البلاط. وعندما كانت تعود إلى بيتها، في مخيّم اللاّجئين، كانت تجد في معظم الأحيان، أن سَكَنها الصغير مغمور بمياه المطر المتسربة، خلال فصل الشتاء، من سقف الصَّفيح؛ أو أَنه يفوح بروائح المجاري الكريهة التي كانت تخترق الشوارع مكشوفةً.

"ليس لي الوقت الآن، قالت لي؛ لكنني سأحكي لكِ ذات يوم حياتي".

ظللتُ أفكر في أم يوسف طوال النهار. ومساء ذلك اليوم، عند العشاء، تحدَّثت عنها وعن أغنيتها مع عائلتي. وقد أعجبوا جميعاً بقُوتها وشجاعتها. وكانت إحدى بَناتي تدرس تلك السنة في الجامعة الأمريكية، فَاجْتَذبتْها شخصية أم يوسف إلى حدٍّ أنها أعلنت لي، بعد أسابيع، أنها ستُنجز عنها بحثاً في نطاق دراستها للسُّوسيولوجيا. وهكذا انتهى بي الأمر إلى الوقوف على حياة أم يوسف من خلال ما حكتْه لي ابنتي وأيضاً من خلال أحاديثها هي.

خلال حرب **1948**، بقيت أُم يوسف في قريتها شمال حيفا، مُؤملةً على رغم معارضة الجميع، ألاَّ تضطر إلى الرحيل. لكنها اضطرت فيما بعد إلى مغادرة فلسطين ومعها ابنها وابنتها. أما زوجها فقد رفض بتاتاً مُرافقتهم وقرر البقاء رغم كل ما قد يحدث. أخذت أم يوسف وولداها طريق المنفى مع آخر فوج مُهاجر من القرية. ومثل الآلاف الآخرين، توجّهوا نحو لبنان. وعند وصولهم إلى صيدا، قررتْ البقاء هناك ظانَّةً أنه أفضل مكان لانتظار زوجها، فقد يُغيِّر رأيه ويتبعها؟

التحقتْ بمجموعة صغيرة من اللاَّجئين، مستفيدة من جميع الفرص المتاحة للعمل في الحقول والضِّيَع. ساعدتْها بعض العائلات اللبنانية بِكرم، إلاَّ أن زوج أم يوسف لم يصل. أخذت تيأس والقلق ينهشها وهي تنتظر وتتألم وتُطيل الانتظار؛ إلاَّ أن زوجها لم يلحق بها أبداً. وحسب بعض الإشاعات، فإنه غادر القرية في نهاية الأمر، ومات في الطريق؛ غير أنها لم تتأكد قط من ذلك. وآل بها الأمر إلى التخلّي عن أي أمل في لقائه، وأدركتْ أن عليها منذ ذاك أن تعتمد فقط على نفسها.

بينما كانت تعيش في تقتير بفضل عملها في الحقول، وتربي ولديها بأفضل ما تستطيع، سمعتْ لاجئين آخرين يقولون بأن مَنْ واصلوا سَيْرَهم إلى بيروت يعيشون في وضع أحسن، لأن المنظمات الخيريَّة للإسعاف كانت تُؤْويهم في مخيمات وتتكفَّل بِتغذيَّتهم؛ بل وباستطاعتهم أن يُؤمّلوا في العثور على عمل يتعيَّشون منه. وعلى رغم حزنها على اختفاء زوجها، فإن أم يوسف لم تستسلم فأخذت ولديْها واتجهت إلى بيروت.

عندما وصلت، بعد الظُّهر، إلى ضواحي العاصمة، دلُّوها على مخيَّم للاَّجئين الفلسطينيين. تبيَّنَتْ عندئذ، مساحة واسعة مُقفرة من الأرض العارية عند حدود بيروت، مُمتلئة بِأُناس لم يكن حالهم أفضل من حالتها. اقتعدت الأرض عند مدخل ذلك المخيَّم المكتظ وهي منهكة القُوّى، فاقدة الأمل. ما العمل الآن؟ وممّن تطلب النصيحة؟ فتحت الصرَّة التي خبّأت فيها متاعها القليل وأخرجت قليلاً من الخبز

لإطعام ولديْها. مُثقلة بعيائها ـ فقد كانت الطريق طويلة من صيدا إلى بيروت ـ يائسة، أخذتْ تفكر بأن عليها أن تجد لهما ملجأً يمضون فيه الليل. وفيما هي جالسة وإلى جانبها ولداها محاولة أن تستجمع قُوتها وتقرر إلى أين تذهب، إذ خرج صبيٌ من المخيم واتَّجه نحوها. وبدون أن يتلفَّظ كلمة واحدة، مدَّ لها رزمةً وابتعد. فتحتْها فوجدت قطعاً من الخبز وقليلاً من النقود. اقترب صبيٌ آخر منها حاملاً لها نفس الشيء ثم ثالث ورابع، ففهمتْ أنها وجدت بلداً آخر وأنها لم تَعُد وحدها وأن الله كبير.

عندما خيَّم الليل، قدَّم لها مكتب إسعافات وأعمال الأمم المتحدة (الأُونَرْوا) كوخاً من القصدير لتأوي إليه هي وولداها. بقي عليها أن تجد لهما مدرسة. استعانت بالنقود التي قدَّمها لها اللاّجئون الآخرون واستطاعت أن تُسجلهما في إحدى المدارس. لقد كانت بِحُسْن نيتها، مقتنعة بأن التعليم سيكون هو مفتاح خلاصهما.

بعد أن حلَّت مشكلة المدرسة، قررت أم يوسف أن تبحث عن شغل. ومثل لاجئاتٍ كثيرات جِئن من قريتهنَّ، فإنها أصبحت خادمة في المنازل. وفي الوقت الذي بدأت تخدم فيه عند أمي، كانت ابنتها فاطمة مراهقة وجاءت هي الأخرى لتشتغل عندنا.

كانت أم يوسف تعمل عند عائلات مختلفة وتعود إلى المخيم عند المغرب لتهتم بولدها وبِمَسْكنها المتواضع. وفي ذلك التاريخ، كانت مخيمات اللاّجئين الفلسطينيين مقطوعة عن العالم الخارجي. وكان لا

بُدّ من إذْنٍ للدخول وآخر للخروج. ولم تكن موصولة لا بِالمجاري ولا بالكهرباء.

في بداية السبعينات، مُشَجَّعين بِبروز الحركة الوطنية الفلسطينية وبِوصول منظمة التحرير إلى لبنان، أخذ اللاَّجئون يغامرون بِوَصْلِ مساكنهم بالخطوط الكهربائية المجاورة لهم فيحصلون بذلك على قليل من النور يُتيح لأبنائهم أن يُنجزوا واجباتهم المدرسية في المساء. على أن معظم التلاميذ كانوا يراجعون دروسهم تحت المصابيح الكهربائية المعلَّقة في شوارع المدينة، وخاصة على طول الطريق المؤَدية إلى المطار والقريبة من المخيَّم.

بعد ظُهر أحد الأيام، كان عليَّ أن أرى أُمَّ يوسف وكان الوقت متأخراً. لم يكن سَبَقَ لي أن وضعتُ قدمي في مخيم لِلاَّجئين. وعندما وصلت، كان الليل ألقى بِظلامه وكانت بعض اللَّمبات تُضيء خلسة وراء بعض الأبواب هنا وهناك. ولكي أصل إلى مسكن أُم يوسف الواقع وسط المخيم، كان علي، حتَّى لا أُبلّل قدميَّ، أن أخطو فوق أحجار وُضعت وسط الساقيات الصغيرة المتعرِّجة بين البيوت المتواضعة. ولم تكن تلك ساقيات ماء، بل المجاري.

وسط الظلمة ونتانة المياه المستعمَلة، تمكنتُ أخيرا من العثور على مسكنها. طرقت الباب فجاءني صوت أم يوسف مُجيباً. فتحت الباب فاردةً ذراعيْها لاستقبالي. وقد زادت مودَّتُها من المفاجأة التي غمرتْني وأنا أكتشف داخلَ الكوخ؛ فنظافته البالِغة تفوق كلَّ وصف. أدركتُ فيما بعد، أن النساء المحبوسات داخل تلك البيوت الضيِّقة، كن يُنفِّسْنَ

عن حِرْمَاناتِهِنَّ المتراكمة من خلال حكٍّ وتنظيفِ داخلِ مساكنهم وكلِّ ما يوجد بها بدون انقطاع .

" سأُريك بيتي" اقترحتْ علي أم يوسف .

على اليمين ، على بضع خطوات من المدخل ، كانت توجد غرفة أم يوسف ، وهي تتَّسع فقط لِسرير موضوع بين الجدار والستار المسدَل في شكل باب للغرفة .

كان السرير و المخدَّات والستارة على أحسن حال . ثم قادَتْني إلى الجانبِ الآخر لهذا المسكن الصغير حيث توجد غرفة ابنها . فتحت الباب وأَنارتْ فرأيت سريراً آخر متقشفاً ونظيفاً وإلى جانبه طاولة خشبية تلمع لشدة نظافتها وقد وُضِع عليها ثلاثة كتب ضخمة مرصوصة بِعناية . وثمَّة لَمْبة كهربائية طاقتها مرتفعة تتدلَّى من السقف فوق مكتب ابن أُمّ يوسف . سألتُها مستغربة :

" هذه كتب ابنك؟ "

ـ بِطبيعة الحال ، أجابت مفتخرة . إنه سيحصل على إِجازته من الجامعة الأمريكية في السنة القادمة . "

بقيتُ مدهوشه ، مُتَجَمِّدة من الإعجاب وتَبْكيت الضمير : لماذا كانت معرفتنا لهذه العشيرة بهذا السُّوء؟ وكَوْن الحظْر مفروضاً على ذهابنا إلى المخيمات ، لم يخُفِّف إلا قليلاً من شعوري بِالذَّنب .

مرّت السنوات ، واستمرت أم يوسف تقوم بالخدمة لدى عائلات مختلفة . تزوجت ابنتها فاطمَة وغادرت المخيم مع زوجها الذي وجد عملاً في الخارج .

في الأثناء، كانت الحرب الأهلية اللبنانية قد أَدَّت إلى تنقُّلات جديدة بين السكان. وقد أرغمت الظروف، مرة أخرى، بعض أفراد عائلتي على مغادرة منازلهم. وبفضل جوازات السفر اللبنانية التي حصلنا عليها، كان باستطاعتي البقاء في بيروت صحبة زوجي وبناتي. وأخيراً انتهت الحرب وعاد الهدوء إلى لبنان ورجع الجميع عندئذ إلى بيروت.

خلال هذه الحرب الأهلية الطويلة، غابت أُمّ يوسف عن أنظارنا. وكثيراً ما كنا نتساءل عمَّا آلت إليه. وأخيراً حصلت على أَخبارها؛ لقد جاءت ذات يوم لزيارتي إلاَّ أنني لم أكن موجودة فاستقبلتْها أختي التي كانت هناك بحرارة، ولاحظتْ مُتعجبة أن أُمْ يوسف كانت مُرتدية ملابس جيدة وتبدو في يُسْرٍ مِنْ حالها. عندئذ حكت لها أُمّ يوسف ما عاشته منذ لقائنا الأخير.

لقد سافرت مع ابنها إلى ليبيا حيث حصل على عمل ممتاز؛ ومنذُ ذاك تَمتَّعا بحياة هنيَّة مُستَحقَّة. ووفَّر يوسف لوالدته كل ما تتمناه من رَفاهٍ، بل واشترى لها سيارة ومعها سائق يقودها. لكن لا أحد منهما، أُم يوسف وابنها، نَسِي بيروت ولذلك عادا إليها لإقامة قصيرة. وكانا يأملان أيضاً أن يلتقيا من جديد بفاطمة التي فَقَدا أثرها خلال سنوات الكفاح الطويلة وما أعقبها من حرب أهلية.

بعد أن حكتْ قصتها لأُختي، لم تتأسف سوى على شيء واحد، وهو أنها معرضة للسأم. فابنُها وزوجته يعملان طوال النهار، وهي لم

يكن لديها ما تفعله. ثم أضافت ضاحكة بعد أن وصفت حياتَها الجديدة:

" غير أنني لا أشتكي، فالله كبير".

لم أعرف قط ما إذا كانت قد لقيْت ابنتها.

***

الإنعاش

أول مرة دخلتُ فيها مخيماً للاّجئين الفلسطينيين في لبنان، كانت عندما ذهبتُ للبحث عن أُمّ يوسف. لكنها لم تكن المرّة الأخيرة.

كانت هناك مخيمات قائمة في بيروت، جنوباً وعند الجبال. وقد أُنشِئتْ منظمة "الأونروا" لتقدم مساعدات إلى الفلسطينيين اللاّجئين. وبعد الحرب الإسرائيلية ـ العربية المشؤومة سنة **1967** والتي وضعتْ حداً لأَمل العودة الأخير وأضافت عدة آلاف لاجئين آخرين إلى من كانوا يعيشون في المخيمات، تأَسست منظمات أخرى لتقدّم الإسعافات التي أصبحت ضرورية أكثر من أي وقت آخر. ومن بين تلك المنظمات، إنعاش المخيّم الفلسطيني أو ما أَلِفْنا دَعْوَته ب "الإنعاش".

وقد حصلت ثلاث سيدات لبنانيات هنَّ شيرمين غندور حنينة، وهوغيت خوري غلان وسلمى برَّاج سلام، على التَّرخيص الرسمي بإنشاء هذه الجمعية التي تتوخّى إيجادَ مشاريع صغيرة لتشغيل اللاَّجئات الفلسطينيات. وقد قدَّمتْ "المقاصد" وهي منظمة إسلامية، قِطعةَ أرض للإنعاش، بعُقدة إيجار مُدَّتها عشر سنوات أولَ الأمر ثم مُدِّدت بعد ذلك. وقد ساعد كثير من الفلسطينيين الذين تَفْضُل حالتهم حالةَ اللاّجئين، مُؤسِّسات الإنعاش الثلاث؛ وكانت أُختاي ملَك وجمانة

ضمن هؤلاء. مِنْ جهتي، كنتُ قد انخرطتُ من قبل في اتحاد المرأة الفلسطيني.

خلال تلك الفترة، قرأتُ في مجلة أمريكية أن امرأة إسرائيلية حضرتْ حفلةَ استقبال مُرتدية " فستاناً " إسرائيلياً رائعاً. وعلى الصورة المُرْفَقَة، تعرَّفتُ على الفستان التقليدي لِلقَرويات الفلسطينيات، وأَدركتُ أنهنَّ اضطُرِرْنَ إلى بيع أجمل فساتينهنَّ لِيتمكنَّ مِنَ الحصول على ما يتعيَّشْنَ به.

بِمبادرةٍ مني، سافرتُ إلى عمَّان حيث اكتشفتُ أَن لاجئات فلسطينيات كنَّ بالفعل يَبِعْنَ فساتينهنّ بأثمان رخيصة. اشتريتُ عشرة فساتين تنتمي إلى عشر قرى مختلفة وكلها مُطرَّزة بِمُوتيفاتٍ تقليدية مُمِّيزة لتلك المناطق المحلية الفلسطينية.

وأنا أستعيد الماضي، تبدو لي هذه العملية وكأنها الأكثر إيلاماً في مجموع مشروع الإنعاش. ففي الواقع، كنتُ أشتري مقابل جنيهات معدودات، هُويَّة تلك النساء المجسَّدة في فساتينهنَّ القَرويَّة. كنت أعرف أن تلك الفساتين لا تُعوَّض؛ لكن على رغم أن ذلك كسَّر قلبي، فإن عقلي كان يقول لي بأن مبادرتي قد تُنقذ تراثنا الوطني.

عدت إلى بيروت محمَّلة بالفساتين. وكنَّا (أي اتحاد المرأة الفلسطيني) قد حصلنا على مقرّ في مخيَّم بيروت قريباً من المطار. وكان المقَر عبارة عن غرف تسكنها أُم علي التي استُشهد ابنها من أجل القضية. ولم يتمكَّن الحزن من إخماد شجاعة تلك المرأة القوية التي كانت راغبة في أن تساعدنا على نجاح مشروعنا.

طلبتُ من أُم عليّ أن تستدعي لنا بعض نساء المخيَّم الشابات. وفي انتظار عودتها، وضعتُ الفساتين القديمة التي اشتريتُها من عمّان حول الغرفة، مُؤمِّلةً أن يلْفت جمالُها نظر زائراتنا. جاءت النساء وعرضنا عليهن مشروعنا الذي وجدناه مُهمّاً. لكن، حين طلبتُ منهنّ أن يُلقين نظرة عن قُرب، على الفساتين أَتَيْنَ بِردّ فعل غير مُنتظَر، صِحْنَ:

" لكنها فساتين هندية!". إنهن لم يتعرفن عليها.

لَزِمَني بعض الوقت حتى أفهم أن نساء الجيل الجديد اللاّئي عِشْن كل حياتهنَّ في المنفى بمخيَّمات اللاجئين، لم يشاهدن قط فستانهن الوطني: وإذا كانت واحدة من أُمهاتهنَّ تملك بعض الفساتين المطرَّزة مثل هذه، فإنهنَّ يُخبئْنها تحت اللّحاف خوفاً من أن يُبرزن وضعهنَّ كَلاجئات. وأخذتُ أتذكر، بِحُزنٍ، جارتي وصديقتي في شرَفات، عندما كانت جالسة تُطرز، وخطوط حرير فستانها الحمراء والخضراء والزرقاء تلمع تحت أَشعة الشمس المتسلِّلة عبر أغصَان الصنوبر.

فيما بعد، عندما أَدركتُ أن حاجيات المخيَّم هي من العِظَم بحيث إن عملي في اتحاد المرأة لا يستطيع الاستجابة لها، التحقتُ بالإنعاش. وكانت ملَك وجُمانة قد بدأتا بِصُنْع مخدّات مطرَّزة بِمُوتيفات تَستنسخ الرسوم التقليدية الفلسطينية الموجودة على الفساتين التي كنتُ قد اشتريتها. وعندما اكتشفت عضوات الجمعية اللاّئي لم يكنَّ فلسطينيات، تلك التطريزات انْذَهَلْنَ. وكنَّ إلى ذلك الحين، قد شجَّعنَ اللاَّجئات على صنع ملابس محبوكة بالصوف؛ وعندئذ خطرت على بالهن فكرة أخرى: هل هناك أفضل من عمل مُربح وفي نفس الآن يُديم التراث الثقافي الفلسطيني ويُخلِّده؟

نجحنا في إقناع النساء الشّابات لِيَشْرَعْنَ في التطريز؛ وفيما بعد، التحقت عشرات أُخريات بهذا المشروع. اليوم، أصبح الإنعاش مشروعاً مُربِحاً واللاَّجئات يكسبْنَ حياتهن من صنع آلاف المخدات والأَسمطة والفساتين وأشياء أخرى مطرَّزة تحمل الموتيفات التقليدية لِمُدُنٍ وقُرى فلسطين.

على الرغم من كل شيء فإن ثقافتنا لن يلُفّها النسيان.

***

كانوا يريدون العودة إلى بيوتهم

كان العمّ يعقوب أخاً لوالدي، وكانت أُمّ علي زوجة لابن عمٍّ أمي الصغير. وكان منزله قريباً من إقامتنا الشّتوية في أريحا؛ وإذن لم يكن هناك من علاقة عائلية أو غير عائلية بين العم يعقوب وأم علي، إلاّ أن ذلك لم يَمنَع من أنهما عرفَا كلاهما موتاً متشابهاً تماماً. لم أكن قد رأيت أَيَّ واحد منهما منذ سنوات، لأنَّ رحيلنا أَبْعَدنا عنهُما؛ وكانا هما قد بقيا في القدس.

قديماً، عندما كنا نُمضي كل سنة فَصلَ الشتاء في أريحا، كنت أرى أُمّ علي باستمرار، كان منزلها قريباً من بيتنا، وكانت كثيراً ما تزور جدَّتي التي كانت تُقدرها كثيراً، وكانتا تدعوان الله معاً ليُفَرِّج محنتنا. وكان أبي يحبُّها أيضاً ويتناقشان في الزراعة وأوقات السَّقْي وعن بساتين المُوز وأَسعارِ السُّوق. وأتذكّر أن هذه المرأة المتقدِّمة آنذاك في السنِّ، كانت تتفَاهَم جيداً مع الأطفال و المراهقين وتعرف دائماً أن تجد الكلمات الملائمة عندما كانوا في حاجة إلى نصيحة أو تشجيع.

كنت أُحب كثيراً مُرافقةَ أمي عندما كانت تزور أُمّ علي في أَريحا. وكان بيتها معلقاً بالقرب من بيَّارة برتقالها وبُستان الموز. كان عبارةً عن بناية من الخشب الرائع ويشتمل على أثاث بسيط ويَنِمُّ عن ذوق رفيع.

كان صالونها يقع في الأَعلى فوق عدة درجات، تغمره أشعة شمس الشتاء التي تخترق أشجار البرتقال تحت نافذتها. كنت أُقدّر بالأخص محادثتها. ولم تكن الحكايات والعبارات الحكيمة تنقص أُمّ علي. وكنتُ مفتونة بطبيعتها المرحة المختلفة عن طبيعة عائلتنا المتحفِّظة. وقد قيل لي بأنَ هذا التعارضَ بين الطبيعتيْن يعود إلى أُصولها الدِّمَشقية. وعندما كنت صغيرة كنتُ أتخيَّل دمشق وكأنها بلاد للسعادة والترويح عن النفس، بعيدة آلاف الأميال عن قُدسنا المتقشِّفة، التقليدية.

كانت أُمْ علي امرأة قصيرة القامة، متحفِّزة، أَرملة ولها ابن وحيد. ولأنها لم تكن تريد أن تكون عبئاً عليه، فقد فضّلت أن تبقى في بيتها بدلاً من أَن تسكن معه. وكانت سعادتها هي أن تُصليَ من أجله في غيابه. كانت لها خادمة صغيرة اسمها أَمينة تسهر عليها وتُتيح لها أن تظلَّ على اتصال بعائلات القدس الأخرى التي تأتي لقضاء الشتاء في أريحا. وكانت أمينة دائماً على استعداد لاستقبالنا مع فنجان قهوة وكلمات ترحيب.

وفي القدس أيضاً، خلال أَشْهُر الصيف، كنت أُحب أن أزور أُم عليّ مع والدتي. كانت تعيش داخل سُورِ المدينة القديمة لأنها رفضت أن تسكن مع ابنها خارج الأسوار في حيّ كانت الخدمات فيه أفضل والحياة أكثر سهولة بصفة عامَّة. وكانت تلك الجولات مع أمي عبر الأَزقَّة الضيِّقة المبلَّطة تَسْحَر لُبّي. وبعد أن نصعد السلَّم ونُحاذي جيرانَ أمّ عليّ، كنا نصل إلى باحة دارها النظيفة المزيَّنة بأُصُصِ زَهْرِ الفُوشيّة والياسمين والحبَق، ونباتات أخرى خاصة بالمنازل الكائنة داخل سور المدينة القديمة.

في يوم كنتُ أزور فيه أمْ علي، فرَّجتني على سقف جارتها الشيخة زهرة التي كانت حافظة مشهورة للقرآن وكان صوتُها القوي والرَّخيم معروفاً في كلِّ المدينة. وكانت النساء يَحْكينَ قصصاً مُسلِّية عنها؛ وقد حكت لي أمّ علي ذلك الصباح، واحدة من تلك الحكايات.

كانت الشيخة زهرة مُقتنعة بأن تناوُل بيضة نيئة كل صباح هو أمر جيد للصَّوت. ولأجل ذلك، وضعت على سقْفها دجاجاتٍ كانت تُوليها عناية وحناناً كبيرْين. لم تكن متزوجة فاحتلَّت الدَّواجن في قلبها مكانةَ الأولاد الذين لم تُرزَقْهم أبداً. إلاَّ أن الشيخة زهرة كانت تواجه مشكلة: فجميع تلك الدجاجات كُنَّ يُوَسِّخْنَ سقْفها.

وحسب أمّ عليّ، فإن الشيخة وجدت، آخر الأمر، حلاً: لقد خَاطَتْ لكل واحدة من تلك الدجاجات سروالاً وأَلْبَسَتَهُنَّ إياه على رغم غرابته. هكذا حلَّت مشكلتها الصحَّية، مُقدمة في الآن نفسه، فُرجةً لا تقاوم لجيرانها!

ترجع جميع ذكرياتي عن أُمّ عليّ إلى الفترة السابقة عن سنة **1948**. وبعد الحرب عندما سلَك أُناس كثيرون طريق المنفى، بقيتْ هي في فلسطين. وخلال فترة طويلة كان التواصل مستحيلاً بين الأقارب والأصدقاء الذين شَتَّتَهم الحرب. لذلك لم نَتلق أي نبأ عنها.

وأخيراً، بعد سنوات، علمتُ أن بيتها في القدس قد احتَلَّتْه عائلات يهودية. عندئذ استقرت أُمّ عليّ في مسكنها الخشبي داخل بيَّارة البرتقال في أريحا إلا أنّها كانت تشتاق دوماً إلى القدس. وفي آخر أيامها، فقَدتْ أُمّ عليّ كلَّ إحساس بالواقع ولم تعد تشغلها سوى فكرة واحدة: أن تعود إلى بيتها.

انطلقتْ في الطريق عدة مرّات، غير متردِّدة في إنجاز السفر وحدها، لكن أناساً كانوا يعثرون عليها بسرعة ويعيدونها إلى أَريحا. إلى أن كان هَرَبُها الأخير، فعثروا عليها ميتة مسجّاة على الأرض داخل أزقة القدس القديمة.

كان العم يعقوب يُعتَبر الأكثر لُطفاً وجاذبية من بين الأخوة الثمانية في أُسرة والدي. لم يتزوج أبداً إلاَّ أن مغامراته الغرامية كانت مُتعة لمجموع العائلة. وقد شغل مناصب حكومية مختلفة في فلسطين إلى أن اضطُّر لأسباب سياسية أن يفقد وظيفته ويغادر البلاد. التحق باليمن واشتغل فيها سنوات مع الملِك.

وآل به الأمر إلى العودة إلى القدس حيث بقي على رغم الاحتلال الإسرائيلي. كان يعيش قِسطاً من السنة مع أخته، خالتي أمينة، وقسطاً بمنزله في أريحا. مِنْ بين جميع إخوة العائلة وأخواتها، كانت الخالة أَمينة، والعمّ يعقوب هما الوحيدان اللذان رفضَا مغادرة فلسطين بعد **1948**. وقد اقتدى بهما بعض أَحفادهما وحفيداتهما.

واحدة من تلك الحفيدات، بدرية الحسيني وزوجها يعقوب وهو أيضاً من عائلة الحسيْني، كان لهما صيدلية في أريحا. وقد اعتاد العم يعقوب التردُّد على تلك الصيدلية كل صباح. كان يصادف فيها رجالاً آخرين من القدس يعيشون وحدهم مثله، بعد أن غادرت عائلاتُهم. كان العمّ يعقوب وأصدقاؤه يزعمون أنهم يجيئون لشراء أَسبرين أو مُسهِّل؛ والواقع أنهم كانوا مدفوعين بشعور لا يُحتَمل من الوحدة؛ فكانوا يأخذون راحتهم ويثرثرون ساعة أو اثنتيْن داخل الصيدلية.

وكانت بدرية وزوجها يعقوب يتظاهران وكأن الأمر عاديٌّ؛ فقد كانا يفهمان ما يُعانيه أولائك الرجال، إذْ أن أَحبَابهما هما أيضاً كانوا مشتتين عبر أنحاء العالم.

طوال عدة سنوات، ظل العمّ يعقوب وفياً للتّقاليد العائلية فكان يُمضي فصول الشتاء في أريحا. إلاَّ أَنه شاخَ وبدأ ذهنه يختلُّ فلم يَعُد يتعرَّف على بيته في أريحا والذي هو مقر إقامته الشتوية خلال نصف قرن؛ ولم يعد يطيق السكنى فيه. منزله الوحيد كان هو القدس التي يريد الذهاب إليها.

ذات يوم، غادر بيته الصغير في أريحا وشجرة الليمون وقطَّته وبعض المتاع وأخذ يجول في الشوارع إلى أن بلغ طريق القدس وعاد إلى بيته.

بعد مرور يوميْن، عثروا عليه في غيبوبة عند الجانب الأسفل من الطريق ما بين أريحا والقدس. ونقلوه إلى المستشفى حيث أسلم الروح، بعد قليل.

***

لقاء غريب

تُوفّيَ زوجي سنة **1973**. في السنة التالية قررتُ قضاء الصيف في جبال لبنان. استأجرت شقة في الطابق الرابع بعمارة في قرية شَمْلان المشرفة على بيروت.

ذات صباح، بعد وصولي بقليل، نزلتُ من الشقة لزيارة مَالِكي العمارة. وكانت السيدة التي أَجّرت لي الشقة على لُطفٍ كبير في فترةٍ لم يكن الفلسطينيون خلالها، بِسبب المعارك، مرغوباً فيهم من لَدُن اللبنانيين. كانت قد مرّت أكثر من أربعين سنة على إقامتي في لبنان، وكان لي جواز سفر لبناني وتعلّمتُ أن أُقدّر كرمَ وصداقة هذا الشعب. إلاّ أنني بقيتُ فلسطينية بالقلب ليس فقط لأن فلسطين هي بلدي الأصلي ولكن لأنها اختفتْ وأنا أُؤمّل من أعماق روحي أن أراها تولد من جديد ذات يوم.

كان مالكو العمارة يقطنون في شقة في البَدْروم غير أنها تتوفَّر، مثل شقتي، على منظر لا تَحجُبه أبنيةٌ ويطل على المدينة. وكان البحر، في الخلْف يمتدُّ كَبِساطٍ تحت عيوننا. عندما دخلتُ إلى صَالُونهم حيث تسود طراوة مُستَحبَّة، وَجدت والد المؤَجّرة ينتظرني لتناوُل فنجان قهوة معه. كانت ساعة من تلك الساعات الصيفية التي ينسى خلالها النساءُ

أشغال البيت، والرجالُ مِهَنَهُم ليجلسوا تحت ظل شجرة أو في فيراندا لِاحتساء القهوة وتَذَوُّق مُتَع الحياة.

كان الأب بديناً يقترب من الثمانين ففكّرت بأن بَدَانَتَه تعود إلى العناية التي كان تُغْدِقُها عليه زوجته وابنته. أَبدى نحوي لطفاً كبيراً وعبَّر عن تفهُّمه لِوَضْعيتي: فقد كنت أحاول، بالفعل، أن أُعاوِد تذوُّق الحياة وحدي بعد وفاة زوجي. واكتشفتُ بسرعة أنه هو أيضاً فلسطيني من أَصلٍ مقدسيّ؛ وأنه جاء للعيش في لبنان بلد زوجته، بعد احتلال فلسطين.

استحضَر صعوبات العيش والأيام الماضية في القدس. وكنت أنصت بسرور إلى ذكرياته القديمة مُستمتعة بطراوة النسيم الصباحي. ثم حدَّثَني عن الساعات الأخيرة للثورة في فلسطين وأَفضى لي بِبعض تجاربه كَشُرْطيٍّ تحت الانتداب البريطاني.

وأنا أستمع إليه، بدأ شعور غريب يغمرني. تعاظَم لديَّ الانطباع بأن طريقَيْنا قد تقاطَعَتا ذات يوم. وأخيراً قال لي وهو يوجه نحوي نظرة يملأها حنان كبير:

"ما زلتُ أتذكَّر محنتي الفظيعة التي كنتُ فيها وأنا أَترصد خطواتك عند خروجك من بيتكم في المصرارة! وفي الغد، طُفْتُ تقريباً جميع أزقة القدس على أَثر والدك الذي كان يحاول أن يُضَلِّلني!"

قبل قليل، حينما كان يتكلم، كان الماضي قد بدأ يغمر ذهني، إلاَّ أنني تمسَّكتُ بالصمت. لم أرد أن آتيَ حركة ولا أن أطرح سؤالاً حتى لا أعطل دَفْقَ أفكاره. ولذلك فإن كلامه لم يُفاجئني. كل شيء كان

يأخذ موضعه فيما كان هو يعرض علي أحداثاً تعود إلى أربعة عقود. كانَ الأَمر كما لو أن خَيْط حياتي مُستمرٌّ في الانبساط حكايةً لم تَنْتَهِ قط.

بعد أربعين سنة من تلك الأحداث المأساوية، أخذ جاري الشيخ يحكي لي عن نهاية القصة التي بدأت في ذلك اليوم الرهيب من سنة **1936** الذي اضْطُرِرْنا فيه إلى مغادرة القدس، من دون أن ندرك جميع تفاصيل ما حدث.

أخبرني، إذن، بأن الشرطة كانت تعلم جيداً أين اختبأ والدي تلك الليلة في القدس. فقد تَبِعه شرطيان، وعلى رغم أنه نجح من حين لآخر في تضليلهما عبر أزقة المدينة، فإنهما عثَرا على أَثره حيث اختبأ. ثم إنهما اقتفيا خُطاه حين قرَّر الهرب خارج البلاد. لكنهما تركاهُ يفلت. سألته:

" لماذا؟ لماذا تَركْتموه يرحل؟ "

أجابني بهدوء:

" طبعاً كنا نؤدي خدمتنا؛ لكننا لم نكن نريد أن نُؤْذيَه. لا تنسيْ أننا كنّا فلسطينيين نحن أيضاً ".

***

أَربع نساء

إن بعض الشَّذرات من حياتنا، قديماً، في فلسطين تتحوَّل، بعد عدَّة سنوات كنوزاً ثمينة.

ذات يوم غير بعيد مِن الآن، بينما كنت أَتَهيَّأُ للتخلُّص من حقيبة عتيقة رافقَتْني في أَسفاري عَبْرَ العالم، أخذتُ أتأكد من أنني لم أنس شيئاً بداخلها. ومن زاوية أحد الجُيوب الممزّقة، استخرجتُ غلافاً أَنْهَكَهُ الزمن. فتحت الظرف فوجدته يحتوي على صورة باهتة قليلاً لمجموعة أشخاص. تعرفتُ مباشرة على البنت الصغيرة في وسط الصورة: إنها أنا، في الثانية من عمري. وحَوْلي، جدَّتي زليخة وأمها أسماء وأمي نِعماتي.

كنتُ فرحةً بِما عثرت عليه، إلاَّ أنني أخذت أَرتعش وأنا أفكر بأن هذه الصورة التي ظلت مختبئة طوال عشرات السنين في قاع الحقيبة، واجْتازَت عدداً لا يُحصَى من الحدود، ها هي الآن تقع في يديَّ داخل منزلي في بيروت.

جلستُ حتى أتمكّن من رؤيتها جيداً. فأخذت الذكريات تَتَتَالَى فوراً، مُنبثقةً من مَعين منسيّ، ثاوٍ بأعماق اللاّ شعور. تركتُ صور الماضي تتدفّق في دخيلتي ممتلئةً دِفئاً وحزناً.

تعرفتُ على الساحة وأيضاً علي أحد الأبواب، وتذكرت ما بعد الظهر ذاك، منذ أَمد طويل، عندما أَخرجوني من سريري لأذهب إلى التفرُّج على آلة مُطَقْطِقة حَملها العمُّ موسى معه من السفر. كانت أول آلة عائلية للتَّصوير؛ ولا شك أن العم موسى كان قد عاد من كامبريدج في أنجلترا حيث أنهى دراسته.

أما جدّة أمي، أسماء، فقد كان عمرها يفوق قليلاً التسعين سنة. وأَذكر أنني في السادسة أو السابعة، حينما كنت أَلعبُ مع شلة أبناء عمِّي - كانوا كلهم صبياناً - كُنّا قد أصبحنا نُرعب جميع الحدائق المجاوِرة. وما مِنْ أحد منّا كان يجهل بأن جدَّة أمي كانت مهووسة بالنظافة. كانت تُمضي نهاراتها متنقلة بين منزل ابنتها وبيت ابنها باحثة عن كميات من الماء لغسل يديْها وَمَلإِ الزجاجات. ولأنها كانت تتشكَّك في نقاء الماء نفسه، فإنها كانت تتركه يسيل من الحنفية أمداً طويلاً قبل أن تَبُلَّ أُصبعها. تصوروا ذلك في القدس حيث كان الماء ترفاً وحيث جميع المنازل كانت تتوفّر على خزّان لاستقبال مياه المطر التي كانت تُضَخُّ فيما بعد للحاجيات المنزلية.

عارفينَ بهذا الوسواس، كان أبناء عمّي الشياطين وأنا معهم، نقضي أحياناً كلَّ الصبيحة في معاكسة أسماء جدَّة أمي.

كنّا، مثلاً، نتعمَّد أن نجلس قريباً منها وأن نلمس فستانها ونحن عارفون أنَّ رُهابها سيدفعها إلى أن تحاول يائسةً تنظيفه. وكان الأطفال في تلك الأيام يُقبِّلون يَدَ مَنْ هُم أكبر منهم، إلاّ أن خُبْثنا كان يجعلنا نُقبِّل عن قصد يديْها مرّاتٍ ومرّاتٍ عارفين أنها ستَضْطرُّ إلى غسلهما بِقَدْر ما كنا نُقبلهما.

القدس، 1922. (أمام البيت العائلي، صورة تمثل أربعة أجيال، سيرين جالسة في الوسط ووراءها واقفة والدتها نعمتي العلمي الحسيني، وعلى يمينها جدتها زليخه الأنصاري العلمي، وعلى يسارها والدة جدتها أسماء غنيم الأنصاري.

على رغم جميع تلك الحيَل، فقد كنّا نُحبها كثيراً ونعشق أن يحكوا لنا قصصاً عائلية تتّصل بها. وقد قيل لنا بأن الجدة أسماء عندما كانت شابَّة، كانت جميلة لها شَعَر طويل أشقر يحظى بإعجاب الجميع.

وأنا أتذكر جيداً فستاناً طويلاً كانت ترتديه وعليه موتيف كشمير، ومعطفاً من الحرير الداكن المطرَّز، له ياقة وكُمَّان وعليه شريط من الفَرْوِ الأَصهب. وكنتُ أنا نفسي جَدّةً عندما رأيتُ، وأنا أتجول ذات يوم صيفيّ في أحد شوارع باريس، معطفاً يشبه كثيراً معطف جدَّة أمي، فلم أتردد في شرائه وصرت أتذكرها في كل مرّة أَرتديه.

أتساءل أحياناً أين وكيف كان سكان القدس ينجزون مشترياتهم ويجدون ما كانوا يريدونه في أيام جدة أمي أسماء. إن أطول مسافة قطعتْها في حياتها كانت تلك التي تفصل بيتها القديم داخل سور المدينة، عن المنزل الذي شيَّدته بعد ذلك في شيخوختها قريباً من خارج الجدران. وكانت، بالتأكيد، تعيش منطوية على نفسها. لكنني أفترض أنه خلال العصور، جميع الناس الذين جاؤوا من العالم أجمع لزيارة أَضْرِحة القدس، قد حملوا معهم بضائع أجنبية في نفس الوقت مع ما حملوه من مظاهر أخرى لثقافاتهم المتباينة.

وأنا أنظر إلى تلك الصورة، ركَّزت اهتمامي على جدَّتي زليخة. كنتُ حفيدتَها الأولى وكنت طوال طفولتي، قريبة منها جداً. وعلى الصورة، لم يكن تعبيرها المتقشف، الحزين، مُطابقاً بأيّ حال للذكرى التي كنتُ أحتفظ بها عنها. وخلال لحظات معدودات وحساب قصير، تذكرتُ أنه في اللحظة التي أُخِذتْ هذه الصورة كانت غالباً هي الفترة

زليخة الأنصاري العلمي (أمّ موسى) جدَّة سيرين من جهة أمها ، أثناء سفرها إلى ڤيينا مع زوجها فيضي العلمي سنة**1921** ، لمعالجة عينيْه . وقد وضعتْ بدلاً من الحجاب ، قُبعة أوروبية لتتجنَّب نظرات الرجال .

التي فقدتْ فيها زوجها فيْضي العلمي. كانت ترتدي فستاناً أسود علامة على الحِداد، وزخرفاتٌ مطرزة سوداء أيضاً على ياقةِ وكُمَّيْ المعطف المتجانس مع بقية الألوان.

بعد مرور أمد طويل على وفاتها ووفاة العمّ موسى، اقْتَرعْنا لتوزيع مُمتلكاتها، وقد كنتُ مسرورة بأن أَرثَ صندوق زواجها الذي لا أزال محتفظة به إلى اليوم. إنه يذكّرني بالأيام الماضية وبتلك اللحظات المباركة من طفولتي حينما كانت، بِتَفْضيلٍ خاص، تقبل أن تفتح الصندوق لتكشف لي عن محتوياته. وكان الصندوق نفسه من خشب الأرز، مُحصَّناً ضد العثّ، أخضر اللون ومزخرفاً بِمسامير الشبَهان وبِقِطع من النحاس لها شكل أقواس وفوانيس ووجوه بشرية مُثْبتة على الخشب.

في داخل ذلك الصندوق، كانت الجدة أُم موسى تحتفظ بصورة كبيرة تبدو فيها مُعْتَمِرةً قبَّعة ذات حافَةٍ عريضة. وكانت تلك الصورة قد أُخذت لها في النَّمسا حيث رافقت جدّي الذي كان عليه أن يتلقَّى علاجاً في عينيْه، بعد أن أَكّد له الدكتور الشهير تيكْهُو أن تلك هي الوسيلة الوحيدة لإنقاذ بصره. وكانت جدّتي قد اشترت تلك القُبَّعة لِتَحْجُب رأسها وجزءً كبيراً من وجهها: ذلك أنه لم يكن بوُسعها أن تضع اللّثام في شوارع فيينا. وعند عودتها إلى القدس، أَخْفَتْ ذلك الدَّليل الدّامغ على مَسَاسها بالتقاليد، في قاع صندوقها!

وأَرَتْني أيضاً أوّلَ بدْلِةٍ ارتداها ابنها، الخال موسى، وأول فستان ارتدتْه أمي. وكان ذلك الفُستان من تَفْتَة حريرية مع خُطوط رُسِمَت

بِقَلم بَسْتِل؛ أحدهما لونه أزرق والفستان الآخر ورديّ. وكانت تفصيلتهما ذات طِراز عربي قديم ولا شك أنهما صُنِعا داخل دير. وكان الصندوق يحتوي أيضاً على البدلة التي ارتداها زوجها عندما أصبح عضواً في البرلمان العثماني، وكان لونه أسود مع زخرفات مذهَّبة في الياقة والكُمَّيْن والخِصْر. وقد احتفظت من جهاز عُرْسها بفستان طويل من الحرير الأبيض المطرَّز بِخَيْط جدّ رقيق اصفَرَّ من تأثير الزمن.

على الصورة، كانت أمي واقفة وراء الأخريات، وغالباً اختارت تلك الوقفة لأنها كانت حاملاً. وأظن أنها كانت تنتظر مجيء الصبيّ الذي وُلِد بعدي ومات فجأة ذات ليلة، إنني لا أتذكره. لقد ورثتْ أمي عينيْها الخضراويْن الرائعتيْن عن أسرتها، وكان بإمكانها أن تظل مُفرطة الجمال لَوْ لم يَزِدْ وزنها كثيراً عقب وِلاداتها السَّبع. لم يكن من عادة أُسرتها إِنجابُ مثل ذلك العدد من الأطفال: فَأُمُّها وجدّتها أنجَبتا اثنيْن لكل واحدة منهما فقط. وقد فقدتْ أمي اثنيْن من أطفالها وبقينا نحن الخمسة عبئاً انْضافَ إلى جميع صعوبات الحياة التي أَثْقلتْ كاهلها.

وأعتقد أنه من بين الأجيال الأربعة للنساء في هذه الصورة، يبقَى جيل أمي هو الذي تألم أَكثر. فقد حُكِم عليها أن تعيش في المنفى داخل عدة مدن عربية حاملة عِبْءَ خمسة أطفال، وحيدة في غالب الأحيان لأن زوجها كان في المنفى أو مسافراً لحضور مؤتمرات في الخارج. وعانتْ من مشكلات مادية إذ كانت تنتظر غالباً وصول المال اللاّزم لعيشنا وهي في قلق دائم. وكانت تعيش في مجتمعاتٍ لم تكن، قصداً أو عن غير قصد، تُوليها ما تستحق من تقدير.

فيْضي العلمي ، جدِ سيرين وعُمدة القدس من سنة **1906** إلى **1909** ، وكان أيضاً نائباً عن القدس في البرلمان العثماني من **1914** إلى **1918** .

بطبيعة الحال، لم تكن هي الوحيدة التي عرفتْ ذلك المصير: فالفلسطينيون كانوا يمثِّلون عبئاً إضافياً على المجتمعات التي كانوا يعيشون فيها. لقد أسعف الحظ بناتها وابنها في أن يتعلموا ويحققوا حياة أَسهل وأيسر؛ إلاَّ أنها هي لم تعرف قط راحةَ البال الضرورية لتستمتع بمسرَّات الحياة اليومية إلى جانبهم مثلما كان الحال بالنسبة للجيل السابق لها. وفي نهاية المطاف، تكسَّرت حياتها الزوجية بينما كانت تقترب من خريف عمرها.

وأتذكّر أن دمعةً كانت تبدو دائماً لامعةً في عمق عينيْها الخضراوين؛ وأظن أنها لم تغفر قط للعالم قَسوتَه.

وأخيراً وجهتُ نظري نحو الصبية القابعة وسط الصورة: إنني ولدت في أَيلول (سبتمبر) **1920**، أي تقريباً مائة سنة بعد جدّة أمي؛ وفي الصورة أَبْدُو جالسة بالقُرب منها. وأنا أَتفحَّص الطفلة التي كُنتُها، لم أقدر على الامتناع عن مقارنة حياتي بحياة الجدَّة الأولى أسماء.

وبعد الاستسلام لِدَفْقٍ من الذكريات، تساءلتُ: ما الذي توحي به هذه الصورة لأربعة أجيالٍ من الفلسطينيات؟

بالنسبة لجدة أمي، كان العالم ينحصر في القدس وفي أزقتها الملتوية. وهي قلما كانت تبتعد عن جدرانها. غير أنها كانت ولا شك، مِلكةً داخل بيتها، تعيش في مدينتها ووطنها. لم تكن تشكُّ لحظة واحدة في هويَّتها ولا في الأرض التي تنتمي إليها وتملكها. كانت حياتها وموتها موجودَيْن في كلٍّ لا يتجزأ يمنحها الأمان الذي يحتاجه كل إنسان.

أما ابنتها زليخة التي كانت حياتها أيضاً هادئة مع انفتاح أكثر على العالم، فإنّها لم تعرف مصاعب إلاَّ في العشرين سنة الأخيرة من حياتها عندما أرغمتْها حوادث فلسطين على المنفى. وقد توفيتْ وسط حرارة الصحراء وهي في طريقها من بغداد إلى القدس. واليوم، هي ترقد في قبر منعزل بإحدى مقابر بغداد.

وعلى رغم معرفةٍ قليلة بالقرآن، فإن جدّة أمي وجدّتي، كانتا أُمِّيتيْن. في حين أن أمي كانت تتكلم أربع لغات. أما أنا، فقد حصلت على إجازة جامعية وسافرت عبر أنحاء العالم. لكنني لا أتردَّد في القول بأن فترة جدَّة أمي، أسماء، كانت أسعد من الفترة التي أعيش فيها: إنها لم تعرف أبداً مصير اللاَّجئين، ولم تُرغَم على أن تبحث عن بَلدٍ يؤويها، ولم تَستَجْدِ جوازَ سفر ولا عاشت متطلعةً دائماً إلى هوية لا يلفُّها التباس.

أين أنا الآن فيما أقترب من غسق حياتي؟ كيف يمكنني أن أعرف حقّاً من أي شيء صُنِعْت حياتهنَّ؟ أَلَسْنا نميل جميعنا إلى الاعتقاد بأن أقاربنا سيظلون دوماً حاضرين، مُتناسين أَن السنين تمرُّ، وأن زمن طرح الأسئلة وسَبْر أغوار الماضي يَنْقضي إلى غير رجعة؟ أعتقد أن التغيُّرات الحاصلة ما بين ميلاد جدّة أمي في أول القرن التاسع عشر، والفترة التي أعيش فيها، أي بعد قرنٍ من الزمن، قد حصلت تغيرات لا نظير لها في التاريخ.

في ذلك الصباح الذي عثرتُ فيه على هذه الصورة الفوتوغرافية القديمة للعائلة، لم تكن لديَّ الشجاعة لأُدقِّق النظر فيها طويلاً. وفي بعضِ الأيام، يُلقي الماضي بِثِقْله على القلب؛ غير أنني كثيراً ما أَغُوصُ فيه وأَتذكَّر.

***